كلمة العـــدد

البحث العلمي سمة من سمات أصالة الأمة العربية ، لهذا اندفع أبناؤها يدققون ويفتشون في كل مجالات العلم ، فخلفوا هذا التراث الواسع ، الذي ظلت الأمم تنهل من معينه قرونا طويلة ، واحتفظت الى اليوم مكتباتها بما لم يستطع انسان أن يحصيه من كتب فنونه،بل معرفة مواضعه ، وما ضاع منه أضعاف أضعاف ماعرف منه ، ولهذا لم يفقد الباحثون الأمل في العثور على الكتب التي عدها غيرهم مما ضاع من التراث ، وكل يوم يكتشفون جديداً من ذلك . فمن هنا يظهر عظم المسؤوليات الملقاة على عاتق علماء هذه الأمة اليوم اذ عليهم أن يربطوا حاضرها بماضيها ، ويحددوا معالم مستقبلها ، فالمهمات اذن ثقيلة ، وسبل المسيرة وعرة والأعداء كثيرون فمنهم : عدو ظاهر العداوة ينطلق من حقده على هذه الأمة وتراثها ، فينكر أن يكون لها مكانة في العلم في ماضيها ويسعى الى تخريب تاريخها علنا، ويعمل كل مايستطيع من كيد وتضليل وتغريبها في نفسها وتراثها ، وعدو يتظاهر بصداقة هذه الامة، ويدعي الانتساب بسبب من الأسباب اليها : دينها ولغتها ورجالاتها ، ولكنه يشوه الحقائق ويغير التاريخ ، فلادين بدون العرب ، ولا لغة بدون لغتهم ، ولاتاريخ بتشويه وقائع تاريخهم.

فعلى أبناء العربية اليوم ، وعلى رأسهم مثقفوها أن يقفوا بكل حزم لكل الدعوات المضللة ، ويتنبهوا بكل حرص لكل رأي ، ليبقوا صفحات التاريخ ناصعة صافية، ويوصلوا تاريخهم بأمانة الى خلفهم كما تسلموه عن سلفهم، اذ تراثنا خالد، فعلى الرغم من الحملات الحاقدة المنظمة التي وجهت اليه، وكل المحاولات التي بذلت لطمس معالمه وتشويه وقائعه وحرف كثير من نظرياته واتجاهاته ، ظل يصاول أولئك الأعداء والمدعين وانتصر عليهم جميعا .

ولينطلق علماؤنا للحفاظ على هذا التراث . فيكشفوا عن مكنونات كنوزه ، ويمدوا العالم بالروح الأنسانية الخالدة التي يطمئنون اليها ويسكتوا الأصوات المضللة التي تريد أن تسرق من هذه الأمة : تاريخها وحضارتها وانسانيتها ، فتحرف المسيرة وتسدل الستار على الحقائق التي ظلت ملكا للأمة العربية لايشاركها فيها أحد . بل ظل العالم الى عهد قريب يكبر فيها قيادتها للأنسانية وأستاذيتها لها .

والمجلة اذ تصدر عددا جديدا من أعدادها اليوم انما تعاهد أهل العلم في أنها ستظل المنبر الذي ينشر تجربة الأمة بكل دقائقها ، وتعاهدهم بأنها ستنقل آمالها في مستقبلها ، وستظل أمينة عل الأسس السليمة في البحث العلمي لتصل من خلالها الى الحقائق العلمية الصحيحة ، فتفيد منها أمتنا في مسيرتها ، وتعود لتعطي الأنسانية من اشعاع نورها الكثير على هدى من رسالتها الخالدة .

هيئة التحرير

قواعد النشر في مجلة آداب الرافدين

١ . تقبل المجلة البحوث ذات الاضافات الجديدة في الدراسات الأنسانية باللغتين العربية والانكليزية على أن تكون بحدود ٣٠ صفحة أو ما يعادل (٥٠٠٠) كلمة . وأن تستوفي فيها الأصول العلمية في البحث.

٢ . ألا يكون البحث منشوراً أو مرسلاً إلى مجلة أخرى وعلى الكاتب اعلام المجلة في حالة نشره في مكان آخر .

٣ . تزود المجلة بثلاث نسخ من البحث مطبوعة على الآلة الكاتبة للاستفادة منها عند احالتها إلى الخبراء .

٤ . تعنون البحوث باسم سكرتارية التحرير .

٥ . على الكاتب تثبيت اسمه وعنوانه ودرجته العلمية بصورة واضحة.

٦ . يعلم كاتب البحث خلال أسبوع بتسلم البحث .

٧ . ترسل البحوث إلى خبراء أو محكمين لمعرفة صلاحيتها للنشر .

٨ . يزود كاتب البحث بكتاب تأييد بالموافقة على النشر .

٩ . يزود كاتب البحث بعدد من المجلة بعد نشر بحثه وعشر نسخ من المستلات .

١٠. تمنح المجلة ٥٠ خمسين ديناراً مكافأة على النشر .

١١. لاتعاد البحوث غير المقبولة للنشر إلى أصحابها .

١٢. يتحمل كاتب البحث مسؤولية الآراء التي ينشرها وأمانة النقل عن المصادر الأخرى .

من مصادر الدراسات النحوية

الدكتور أحمد خطاب العمر
أستاذ مساعد
كلية الآداب — جامعة الموصل

تمهيد :

ظلت الدراسات النحوية تعاني نقصا في مصادرها ، على الرغم من كثرة الكتب التي خلفها النحاة المتقدمون ، وماكتبه تلاميذهم من بعدهم في شرح تلك الكتب ، وفي الاستدراك عليها ، أو التنبيه على أوهام مؤلفيها ، ثم تلاهم العلماء جيلا بعد جيل ، الى أن نضب ماعندهم ، فرجعوا الى ماخلفه المتقدمون يلخصون كتبهم أو يعيدون ترتيبها ، ولكن معظم تلك الكتب لم يصل الينا وكثير مما وصل ظل رهينا بين جدران المكتبات ، فالرسالة التي نسبت الى أبي الاسود الدؤلي مثلا في وضع النحو ، على شهرتها وتأكيد كل كتب التراجم على ذكرها . لم يعرف أحد شيئا عنها ، ولم نعثر على كتاب في النحو نقل عنها ، وقل مثل ذلك في كتابي عيسى بن عمر «الجامع و«الاكمال» وكتاب «المختصر في النحو» للكسائي وكتاب «الحدود في الاعراب» و «الكافي في النحو» و «البهاء» للفراء ، وكتاب «المدخل الى علم النحو» للمفضل ابن سلمة . وكتاب المقاييس في النحو» للاخفش وكتاب «العلل في النحو» لقطرب و «العلل في النحو» و «المصون في النحو» لثعلب ، وغيرها من كتب النحويين المتقدمين .

ولو رجعنا الى مصادر دراساتنا النحوية اليوم ، فاننا نحس أن في عدد منها نقصا لايستطيع المتثبت أن يطمئن اليها ، وخاصة كتب الأصول منها فكم من رأي نسب الى سيبويه مثلا لم يستطع الدارسون أن يجدوه في كتابه هذا ، ولنأخذ كتاب «معاني القرآن» للفراء الذي هو معتمد الدارسين للمذهب

الكوفي ، فان المدقق في منهج هذا الكتاب يرى فجوات كثيرة فيه ، فعند تناوله الآيات القرآنية لانراه يستقري الآيات كلها وانما نراه يترك كثيراً منها ، .فلو استعرضنا سورة البقرة فاننا نجده يترك الآيات بين الآية الحادية والخمسين والسابعة والخمسين ، وبين الآية الثالثة والثمانين والتاسعة والثمانين ، وبين الآية السادسة والأربعين بعد المائتين والثامنة والخمسين بعد المائتين ، وفي سورة النساء يترك الآيات بين الآية الخامسة والخمسين والحادية والسبعين ،وبين الآية الرابعة بعد المائة والثانية عشرة بعد المائة . وفي سورة الأعراف بين الآية الثامنة والستين والثامنة والسبعين ؛وبين الآية الثمانين والمائة .وفي سورة هود بين الآية الثالثة والعشرين والثلاثين ، إلى كثير من الآيات في السور التي ذكرناها آنفاً، وفي غيرها من السور الأخرى ، مما يرجح أن الكتاب المحقق على نسخة محمد بن الجهم هو كتاب ناقص و قد ذكر الزبيدي (١) : « أن كتابه (أي الفراء) في القرآن في نحو ألف ورقة » وذكر : « أن كتاب سلمة أجود الكتب لأن سلمة كان عالماً وكان لايحضر مجلس الفراء يوم الأملاء وكان يأخذ المجالس ممن يحضرها ويتدبرها فيجد فيها السهو فيناظر عليها الفراء فيرجع عنه، وكان أحمد بن يحيى سمعه من سلمة بن عاصم عن الفراء ».وما ذكره محمد بن الجهم المولود سنة ١٨٨هـ (٢): « أن سلمة بن عاصم كان «يجئ بعد أن ننصرف نحن فيأخذ كتاب بعضنا فيقرأ عليه . ويغير ويزيد وينقص» .

فهذا كله دليل على وجود نسخة أخرى أتم من هذه التي يعتمد عليها دارسو المذهب الكوفي . وإذا ماعلمنا أن سلمة هذا من جلة تلاميذ الفراء ، تبينت قيمة النسخة التي تروى عنه،يضاف إلى هذا أن محمد بن الجهم كان قدسمع الكتاب من الفراء سنة ٢٠٤ هـ أي أن عمره كان في حدود السادسة عشرة . ولهذا يجد القارئ اضطراباً كثيراً في شرحه لعدد من الآيات ، ففي الوقت

(١) طبقات النحويين ص ١٣٣
(٢) مقدمة معاني القرآن ج١ ص ١٤

الذي نجده يتوسع في شرح عدد منها فيورد كثيراً من الأحكام النحوية واللغوية والقراءات ، نراه يختصر القول في شرح عدد آخر ، فمن هنا يترجح ماافترضناه أولاً ، وبات مفروضاً على دارسي المذاهب النحوية أن يفتشوا عن النسخة الأخرى لتغني المكتبة العربية بآراء الثراء أولاً وبآراء المذهب الكوفي .

هذه أمثلة من العوامل التي أثرت في جوانب كثيرة من هذا العلم فظل يعاني من صعوبة فهمه على دارسيه ، ومن الروايات المختلفة كثيراً في وضعه ، فمعظمها يروي أن واضعه الأمام علي (رض) وهو الذى أشار إلى أبي الأسود أن يكمل مابدأه وقال له : أنح هذا النحو فسمي هذا العلم نحواً ، ولكن المتتبع يجد روايات مختلفة ، فقد أوردت بعضها أن أبا الأسود عندما وضع أسس هذا العلم أتى عبدالله بن عباس (رض) فقال له (١) : « إني أرى ألسنة العرب قد فسدت فأردت أن أضع شيئاً لهم يقومون به ألسنتهم فقال : لعلك تريد النحو أما أنه حق واستعن بسورة يوسف» ونرى مصادر أخرى (٢) تختلف في هذا ، ففي الوقت الذى نجد عدداً منها يروي أن أبا الأسود : استأذن زياداً (وتقول أخرى هو عبيدالله بن زياد) في وضع النحو فأبى ، وتروي أخرى انما زياد هو الذى طلب من أبي الأسود وضعه فأبى ، وتذكر أخرى ان أبناء زياد كانوا يلحنون فهم السبب في وضع النحو ، ونجد أخرى تقول : ان ابنة أبي الأسود الدؤلي قالت له : ماأجملُ السماءِ (بضم اللام وكسر همزة السماء) . وقيل بل قالت : ماأشدُّ الحرِّ (بضم الدال وكسر راء الحر) . تعود أخرى لتقول : انما سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ : إن اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولهُ « التوبة ـ ٣» (بضم اللام) .

---

(١) انباه الرواة ١٦/١ .

(٢) مراتب النحويين ص ٢٧ ، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص٢١ وما بعدها ، وكتب تاريخ النحو .

فالاضطراب في كل تلك الروايات تتطلب من الدارسين أن يتثبتوا من ذلك ويبحثوا عن الصحيح فيها ، هذا اذا ما اضفنا أن الكتب تروى ان المتقدمين كانوا يعرفون هذا العلم ، فقول ابن عباس « لعلك تريد النحو» دليل على هذا ، وما رواه الزبيدي (١) عن ابي عثمان النهدى قوله : « ان كتاب عمر بن الخطاب أتاهم وهم بأذربيجان يأمرهم بأشياء وذكر فيه : « تعلموا العربية» وكذلك روايته : « تعلموا العربية فأنها تشبب العقل وتزيد في المروءة » ويقول القفطي (٢) إن عمر كتب إلى أبي موسى: «أما بعد فتفقهوا في الدين وتعلموا السنّة وتفهموا العربية وتعلموا طعن الدرية وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب » .

اضافة إلى اننا لو تعمقنا التاريخ لوجدنا العربي قبل الاسلام كان اذا تحدث فانه لايخطيء في اعراب آخر الكلمة سواء كان في شرق الجزيرة أوفي غربها ، في شمالها أو جنوبها أو في وسطها ، مع أنه قد يختلف في حركة أولها أو وسطها ، أوفي طريقة لفظها أو في معانيها .

وكذلك ظلت الدراسات النحوية قاصرة في موضوعات أخرى ، فالمصطلحات النحوية على كثرتها لم تدرس دراسة مستفيضة دقيقة ولم يحصها المتقدمون احصاء علميا شاملا . ومسائل الخلافات النحوية لم تحظ بالدراسة على أهميتها وظل كتاب الانصاف في مسائل الخلاف لكمال الدين الانبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ المصدر الوحيد لهذه الدراسات ، مع أن المتقدمين قد خلفوا في هذه الموضوع كتبا كثيرة ، يكفي أن نشير الى عدد منها ، فان لثعلب كتابين فيها ، وان لابن كيسان كتابين أيضا ولأبي جعفر النحاس كتابا ولغيرهم عددا كثيرا فيها ولكنها لم تصل الى الدارسين .

من كل ما تقدم نريدأن نقول : ان الدراسات النحوية تحتاج الى التدقيق والوقوف أمام المادة النحوية كثيرا لنصل الى الكشف عن كثير من مشكلات هذا العلم ، ويحتاج الى التفتيش عن كتب أخرى غير الأصول المفقودة

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ص١٢، ٢٣ .

(٢) انباه الرواة ١٦/١ .

لتيسيره على الدراسين ، وتغني الدراسات النحوية ، فقد ظل هذا العلم على سعته يحتاج الى ازالة مافيه من غموض وتذليل فهم كثير من أحكامه المشكلة ويحتاج الى التثبت من الآراء التي نسبت الى قائليها لان المحدثين ظلوا يصححون كثيرا من أحكام المتقدمين ومانسب اليهم خطأً من آراء لأن كتب المتقدمين الأصول مفقودة ، لهذا جاءت الحاجة الى التفتيش عن مصادر أخرى مساعدة تعيننا في دراستنا اليوم ، وفي تقويم مايمكن تقويمه من أحكام ، والوصول بها الى الصورة الصحيحة في تلك الأحكام ، فجاءت هذه الدراسة لتلفت الأنظار الى الاستفادة من مصادر أخرى ، وسنأتي بنماذج من تلك الكتب وننوه بمناهجها في الاستفادة من أحكام النحاة وخلافاتهم ومصطلحاتهم فهي مصادر جيدة في امدادنا بقواعد وأحكام قد تعيننا في ترسيخ أسس هذا العلم ، مع أن كتب هذه العلوم لها صلة وثيقة بعلم النحو وهي : كتب التفسير وكتب القراءات وكتب الوقف والابتداء وكتب شروح القصائد الطوال .

١ – كتب التفسير :

للقرآن الكريم أثره الكبير في نفوس المسلمين ، فعندما يكتب العلماء في علومه ، تراهم يتحرون الدقة فيها ، لأنهم إنما يندفعون من ايمانهم ليصونوا آيه من التحريف والتصحيف ، لهذا كانت كتب التفسير والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول والأعراب والقراءات والوقف والابتداء هي من السبل التي صانت القرآن الكريم من حيث ضبط نصه وحفظ قراءاته ، ولما كان التفسير يعتمد على فهم غريبه ومعناه ، وهذا يعتمد فيما يعتمد على الاعراب ، لهذا كان للقواعد النحوية وأحكامها أثرها الواضح في مناهج هذه الكتب ، ومع هذا فقد تباينت في استخدام تلك القواعد والأحكام ، وكانت تستفيد من تعليلات النحاة وتأويلاتهم وحججهم وخلافهم ولو عمل تبويب لموضوعات النحو في عدد منها لجاءت مستوعبة لكثير من جزئياته إلا أنه مع هذا كانوا

يختلفون في أساليبهم في الاستفادة ، فمنهم من يتوسع في ذلك ليستوعب كل قضاياه وفي مقدمة هذه الكتب كتاب «جامع البيان عن تأويل آى القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وكتاب «التبيان في تفسير القرآن» للطوسي محمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٦٠هـ، وكتاب «الكشاف» للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ، وكتاب «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ، و«البحر المحيط» لأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥هـ.

ومنهم من يختصر في الأحكام والقواعد ويأتي بها عرضاً كالنسفي عبدالله ابن أحمد في تفسيره وجلال الدين السيوطي في تفسيره (ت ٩١٠هـ).

ولم تدخل كتب معاني القرآن في كتب التفسير لأن لها مناهجها الخاصة ، ولا كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة ولا تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة للسبب نفسه .

وسيكون كتاب تفسير الطبري موضع دراستنا في هذا الباب ، لأنه أقدمها أولا وأوسعها في الاستفادة من النحو ثانياً.

منهج الطبري في تفسيره :

الطبري هو أبو جعفر محمد بن جرير ولد آخر سنة ٢٢٤هـ في آمل بطبرستان، وشب طالباً للعلم فطوف في بلدان كثيرة إلى أن استقر في بغداد ، ومات سنة ٣١٠ هـ .

انتهى من تأليف كتابه سنة ٢٧٠ هـ في زمن ثعلب والمبرد ولهذا فان للمسائل الخلافية التي ينقلها في كتابه عن البصريين والكوفيين قيمتها الكبرى في تصور المذاهب النحوية، مهد لكتابه بمقدمة ذكر فيها أسلوبه في الكتاب فقال (١) : اللهم وفقنا لاصابة القول في محكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه وعامه وخاصه ومجمله ومفسره وناسخه ومنسوخه وظاهره وباطنه وتأويل آيه وتفسير مشكله ثم ذكر مايحتاجه المفسر وذكر البيان واتفاق المعاني،

(١) جامع البيان ٤/١ وما بعدها .

ثم توسع ليأتي بالامثلة على ذلك ومافي القرآن الكريم من لغات، ثم تناول معنى الأحرف السبعة مستشهدا لذلك بأحاديث الرسول (ص) وأقوال الصحابة والتابعين ، واذا مااستعرضنا منهجه في تفسيره فاننا نراه يكثر من القواعد النحوية والأحكام وخلافات المذاهب النحوية ولهذا فسندرس هذا المنهج لنتبين قيمة هذا الكتاب في الدراسات النحوية :

أ- على الرغم من أن الطبري كوفي المذهب وقد شهد له ثعلب بذلك حيث قال (١) : « ذاك من حذاق الكوفيين» فانه أورد كثيرا من آراء البصريين ومصطلحاتهم وحججهم وشواهدهم وتعليلهم للمسائل ، ولكنه قد يرد عليهم ويخطئهم أو قد يستشهد بآرائهم ويذكر ميله الى الآراء الكوفية فقط ، قال في قوله تعالى (٢): وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني اسرائيل(الشعراء/٢٢) قال بعض نحويي البصرة: وتلك نعمة تمنها عليّ ، فيقال : هذا استفهام كأنه قال : أتمنها عليّ ؟ ثم فسر فقال أن عبدت بني اسرائيل، ، وجعله بدلا من النعمة .

وكان بعض أهل العربية ينكر هذا القول، ويقول ، هو غلط من قائله لايجوز أن يكون همز الاستفهام يلقى ، وهو يطلب فيكون الاستفهام كالخبر ، قال : وقد استقبح ومعه«أم» وهو دليل الاستفهام ، واستقبحوا:

ثروح من الحي أم تبتكر   وماذا يضرك لو تنتظر

قال : وقال بعضهم : هو أتروح من الحي . وحذف الاستفهام أولا اكتفاء بـ«أم» وقال أكثرهم : بل الأول خبر ، والثاني استفهام ، وكأن«أم»اذا جاءت بعد الكلام فهي الألف ، فأما وليس معه«أم»فلم يقله انسان .

---

(١) معجم الادباء ١٣٨/٩ .

(٢) جامع البيان ٦٩/١٩ .

وقال بعض نحويي الكوفة في ذلك ماقلنا ،وقال : معنى الكلام وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين لنعمتي، أي، لنحمة تربيتي لك فأجابه فقال : نعم هي نعمة على أن عبّدت الناس ولم تستعبدني .»

إلى كثير من المواضع التي كان يتناولها في الترجيح والرد.

ب ـ أما المسائل الخلافية بين البصريين والكوفيين فانه قد أورد منها مايزيد على مئتي مسألة ،ذكر حججهم وأحكامهم وآراء علمائهم وشواهدهم ومصطلحاتهم، وكانت طريقته فيها أن يقول: قال بعض نحويي البصرة أو الكوفة ،وكان يكرر: وقال آخر منهم ثم يذكر مافيها من قراءات أو لغة، وكان بعد ذلك يرجح فيؤيد أو يخالف ،وكان يكرر عبارته: وأولى القولين عندي بالصواب، فيأتي بالرأى الذي يميل اليه، وكانت كل ترجيحاته يؤيد بها الرأي الكوفي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، قال في قوله تعالى (١): «مافعلوه الاقليل منهم » (النساء / ٦٦) اختلف أهل العربية في وجه الرفع في قوله :«الاقليل منهم» فكان بعض نحويي البصرة يزعم أنه رفع «قليل» لأنه جعل بدلا من الأسماء المضمرة في قوله: «مافعلوه» لأن الفعل لهم، وقال بعض نحويي الكوفة انما رفع على نية التكرير، كأن معناه: مافعلوه مافعله الاقليل منهم، كما قال عمروبن معدي كرب

وكل أخ مفارقه أخـوه لعمر أبيك إلا الفرقـدان

وأولى الأقوال ذلك بالصواب أن يقال : رفع القليل بالمعنى الذي دل عليه قوله «مافعلوه الاقليل منهم» ،وذلك أن معنى الكلام : ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعله الا قليل منهم ،مافعلوه على الخبر عن الذين مضى ذكرهم ... ثم استثنى القليل، فرفع بالمعنى الذي ذكرنا اذ كان الفعل منفيا عنه، وهي في مصاحف أهل الشام: «مافعلوه الا قليلا منهم» واذا قرىء كذلك فلا يرد به على قارئه في اعرابه لانه المعروف في كلام العرب اذ كان الفعل مشغولا بما فيه كناية من قد جرى ذكره ثم استثنى من الفعل ،

---

(١) جامع البيان ١٦١/٥ .

وكقوله في قوله تعالى (١): «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا» (يونس/٨٨) اختلف أهل العربية في موضع «يؤمنوا» .

فقال بعض نحويي البصرة هو نصب لأن جواب الأمر بالفاء ، أويكون دعاء عليهم اذ عصوا ، وقد حكي عن قائل هذا القول أنه كان يقول: هو نصب عطفا على قوله : «ليضلوا عن سبيلك» وقال آخر منهم : وهو قول نحويي الكوفة موضعه جزم على الدعاء من موسى عليهم، بمعنى : فلا آمنوا كما قال الشاعر:

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى يقول ولاتلقني الا وأنفك راغم

وكان بعض نحويي الكوفة يقول هو دعاء كأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا قال : وان شئت جعلتها جوابا لمسألته إياه ، لأن المسألة خرجت على لفظ الأمر فتجعل «فلا يؤمنوا» في موضع نصب على الجواب، وليس بسهل ، قال: ويكون كقول الشاعر :

ياناق سيري عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

قال: وليس الجواب بسهل في الدعاء، لأنه ليس بشرط والصواب من القول في ذلك: انه في موضع جزم على الدعاء بمعنى فلا آمنوا ، وانما اخترت ذلك لأن ماقبله دعاء ، وذلك قوله : «ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم» ، فالحق قوله «فلايؤمنوا» اذ كان في سياق ذلك بمعناه أشبه وأولى.

جـ ـ أما مصطلحات الكوفيين والبصريين فقد أورد منها كثيراً سنورد نماذج منها دلالة على توسع هذا الكتاب بالاستفادة من مسائل النحو بكل تفاصيلها (٢) منها «الرد والمردود (المقصود به البدل أو العطف) والنسق والترجمة والتكرير والقطع والنصب على الصرف (وهو نصب الفعل الواقع بعد حرف عطف على فعل آخر معتمد على نهي او استفهام) والتفسير والكناية

---

(١) جامع البيان ١١/١٥٩، ١٦٠ .

(٢) تنظر دراستنا «الطبري النحوي الكوفي من خلال تفسيره» مجلة آداب الرافدين العدد التاسع من ص٢٣٧ – ص٢٦٤

والمكنى والعماد والمجهول والتقريب (وهو اسم الاشارة) وحروف الصلة (وهي حروف الزيادة) وحروف الصفات (وهي حروف الخفض) والاجراء وترك الاجراء (وهو الممنوع من الصرف والمصروف) والجحد (وهو النفي) إلى غير ذلك من المصطلحات الأخرى في مواضيع كثيرة في الكتاب.

٢ ـ كتب القراءات

كانت القراءات من أسبق العلوم التي اهتم المسلمون بها لأنها واكبت نزول القرآن ولعلها أسبقها أيضا في اكثار المؤلفين من الكتابة فيها ووضع الأسس التي تضبط معالم هذا العلم الذي كثر أئمته والتلاميذ الذين يأخذونه عنهم كعبد الله بن عامر (ت١١٨هـ) ومحمد بن عبد الرحمن المحيصني (ت١٢٣هـ) ويحيى بن يعمر (ت١٢٩هـ) وأبان بن تغلب (ت ١٤١هـ) وعيسى بن عمر (ت١٤٩هـ) ومقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ) وأبي عمرو بن العلاء (ت١٥٢هـ) وغيرهم كثيرون قد خلفوا كتبا في هذا العلم، وظلوا يدققون فيه فوضعوا كتب القراءات السبع والعشر والأربع عشرة والشاذة، ووضعوا الكتب في تسلسل الروايات وفي التلاميذ الذين يرثون الرواية عن سابقيهم، ثم توسعوا فكتبوا في شروطها وعللها.

وكانت مناهج مؤلفيها تتسم بأنهم أوردوا خلافات المتقدمين في قراءة أية آية فأوردوا لغات العرب فيها وأشاروا إلى قضايا لغوية وصوتية فيها ومن تلك القضايا: المد وتخفيف الهمز وتحقيقها والوقف عليها والروم والاشمام والامالة والادغام والاظهار والقلب وتناولوا مخارج الحروف وصفاتها واختلافهم في نطق كثير من الكلمات فكانت هذه القضايا اتجاها بارزاً في القراءات. ويستطيع القارىء ان يلمح بيسر اتجاها آخر فيها غير هذا انصب في ضبط حركة الآخر أو تغييرها على أسس عدد من القواعد النحوية والصرفية، ومن هنا فان علاقة النحو بالقراءات علاقة وثيقة إذ عن طريقه يصح تأويل المعاني وتعليل الاتجاه، ولهذا فسنقصر دراستنا للقراءات هنا في تلك العلاقة، لنكشف عن الصلة بينهما أولا عن قيمة هذه المصادر في الدراسات النحوية أخيراً.

لعل أقدم كتاب وصل الينا هو كتاب ابن مجاهد المتوفى سنة (٣٢٤هـ) فقد كتب عن القراء السبعة وعن تلاميذهم وشيوخهم وفي قراءاتهم وهو الذي سبع السبعة كما قالوا . الا أننا لم نجعل كتابه موضع دراستنا لأنه لم يذكر الخلاف الاعرابي على مناهج النحويين ، وانما كان يذكر الخلاف في القراءات مختصراً فقط ،ولكن اذا تجاوزناهذه الفترة وجدنا كتباً أخرى، اعتمدت على القاعدة النحوية وعلى حكم النحاة في معالجة تلك القراءات وعللها ، ككتاب «القراءات وعللها» و«الحجة» لابن خالويه (ت٣٧٠هـ) وكتاب الحجة لأبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ)«والمحتسب» لابن جنى (ت٣٩٢هـ) وكتاب «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» لمكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ). وسيكون كتاب الحجة لأبي علي الفارسي معتمدنا في هذه الدراسة لأنه أوسعها ولكن سنعتمد على الجزء المطبوع منه .

منهج أبي على الفارسي (١) في كتاب الحجة :

هو الحسن بن احمد بن عبدالغفار من شيراز روى القراءة عن ابن مجاهد واخذ النحو عن أبي اسحاق الزجاج ثم عن ابي بكر السري وآخرين. وله تلاميذ كثيرون منهم ابن جنى، وانتهت اليه رياسة النحو وله كتب كثيرة ومنها كتابه الحجة الذي وجه فيه القراءات على أساس القواعد النحوية واللغوية والصرفية والبلاغية وفضلاً عن المعاني.

١ - قال محققو الكتاب (٢) «فقدهيأ ابو بكر بن مجاهد الأسباب لهذه الدراسة اذ جمع القراءات السبع في كتاب، فجمع بذلك مادة الدراسة ومهد اليها السبيل »ثم قالوا:«وأن أبا محمد بن السرى المعروف بابن السراج كان قد شرع في تصنيف كتاب في الاحتجاج للقراءات التي جمعها ابن

---

(١) ترجمته في غاية النهاية ٢٠٧/١

(٢) الحجة ج١ ص ٢٨-٣٠

مجاهد ... أنجز سورة الفاتحة وآيتين من سورة البقرة وفي هذا توجيه لأبي علي ودعوة له أن ينوب عن شيخه في الاضطلاع بما شرع فيه، ولم يقدر أن يتمه»

٢ – يبدأ أبو علي في عرضه للآيات بأن يذكر خلافات القراء فيها معتمداً على ابن مجاهد، ثمّ يتبعه بآراء شيخه ابن السراج .

٣ – يفسر كلمات الآية ويصرف مايحتاج منها إلى معرفة تصريفه ثم يعرض ما كان له اتصال بقضايا النحو وأحكام النحاة ثم يتناولها تأويلا واعرابا وقد يعود إلى القراءات ليتوسع فيها ويرجع كل قراءة إلى وجه من وجوه العربية .

٤ – انصبت مادته العلمية في كتابه بأن ذكر حجج العلماء فيها فكان يقول وحجة من رفع وحجة من قال بالنصب محتجا بالقرآن الكريم والحديث الشريف وشعر العرب القديم في الجاهلية والاسلام ويذكر لهجات القبائل وأقوال أئمة اللغة والنحو.

فالقواعد النحوية اذاً كانت من العلوم التي استفاد منها في كتابه كثيرا وأورد منها أحكاما وخلافات كبيرة كان يذكر أسماء قائليها على الأغلب وسنأتي بأمثلة على اتجاهه ذاك.

أ– في القواعد والاحكام

قال في (١) «مالك يوم الدين» واعلم أن الاضافة إلى يوم الدين في كلتا القراءتين (٢) من باب :

ياسارقَ الليلةِ أهلَ الدار

اتسع في الظرف فنصب نصب المفعول به، ثم وقعت الاضافة اليه على هذا الحد وليس اضافة اسم الفاعل هاهنا إلى اليوم كاضافة المصدر إلى الساعة

---

(١) الحجة ص ١٤ – ١٦ .

(٢) يريد ملك ومالك

في قوله : «وعنده علم الساعة» لأن «الساعة» مفعول بها على الحقيقة وليس على جعل الظرف مفعولا به على السعة.

ألا ترى أن الظرف إذا جعل مفعولا على السعة فمعناه متسعا فيه معنى الظرف فلو جعلته ظرفا لكان المعنى :يعلم في الساعة ،فلم يكن بالسهل لأن القديم يعلم في كل وقت، فانما معنى يعلم الساعةيعرفها وهي حق ، وليس الأمر على ما الكفار عليه من انكارها وردها، واذا كان كذلك فمن نصب : «وقيلهيارب» جاز أن يكون حاملا له على المعنى وموضع الساعة، لأن الاسم منصوب في المعنى بأنه مفعول به وكذلك قوله: «ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام » وهذا كقوله «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت» واذا كان كذلك فالظرف في قوله «قل انما علمها عندالله» و«انما علمها عند ربي» لايكون متعلقا بمحذوف الاأن تجعله في موضع حال، ومايمكن أن يكون انتصابه على أنه مفعول به على الاتساع وكان في الأصل ظرفا قوله : « أياما » في قوله : «ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات » فالعامل في الأيام «كتب».

وان شئت اتسعت فنصبته نصب المفعول به فتقول على هذا: يامكتوب أيام عليه، ولايستقيم أن ينتصب أيام بالصيام على أن يكون المعنى: كتب عليكم الصيام في أيام، لأن ذلك وان كان مستقيما في المعنى فهو في اللفظ ليس كذلك ألاترى إن حملته على ذلك فصلت بين الصلةو الموصول بالأجنبي منهما ،وهو أيضاً كان يستعمل رأيه الشخصي ،فيخطيء أو يصحح قال في(١) « لاريب »فيه يجوز أن تجعل « فيه» خبراً ، ويجوز أن تجعله صفة ان أضمرت الخبر ، وان جعلته خبراً كان موضعه رفعاً في قياس سيبويه من حيث يرتفع خبر المبتدأ وعلى قول أبي الحسن الأخفش موضعه رفع من حيث كان خبر إن رفعا، فان جعلت« فيه» صفة،ولم تجعله خبراً كان

---

(١) الحجة ١/١٤٠، ١٤١

موضعه نصباً ،في قول من وصف على اللفظ ، كما عطف على اللفظ في قوله: « لا أب وابنا» .

ب- في المصطلحات :

المصطلحات التي أوردها في كتابه مصطلحات بصرية ، كالضمير وحروف الجر والصفة والموصوف والظرف والحال ومنع الصرف ومالا ينصرف والجزاء .

جـ- المسائل الخلافية

أورد أبو علي الفارسي في كتابه هذا أقوالاً كثيرة منسوبة إلى قائليها : بصريين أو كوفيين ، ولكننا وجدنا « يسمي البصريين في مواضع من الكتاب(١) فقال « وحكى البصريون الاعراب »ولكن هذا لم يكن عاماً، فهو كان يذكر الخلافات المفردة بين نحويي البصرة والكوفة ، وهذا واضح في منهجه.

٣ -كتب الوقف والابتداء :

القواعد النحوية والمعنى ممايوجه معرفة أنواع الوقف ومواضع الابتداء. وعلى هذا سمّى المهتمون بهذا العلم أنواعاً من الوقف حسب ماذكرناه هنا.

فالوقف التام :(٢) هو ما يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده لأنه لا يتعلق مابعده بشيء مما قبله لا لفظاً ولا معنى. فقالوا يبتدأ بعده بالاستفهام وبالنداء وبفعل الأمر وبلام القسم وبالشرط.

والوقف الكافي : وهو مايحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده .ولكنّ له تعلقاً بما بعده من جهة المعنى ،مقتطع عنه لفظاً،ويقع بعده مبتدأ أو فعل مستأنف أو مفعول لفعل محذوف أو نفي أو إن المكسورة .

والوقف الحسن :وهو ما يحسن الوقف عليه ،ولايحسن الابتداء بما بعده

---

(١) الحجة ١٩/١

(٢) القطع والائتناف ص ١١، ١٢

لالتعلق اللفظي وهو أن تقع بعده آية استثناء والأخرى مستثنى منها.

وقد اتفق كل الذين كتبوا في هذا العلم بأنه لايوقف بين الصلة والموصول ولابين الصفة والموصوف ولابين المضاف والمضاف اليه.

وقد أشاروا إلى هذه العلاقة فقد حددوا الوسائل التي يحتاجها القائم بعلم التمام قال ابن مجاهد (١): «لايقوم بالتمام الا نحوي عالم بالقراءات، عالم بالتفسير، عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض عالم باللغة التي نزل بها القرآن».

فموضوع الوقف والابتداء ألصق بعلم النحو وبأحكامه لهذا كتب معظم النحويين المشهورين فيه (٢): كالكسائي والاصمعي وأبي جعفر الرؤاسي والمبرد وثعلب وابن كيسان والزجاج والنحاس وغيرهم ولعل من كثرة اهتمامهم به نجد ان أبا جعفر الرؤاسي قد خلف فيه كتابين والنحاس نسختين: صغرى وكبرى.

ومناهجها في عرضها هذا العلم متفاوتة ففي الوقت الذي نجد عدداً منها يختصر القول ويحدد المواضع فقط ككتاب الوقف والابتداء (٣) لاحمد ابن محمد بن أوس المقرىء المتوفى سنة ٣٤٠هـ نجد كتبا أخرى كثيرة تعتمد القواعد النحوية بتوسع ككتاب ايضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الانباري وللنحاس وللداني وهذه متفاوتة في مناهجها أيضا فمنهج أبي بكر الانباري مختصر بالنسبة لمنهج أبي جعفر النحاس (الذي سيكون المثال الذي ندرس على أساسه مناهج هذه الكتب) فهذا أبو بكر يختصر القول في هذه المسائل قال في (٤) «أولئك هم المفلحون» (البقرة/٥) نسق على «أولئك على هدى من ربهم» وفي قوله «أولئك هم المفلحون» وجهان إن شئت رفعت «أولئك»

---

(١) القطع والائتناف ص ٩٤ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي العدد ٣١ سنة ١٩٨٠ ص ١٥٤ - ١٧٧ .

(٣) نسخة مخطوطة في مكتبة شهيد علي باشا برقم ٣ .

(٤) ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٩٢ .

بما عاد من «هم» ورفعت بـ«هم» «المفلحون» و«المفلحون»بـ «هم»، والوجه الثاني ترفع «أولئك» بـ«المفلحون» و «المفلحون» «أولئك» وتجعل «هم» عماداً للالف واللام.

وقال في : (١) « المص كتاب أنزل اليك » الاعراف / ١ ، ٢ »

قال أبو بكر سألت أحمد بن يحيى عن هذا فقال : إذا رفعت مابعد الهجاء به فالهجاء مرتفع به ، وإذا رفعت مابعد الهجاء بمضمر أضمرت للهجاء مايرفعه .

وقال في (٢) « مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا ، فيها » (الاعراف ١٢٧) قال السجستاني : « نصبوا مشارق الأرض ومغاربها بقوله وأورثنا» ولم ينصبوها بالظرف ، ولم يريدوا في مشارق الأرض وفي مغاربها فانكاره النصب على معنى : « في مشارقها ومغاربها » خطأ لأن المشارق والمغارب فيها وجهان : أحدهما أن تكون منصوبة بـ « أورثنا» على غير معنى محل ، والمحل : هو الذي يسميه الكسائي صفة والخليل وأصحابه من البصريين ظرفا ، والوجه الثاني أن ينصب التي بـ « أورثنا» ، وينصب المشارق والمغارب على المحل ، كأنك قلت : « وأورثنا القوم الأرض التي باركنا فيها في مشارقها ومغاربها ، فلما أسقطت الخافض نصبت واذا نصبت المشارق والمغارب بوقوع الفعل عليها على غير معنى محل جعلت «التي باركنا فيها» نعتاً لـ « المشارق والمغارب » وأجاز الفراء وجها ثالثا وهو أن تنصب «المشارق والمغارب» بوقوع الفعل عليها على غير معنى محل ، ويجعل : «التي باركنا» في موضع خفض على النعت للأرض، كأنه قال :مشارق الأرض التي باركنا فيها .

هذه ثلاثة نماذج من احتجاج أبي بكر الأنباري بالأحكام النحوية وبالخلافات. ولكن اذا ما انتقلنا إلى منهج أبي جعفر النحاس في كتابه «القطع والائتناف» نجده يتوسع في هذا كثيراً وسيظهر للقاريء ذلك فيما يأتي :

---

(١) ايضاح الوقف والابتداء ص ٦٥٠

(٢) المصدر نفسه ٦٦٤

منهج أبي جعفر النحاس في كتاب القطع والائتناف :

أ ـ القواعد والاحكام : أورد في كتابه هذا كثيرا من الأحكام والقواعد التي كان يقول بها النحاة من ذلك قوله في (١) «مافعلوه الا قليل منهم» (النساء / ٦٦) زعم يعقوب (٢) أنه يرفع « الا قليل منهم» على لغة من قال: أكلوني البراغيث ، قال ومنهم من يقول المعنى الا قليل منهم. قال وما فعلوه بمعنى : وما فعله : قال : ومنهم من يقول هو مثل قول الشاعر:

فـي ليلـة مـا نـرى بهـا أحـدا   يحكي علينـا الاكـواكبهـا

قال أبو جعفر : هذا كله تخليط لايجوز الوقف على «مافعلوه» كما لايجوز الوقف على قوله عز وجل ـ« فلبث فيهم ألف سنة» وتشبيهه اياه بقولهم: أكلوني البراغيث ، خطأ لأن هذه لغة شاذة قليلة لايحمل عليها كـلام الله ـ عزوجل ـ قال سيبويه:(٣) واعلم ان من العرب من يقول: ضربوني قومك وضرباني أخواك شبهوا هذا بالتاء التي يظهرونها في: قالت فلانة كأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث قال: وهي قليلة، قال أبو جعفر : وقوله : « مافعلوه» بمعنى: مافعله، كلام غير محصل ولا يجوز مثله ،واما البيت الذي أنشده سيبويه وهو لعدي بن زيد وليس مثل الآية لأن الاختيار في «الا كواكبها» النصب، لولا أنه في الشعر على البدل من أحد ،والاختيار في الآية الرفع عند رؤساء النحويين ،قال سيبويه : حدثني يونس عن أبي عمرو قال : الوجه ماجاءني القوم الا عبدالله ، قال أبوجعفر وقد قرأ ابن عامر وعيسى« إلا قليلا منهم» فتركا الوجه والذي عليه أكثر المصاحف

---

(١) القطع والائتناف ص ٢٥٦ .

(٢) هو يعقوب بن اسحاق الحضرمي من القراء العشرة وعالم بالعربية توفي سنة٢٠٥غاية النهاية ٣٨٦/٢

(٣) كتاب سيبويه طبعة بولاق ٢٣٦/١ .

وقال في (١) «يدعو لمن ضره» الحج (/ ١٣) أما الكسائي فقدر اللام في غير موضعها وجعل « يدعو» بمعنى: يعبد، والمعنى عنده يدعو من لضره أقرب من نفعه ،كما تقول العرب : عندي لما غيره خير منه بمعنى : عندي ما لغيره خير منه ،وكما قال الشاعر

أم الحليس لعجوز شهر به

بمعنى لأم الحليس وكذا يقدر بعضهم في قول الله جل وعز « ان هذا لساحران » أي بمعنى نعم لهذان ساحران ، وقال الفراء (٢) كقول الكسائي ان اللام في غير موضعها في لمن ضره ،الا أنه أجاز ذلك في من لأنه لايتبين فيها الاعراب وأما الأخفش فحمل يدعو بمعنى: يقول كما قال عنترة.

يدعون عنترُ والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

كذا أنشده سيبويه(٣)، أي يقولون ياعنترَ، وكذا فلان يدعى محمدا، والتقدير عند الأخفش يقول: لمن ضره أقرب من نفعه الهه ثم حذف خبر الابتداء ،ومن جعل يدعو هو التمام قدر يدعو مكررة على الأولى وفي ذلك قول آخر يكون ذلك بمعنى: الذي، ويكون المعنى الذي هو الضلال البعيد يدعو كما قال :—

عدس مالعباد عليك امارة أمنت وهذا تحملين طليق

بمعنى : والذي تحملين طليق ، لمن ضره أقرب من نفعه تمام عند الاخفش وخطأه أبو حاتم في هذا لأن من عنده في موضع رفع بالايتداء ، والخبر «لبئس المولى ولبئس العشير »فغلط هو على الأخفش ، لأن الأخفش وان كان «من» عنده في موضع رفع بالابتداء فالخبر عنده محذوف كما بيناه .

(١) القطع ٤٨٦ — ٤٨٨ .

(٢) معاني القرآن ٢١٧/٢

(٣) كتاب سيبويه طبعة عبد السلام هارون بضم الراء ٢٤٦/٢

ب ـ المصطلحات : على الرغم من أن معظم المصطلحات التي أوردها بصرية الا أنه كان يأتي بمصطلحات الكوفيين أيضا لهذا نجد تلك المصطلحات مبثوته في صفحات كتابه كثيرا منها : البدل والرد والترجمة والتبيين وضمير القصة والعماد والكناية والنصب على القطع والصرف والنسق وغيرها من ذلك قوله مثلا في :ـ

١ ـ ونكفر عنكم (١) البقرة / ٢٧١ .
بالنون وفتح الراء فعلى قول الكوفيين في هذه القراءة يجب أن يكون الوقف على « فهو خير لكم » لأنهم ينصبون على الصرف من الأول .

٢ ـ وفي (٢) كتاب الله عليكم (النساء : ٢٤) وان نصبت كتاب الله على القطع وهو قول الكوفيين .

٣ ـ وفي (٣) ثمانية أزواج (الانعام / ١٤٣) تبيين لقوله وحمولة وفرشا

٤ ـ وفي (٤) انها لظى نزاعة للشعرى (العارج /١٦) كناية عن القصة والكوفيون يقولون عماد .

جـ ـ والمسائل النحوية التي أوردها في هذا الكتاب مسائل كثيرة كان عدد منها بين أئمة المذهبين مفردة والعدد الآخر كان يذكر فيها البصريين والكوفيين وكان يذكر أحيانا مسائل مفردات للبصريين أو للكوفيين ومن تلك المسائل :

١ ـ قال يعقوب (٥) «يبين الله لكم» النساء : ١٧٦ كاف دال على المعنى ثم قال «ان تضلوا» فمعناها عندنا لئلا تضلوا، قال أبو جعفر : وخولف في هذا لأن «أن» متعلقة بما قبلها على قول الجماعة، وقول البصريين يبين

---

(١) القطع من ٢٠١ .
(٢) القطع ص ٢٤٩ .
(٣) القطع ص ٢٢٣ .
(٤) القطع ص ٧٤٢ .
(٥) القطع : ٢٨٠ .

الله لكم كراهة أن تضلو مثل «واسأل القرية» ،وقول الكوفيين يبين الله لكم لئلا تضلو ، وقول ثالث أن يكون كما تقول . يعجبني أن تقوم أي قيامك ، فالمعنى يبين لكم الضلالة ، فالوقف الكافي على هذه الأقوال يبين الله لكم أن تضلوا

وقال في (٢) « ثم استوى على العرش » (الفرقان : ٥٩) تمام ان رفعت «الرحمن» بالابتداء وجعلت مابعده خبره ،وان رفعته على أضمار «هو» كان ماقبله كافياً، وأن جعلت بدلا من المضمر الذي في «استوى» كان التمام «ثم استوى على العرش الرحمن» قال أبو جعفر، وهذا على قول البصريين والكسائي أيضاً يجيزه غير أنه لايقول : على البدل ، ويقول مردود على المضمر ،والفراء لايجيز أن يرد على المضمر ظاهراً لأن المضمر عنده لايبين ،وقال أحمد بن جعفر ، ثم استوى على العرش الرحمن تم ، قال ابو جعفر والتمام باجماع : «فاسأل به خبيراً». على الاختلاف في معناه، : فقال الأخفش فاسأل به ، أي سل عن الله جل وعز — ، خبروك ، كما قال

هلا سألت القوم يابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

أي هلا سألت القوم عما لاتعلمي وكان علي بن سليمان يذهب إلى أن الباء في موضعها أي فاسأله بسؤالك خبيراً ،وكان محمد بن جرير يذهب إلى أن المعنى : فاسأله خبيراً ويذهب إلى أن خبيراً منصوب على الحال .

وذكر النحاس خلافهم في معني كلا وفي الوقف عليها فقال (٢) : واختلف أهل التفسير واللغة في «كلا» وفي الوقف عليها وعلى مابعدها وعلى ماقبلها فأكثر أهل التفسير يقول معناها : حقاً ومن أهل اللغة من يقول معناها: الا ، وقد ذكر سيبويه أن «إلا» بمعنى حقاً فقد صار القولان متفقين ، فأما الوقوف عليها ففيه خمسة أقوال : فمن النحويين من يقول لايوقف على كلا في جميع القرآن لأنها جواب ، والفائدة تقع فيما بعدها وهذا قول أبي العباس أحمد بن يحيى ومنهم من يقول يوقف على كلا في جميع القرآن،

---

(١) القطع ص ٥٢٤

(٢) القطع ص ٤٥٨ .

قال أحمد بن جعفر : عهداً كلا هذا الوقف وكذا كل كلا في القرآن إذا كانت مثلها ، ومنهم من قال يوقف على ماقبل كلا إذا كانت رأس اية وهذا قول نصير ، ومنهم من قال يوقف على ماقبلها بكل حال ، والقول الخامس أن «كلا» تنقسم قسمين أحدهما أن تكون ردعاً وزجراً وهذا قول الخليل ، وأبو حاتم يقول بمعنى إلا ، فإذا كانت كذا كانت مبتدأة كقول الله — جل وعز — «كلا والقمر» وكذا «كلا سوف تعلمون» وتكون ردعاً لكلام تقدم ... الخ ثم يتوسع في آراء الخليل والأخفش والفراء وابن سعدان وجعفر بن محمد وأبي حاتم .

٤ — كتب شروح القصائد الطوال :

تأتي هذه الشروح في استفادتها من القواعد النحوية والأحكام بعد تلك العلوم التي عرضناها فيما تقدم من البحث ، والشعر — كما هو معلوم مما قعّد النحاة على أساسه قواعدهم ، ومنه استنبطوا أحكامهم فموقعه من حيث قيمته في الدراسات النحوية موقع هام لهذا كتب معظم النحاة واللغويين المتقدمين في شرح هذه القصائد مستفيدين من الأحكام النحوية كالأصمعي والأزهري وابن السكيت وابن كيسان والقاسم بن محمد بن بشار الأنباري وأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري وأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس الا أنه لم يصل الينا من هذه الكتب على كثرتها الا قليل فشرح ابن كيسان وصلت منه مقطعات صغيرة منه نسخة في مكتبة برلين برقم (٧٤٤٠) وشرح أبي بكر الأنباري وصل الينا كاملا وطبع بتحقيق الاستاذ عبد السلام محمد هارون في مصر سنة ١٩٦٣. إلا أن اللغة فيه أغلب من النحو كغيره من الشروح الأخرى .

وشرح أبي جعفر النحاس صدر بتحقيقناعن وزارة الاعلام سنة ١٩٧٣م

واذا ما أردنا ان نفتش عن الكتاب الأمثل في استفادته من هذه القواعد نجدها كلها تختصر القول في ذلك، ولكن كتاب أبي جعفر النحاس قد يمثل ذلك تمثيلا جيدا لما فيه من قواعد وخلافات وشواهد كثيرة يستشهد بها النحاة .

منهج أبي جعفر في شرح القصائد التسع المشهورات :

قال أبو جعفر في تقديمه للكتاب بقوله: الذي جرى عليه أمر أكثر أهل اللغة الأكثار في تفسير غريب الشعر وإغفال لطيف مافيه من النحو فاختصرت غريب القصائد السبع المشهورات وأتبعت ذلك مافيها من النحو باستقصاء أكثره.

ومن هنا جاء الكتاب مستوعبا لكثير من أحكام النحو وقواعده حتى انه لو رتب ترتيبا غيرترتيبه لوجدناه كتاب نحو جيد تتمثل فيه كثيرا من قواعد النحووآراء النحاةالمفردة ومصطلحاتهم وعللهم ومسائل الخلاف بين المذهبين، وفيه كثير من شواهدهم.

أ ــ من القواعد والاحكام

قال في (١) :

مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

فيها ثماني لغات... ومن قال: من علُ فهو معرفة وتقديره من فوق ماتعلم، قال سيبويه: فالمضارع من علُ حركوه لانهم يقولون من علِ فيجرونه فمعنى هذا الكلام أن علُ عنده كان مما يجب الا يحرك الا انه لما ضاع المتمكن أعطوه فضيلته وهي الحركة ، واختير له الضم لأنه غاية الحركات، وفيه قول آخر: وهو أن الضم لايدخل الظروف بحق الاعراب وانما يدخلها بحق الأعراب النصب والخفض، فبنى على حركة ليست له فصار من هذه الجهة بمنزلة قبل وبعدُ وهكذا القول فيمن قال من علو ياهذا ومن قال جئت من علو جعله نكرة ايضاً وجاء به على التمام ومن ضم قدره لمعرفة من قال جئتك من عال فمعناه من مكان عال ثم اقام الصفة مقام الموصوف، ولا يجوز أن يبنى في هذه اللغة لأنه لم يحذف منه شيء

وقال في (٢):

فظل طهاة اللحم من بين منضج   صفيف شواء أو قدير معجل

---

(١) شرح القصائد ص ١٩٧ .

(٢) شرح القصائد ص ١٨٣، ١٨٤

واماخفض «قدير» ففيه للنحويين أقوال: أحدهما أن يكون معطوفا على صفيف فلما تباعد مابينهما وكان قبله مخفوض غلط فخفضه وهذا القول ليس بشيء ، والقول الآخر هو قول أكثر أهل اللغة وقد أجاز سيبويه مثله ، أنه كان يجوز ان يقول من بين منضج صفيف شواء فحُمل على صفيف لو كان مخفوضا. وشرح هذا انك اذا عطفت اسما على اسم وكان يجوز لك في الاول اعرابان فأعربته بأحدهما ثم عطفت الثاني عليه جاز لك ان تعربه باعراب الاول وجاز لك ان تعربه بما كان يجوز في الاول فتقول هذا ضارب زيد وعمرو، وان شئت قلت هذا ضارب زيد وعمراً لانه كان يجوز لك ان تقول هذا ضاربٌ زيداً وعمراً وان قلت هذا ضارب زيداً وعمرو لأنه قد كان يجوز لك ان تقول هذا ضارب زيد وعمرو فهذا يجيء على مذهب سيبويه وأنشد:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ... ولا ناعب الايبين غرابها

والمازني وابو العباس محمد بن زيد لايجيزان هذه الرواية والرواية عندهما ولا ناعبا ، لايجوز ان يضمر الخافض لانه لاينصرف .

ب ـ والمصطلحات التي اوردها كثيرة ايضا فاننا نجد مصطلحات الكوفيين والبصريين معاً منها: مالم يسم فاعله والخافض والجار والصفة والموصوف والنعت والمنعوت والتمييز والتفسير والنفي والجحد والعماد والفصل.

جـ ـ ومن المسائل الخلافية :

قال في (١) :

ومن يعص اطراف الزجاج فانه ... مطيع العوالي ركبت كل لهذم

«ركبت كل لهذم» المعنى في كل لهذم ثم حذف فتعدى الفعل وانما يقع هذا فيما يتعدى الى مفعولين: أحدهما بحرف جر كما يقال: اخترت الرجال زيدا، ثم يقول: اختير الرجال زيد، فعلى هذا قوله ركبت كل لهذم وأنشد سيبويه :

---

(١) شرح القصائد ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

منا الذي اختير الرجال سماحة وبرا إذا هب الرياح الزعازع

وأجاز بعض الكوفيين قياسا على هذا : مررت زيدا ، وهو عند البصريين لايجوز لأنه انما جاز فيما يتعدى الى مفعولين : أحدهما بحرف جر لأن الفعل يقوى اذا تعدى الى مفعولين ويحذف من الثاني حرف الجر ثم يعدى الفعل اليه واحتج من أجاز مررت زيدا ببيت أنشده لجرير :

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم علي اذا حرام

وهذا البيت أنشده أبو العباس محمد بن يزيد قال أنشدني عمارة بن عقيل بن بلال بن جبرير :

مررتم بالديار ولم تعوجوا

وقال في (١).

فمضى وقدمها وكانت عادة منه اذا هي عردت أقدامها

وفيه من النحو أنه قال : وكانت فأنث، والاقدام مذكر، فزعم الكوفيون أنه لما أولى كان خبرها وفرق بينها وبين اسمها توهم التأنيث فأنث وحكى الكسائي عن العرب كانت عادة حسنة من الله المطر ،وقال بعض البصريين أنه انما أنث الاقدام لأنه مضاف الى مؤنث وهو مشتمل عليه وشبهه بما أنشد سيبويه :

رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال

فأنث المر لانه مشتمل على السنين وأنشد سيبويه:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مر الرياح النواسم

وقال اكثر البصريين انما أنث الاقدام لانه بمعنى التقدمة وقرأ بعض القراء « لم تكن فتنتهم الا ان قالوا » قيل: انما أنث القول لأنه الفتنة في المعنى وأنشد :

فان تكن الأيام فرقن بيننا فقد عذرتنا في صحابته العذر

فأنث العذرفي هذا البيت الشاهد لأنه بمعنى المعذرة والعذرى، قال الأصمعي:

---

(١) شرح القصائد ٢٩٣، ٢٩٤

العذر جمع عذير والاصل عذار، ثم حذف الضمة وأنث العذر قال أبو الحسن قال أبوالعباس محمد بن زيد أضمر في كانت التقدمة كأنه قال: وكانت التقدمة عادة منه ثم أبدل قوله اقدامها من التقدمة قال أبو الحسن وهذا القول حسن جدا .

وقال في (١) :

ومشك سابغة هتكت فروجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

المشك: الدرع

قيل اذا كان المشك : الدرع فكيف أضافه الى السابغة والسابغة الدرع التامة فكيف يضاف الشيء الى نفسه؟ فالجواب أن الكوفيين يجيزون اضافة الشيء الى نفسه واحتجوا بقول الله جل وعز : «وذلك دين القيمة» وهذا عند البصريين أعني اضافة الشيء الى نفسه محال لأنك انما تضيفه تخصصه بالمضاف اليه غيره أو يكون هو بعضه فأما قوله جل وعز «وذلك دين القيمة» وتقدير : ومشك سابغة على قول من قال المشك الدرع ومشك حديدة سابغة .

الشواهد النحوية في هذه المصادر :

لم تخرج هذه الكتب في استشهادها بفصيح القول للقواعد النحوية التي تأتي بها وهي بذلك لاتخرج عن كتب النحو الأصولي فمؤلفوها قد أتوا بالآيات القرآنية وبالقراءات وبشواهد الشعر العربي الفصيح المستشهد به وبأقوال العرب ولغاتهم سواء في ذلك من كان منهم بصريا أو كوفيا، والمتتبع لهذه الكتب يجد كثرة تلك الشواهد في مواضعها ولعل فيما أتينا به خلال بحثنا من تلك النصوص خير دليل على ذلك فلا حاجة بأن نأتي بأدلتنا في ذلك ونحيل الى مواضعها في تلك المصادر .

---

(١) شرح القصائد ٥١١، ٥١٢ .

الخاتمة :

لقد استفادت الكتب القديمة من القواعد النحوية في معالجة المسائل التي تريد أن تعالجها سواء كان ذلك في تفسير آيات القرآن أو عرض القراءات أو تعيين مواضع الوقف والابتداء وفي شروح القصائد المشهورات، فالقاعدة النحوية اذاً كانت تابعة لأهداف مؤلفي تلك الكتب ولكن يبدو من النصوص التي استشهدنا بها والنصوص الكثيرة الأخرى في صفحات تلك الكتب انها قد استوعبت كل قضايا النحو ودقائقه كل في طريقة معالجته لمناهج كتبهم ، ولهذا فقد اشتملت على كثير من أقوال المتقدمين واذا ماعلمنا أن معظم من استعرضنا كتبه كان معاصرا لأولئك المتقدمين أو من تلاميذهم ظهرت لنا قيمة هذه المصادر في رفد الدراسات النحوية بالجديد وفي مد الدارسين بموضوعات كثيرة جديدة واذا مادقق في تلك الآراء فقد تغير كثيراً من الأحكام التي استقر عليها المحدثون أو تثبت أحكاما أخرى لم يبت في نسبتها اوصحتها أو قد تكشف عن نحاة كثيرين مغمورين لم تذكرهم المظان أو قد تكشف عن علماء شهروا بالعلم الا أنهم كانوا متقدمين في الدراسات النحوية .

فمن هنا ندعو الدارسين لأن يهتموا بهذه المصادر ويدققوا في القضايا التي عالجتها لتغير في الدراسات النحوية الحديثة، أو في السبيل لفهم مستعصى القواعد وحل كثير من غوامض الأحكام فتعود بالنفع على نشر هذا العلم .

المصادر والمراجع

انباه الرواة : القفطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم القاهرة ١٩٥٠ .

ايضاح الموقف والابتداء : أبو بكر الانباري تحقيق د. محيي الدين رمضان.

جامع البيان عن تأويل أي القرآن ط٢ : الطبري القاهرة ١٩٥٤.

الحجة أبو علي الفارسي تحقيق علي النجدي ناصف وجماعته مصر ١٩٦٥.

شرح القصائد التسع المشهورات: النحاس تحقيق أحمد خطاب العمر بغداد ١٩٧٣ .

طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مصر ١٩٧٣ .

القطع والائتناف :النحاس تحقيق د. أحمد خطاب العمر بغداد ١٩٧٨.

مجلة آداب الرافدين : كلية آداب الموصل العدد ٩ / ١٩٧٨.

مجلة المجمع العلمي العراقي : العدد٣١ / ١٩٨٠ .

مراتب النحويين ط٢ : عبد الواحد اللغوي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مصر ١٩٧٤ .

معاني القرآن : الفراء مصر ١٩٥٥ .

معجم الأدباء : ياقوت الحموى مصر ١٩٢٤ .

حياة امرىء القيس بين شعره والتاريخ

الدكتور عمر محمد الطالب
كلية الآداب – جامعة الموصل

هو امرؤ القيس (١)، وقيل اسمه حندج . وقيل : عدي ، وقيل مليكة(٢).
وله غير كنية : أبو وهب ، أبو زيد ، أبو الحارث .. وكان يقال له : ذو القروح ، والملك الضليل .

وأمه ، فاطمة بنت ربيعة بن الحرث بن زهير أخت كلهب ومهلهل ابني ربيعة التغلبيين. وقال من زعم أنه امرؤ القيس بن السمط :امه تملك بنت عمرو بن زبيد بن مذحج رهط عمرو بن معد يكرب ، واستدلوا بقول امري القيس :

ألاهل أتاها والحوادث جمة بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

وقال ابن السكيت : أم حجر أبي امريء القيس أم قطام بنت سلمةامرأة من عنزة (٣). ونحن نرى الرأي الأول في نسبه من أمه فقد تواتر ذلك عن الرواة ومؤرخي الأدب .هذا بالاضافة إلى ماعرف عن امريءً القيس من أنه أخذ الشعر عن خاله المهلهل بن ربيعة .

قال ابن السكيت . ان امرأ القيس ولد ببلاد بني أسعد ، وقال: ابن حبيب: كان ينزل المشقّر من اليمامة . ويقال : كان ينزل حصن البحرين .

نشأ امرؤ القيس على ماتنشأ عليه ابناء الملوك في ذلك العصر من تعلم الفروسية والنجدة والشجاعة . وكان كثير التردد على أخواله في بني تغلب فتعلم الشعر

---

(١) ومعناه رجل الشدة وانشلوا :وانت على الاعداء لهس وتجدة والطارق العافي هشام ونوفل

(٢) المزهر جـ٢ ٢٦٥

(٣) الاغاني جـ٩ ص ٧٧.

من خاله امرئ القيس بن ربيعة الملقب بالمهلهل، وقد برز امرؤ القيس في الشعر وهو مايزال في عنفوان شبابه فكان يعترض فتيات بني أسد ويغازلهن ويشبب بهن، فبلغ أمره إلى أبيه وكان ذلك مما لايرضى به ملوك العرب في ذلك الزمن فنهاه فلم ينته فأمر والده مولى يقال له ربيعة أن يذهب به فيذبحه ويأتي اليه بعينيه. فأخذه ربيعة واحتفظ به في مكان ، ثم ذبح جؤذراً وجاء بعينيه إلى أبيه فندم حجر على ذلك وأظهر الحزن والأسف ، فقال له ربيعة: أبيت اللعن، إني لم أقتله. فقال له جئني به الآن. فلما جاءه نهاه عن قول الشعر فامتثل ، غير انه كان محباً للهو واللعب مولعاً بمغازلة النساء ومفاكهتهن فكان ذلك مما يترع به إلى قول الشعر ، فكان يقرض الشعر واصفاً ومتغزلا وناسباً وباكياً فبلغ ذلك أباه فطرده. فذهب شريداً فريداً لايدري ماذا يصنع . ثم صار يجمع اليه طائفة من الصعاليك والفقراء من أحياء طيئ وكلب وبكر. وأخذ ينتقل بهم في منازل العرب ويغير بهم على أحيائها ويقاسمهم ماتناله أيديهم من غنائم الغارة والسطو، أو مايقع لهم من الصيد. ثم يذهب بهم إلى المناهل والغدران والرياض فيذبح لهم ويؤاكلهم ويعاقرهم الخمر ويلاعبهم النرد وينشدهم الشعر وتغنيهم قيانه اللاتي كان يستصحبهن للهوه ومرحه(١). وقال ابن قتيبة : إن أباه كان قد طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ماصنع وكان لها عاشقاً (٢). وزعم بعض الرواة أن أباه إنما طرده لأنه كان يتعشق امرأة أبيه المسماة هرّ (٣). وذكر الأصمعي : إن امرأ القيس كان قد صحب عمه شرحبيل قتيل يوم الكلاب ، حتى قتل شرحبيل ، وكان امرؤ القيس رأى من أبيه جفاءاً فلحق بعمه حتى قتل أبوه وقتل عمه فانصرف بعد مقتلهما إلى قومه (٤).

---

(١) شرح ديوان امرىء القيس ص ٨-٩

(٢) الشعر والشعراء ص ٥١

(٣) شرح ديوان امريء القيس ص ٨ هامش (١).

(٤) شرح السبع الطوال الجاهليات ص ١٣

وإذا أمعنا النظر في الرواية الاولى وجدناها غير مقبولة لأن العرب أحبوا الشعر وعظموا الشعراء . واحتفلوا بمولد شاعرفيهم . لأنه اللسان الصاح بمفاخرهم وايامهم والسيف المسلط على رقاب اعدائهم وكشف معايبهمد ومسوءاتهم

إن الفخر والاعتزاز هو الذي يفترض أن يتملك نفس الملك حجر بمولد ابنه الشاعر امريء القيس وليس العكس كما ثبتته الرواية . وهي كما يبدو لي متأثرة بالاسطورة والحدث كما عرضته الرواية الأولى شبيهة بأسطورة أوديب عندما كان طفلا (١) . وقد اختلط الواقع بالاسطورة في هذه الرواية حتى طغت الاسطورة وامحت الحقيقة . والرواية الثانية مردودة لأنه لايعقل أن يفعل عربي بابنة عمه مافعله امرؤ القيس بابنة عمه فاطمة أو عنيزة (٢). ولا تعقل الرواية الثالثة لأن أخلاق العرب تأبى ذلك وان كان من مذاهب العرب . ان أكبر أبناء الرجل له أن يرث أباه في زوجته بعد وفاته ، فإن شاء تزوجها بعده وإن شاء زوّجها من غيره وان شاء منعها حتى تموت . وهذا هو زواج المقت الذي حرّمه الاسلام. كما وان امرأ القيس كان يافعاً بحسب ما يستنتج من الرواية ، وانه في بداية قوله الشعر فلا يعقل أن يحدث هذا الأمر وان هراً التي وردت في شعره لم تكن هراً زوجة أبيه بل هي امرأة أخرى (٣).

أما الرواية الأخيرة فلم تذكر سبب الجفاء وان كنا نتفق معها بأن امرأ القيس قضى فترة يفاعته وصباه وفتوته في ديار عمه شرحبيل .

ونحن نرى امرأ القيس في طفولته ويفاعته وشبابه من خلال شعره، صبيا قد فقد امه: ونشأ في قصر ملك . والملك الوالد مشغول عن أهل بيته بمشاكل الملك. وجباية الأموال من الرعايا والتسلط والجور . وتحقيق الطاعة والهدوء

---

(١) ينظر الى الاسطورة والرمز في الادب الجاهلي،عادل البياتي من كتاب الشعر والمجتمع ص ١٠٧، ١٠٨

(٢،٣) ينظر رحلة فيمعلقة امرىء القيس. عمر الطالب، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلد ٢٩، ١٩٧٨

في القبائل التي يحكمها ولا سيما قبيلة بني أسد حيث كانت له عليهم أتاوة موقوتة في كل سنة يرسل اليهم بجابيه الذي كان يجبيهم. وكان لحجر نساء كثيرات يقضي معهن ما تبقى من وقته بعد تعب الملك وعناء السلطة. ولم يكن يهمه أمر أولاده في هذا البيت الذي يسوده الوقار وتتحكم فيه السلطة وينبعث منه الجبروت والقسوة، وتحيطه الأبهة والفخار (١) ، ترعرع امرؤ القيس ذكي الفؤاد جميل الخلقة. يجد الحب والحنان في داخل القصر بل وجدهما بين اقرانه الصبيان، ولم يحس الفخامة في القصور والملك بل أحسها في عظمة الطبيعة وبهائها ولم يجد في الوقار والعظمة اللتين تحيطان بأبيه غير القسوة والتسلط والدماء. فكره القصر والملك. وأحب بساطة الطبيعة وعطاءها وحنانها فنفر من القصر الذي كان يبدو له كسجن رهيب الى رحاب الطبيعة الممتدة المتدانية المعطاء، واستبدل دسائس ومؤامرات القصر والكره والبغض اللذين يحيطان به بوداد الصحب وأنس العشير وبراءة الحب المتدفق من قلوب صحبه الصغار.

عهدتني ناشئا ذا غرة　　　مرجل الجمة ذا بطن أقب
أتبع الولدان أرخي متزري　　　ابن عشر ذا قريط من ذهب
وهي إذاك عليها مئزر　　　ولها بيت جوار من لعب (٢)

هذا هو امرؤ القيس ابن عشر سنين تبدو عليه النعمة في غرته وشعره المرجل وقرطه الذهبي الذي يدلل على أصله وانه من بيت ملك وجاه ولكنه كان مهملا يقتفي آثار ابناء القبيلة من دون رادع يردعه في ذلك لأنه لم يكن عالما بعناية الوالدين وسعيهما لتهذيبه واعداده للمهمة الصعبة التي تنتظره كابن ملك. وانما هو يسعى مع الصبيان كما يسعون ويتخلق بأخلاقهم ويحاربهم في لعبهم ولهوهم من دون رادع خارجي ولاوازع داخلي وكأنه يجد فيهم العوض عما افتقده في القصر حيث الوحشة والكره والتسلط والدماء. فاراد

(١) امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة، ص ١٣
(٢) شرح ديوان امرىء القيس ص ٥٥

أن يطهر نفسه من رجس اللعنة التي تلف القصر والملك فسعى مع البراءة والحب واللعب ، يتبع الصبيان سعيداً وقد أرخى مئزره. وربما تلوثت ثيابه بالرمل . واتسخت جمته واضطربت بعد ترجل «إن ارخاءه لمئزره ذو دلالة معنوية بقدر ماهو ذو دلالة مادية فهو قد أرخى مئزر نفسه ايضا. لان الفتى الذي يحتضنه والداه ويعدانه اعدادا خاصاً. تقام دونه حدود تربوية تمنعه من أن ينساق انسياق الآخرين» (١).

لقد دفعه سحر الطبيعة وجمالها وألفة الصحب ومرحهم ونباهة الفؤاد ويقظته وتفتحه على الجمال الكامن في المرأة والطبيعة ودفء الألفة وحنان الأم الرؤوم المتمثل في الطبيعة ،وتفقده لهذا الحنان ،الا في الصحبة والالفة والتأمل بعد أن حرم حنان الابوين بفقد الام وانشغال الأب ،دفعه كل ذلك الاحساس وتلك المشاعر الى قول الشعر والتغني به ،حيث قال من أول شعره:

أذود القوافي عني ذيادا ذياد غلام جري جوادا
فلما كثرن وعنينه تخير منهن ستا جيادا
فاعزل مرجانها جانبا وآخذ من درها المستجادا (٢)

هذا الصبي اليافع العاشق للطبيعة والشعر والفروسية الذي افتقد المثال في ابيه الجبار حجر فوجده في خاله الفارس الشجاع الشاعر المهلهل بن ربيعة لم يحترم أباه كثيراً لأنه لم يجد فيه مناقب الفرسان بل تسلط الملوك وجبروتهم، فكره القصور والعروش بقدر ماأحب الطبيعة ،والحرية من أسر العرش وسجن القصر وكأني به يهزأ بوالده ولايقيم للملك الذي يحتقره وزنا وربما عرّض بالملك وبأبيه في شعره وهذا أخشى مايخشاه الملوك ورؤساء القبائل في عصر ما قبل الاسلام حيث ينتشر الشعر بين القبائل كانتشار نسيمات

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ٨٧ –٨٨

(١) شرح الديوان ص ٦٣ ورويت هذه الابيات لامريء القيس بن بكر بن امريء القيس بن حارث الكندي، مصادر الشعر الجاهلي ص ٢١٩ .

الصبا وشذى ازهار الربيع . روى أبو نصر احمد بن حاتم قائلا: « اخبرنا عن الاصمعي انه قال: بينا امرؤ القيس قاعد ذات يوم وهو يشرب مع أبيه وهو غلام حين احتلم . وابوه يشرب مع ندمانه وفتية من أهل بيته اذمرّ عليهم الساقي بالكأس فقال امرؤ القيس :

أسقيا حجرا على علاته من كميت لونها لون العلق

فسمعه ابوه فقال للساقي: الطم وجهه واخرجه عني. وقال له: اياك أن أسمعك تقول الشعر فأقتلك » (١) .

ويجدر بنا أن نتساءل: لماذا حذره والده من قول الشعر؟! وقد كان الشعر فخر القبيلة ومولد شاعر فيها. مولد حدث كبير تبتهج به القبيلة وتقيم له الأفراح وتعلن عنه ويذهب خبره بين القبائل والبشر. ان الذي دفع حجرا لمنع ولده عن قوله الشعر يكمن في الشعر نفسه لاني ترفع حجر عن الشعر وطلبه الى ولده أن يترفعوا عنه (٢). لان هذا يخالف ماتعارف عليه العرب قبل الاسلام. انه التعريض الذي يكمن في البيت. انه يبيح ان يسقى حجر الخمر على علاته ترى ماهي علاته ؟!. وهل يدركها أحد كما أدركها امرؤ القيس وخبرها. ان هذا التعريض الصريح هو الذي أغضب صخراً وأخافه انه يعرّض به وهو مازال يافعا ترى ماذا سيقول عنه اذا ماشب عن الطوق؟ وأية مهانة ستلحق به من ولده اذا مااستكمل ادواته الشعرية وسارت قصائده بين القبائل؟ وكأني به أدرك بأن ولده يرفض بطشه وجبروته وسيطرته وانه لايسعى الى الملك قدر سعيه للحرية والانطلاق والحب والجمال تلك الخصائص التي علمته اياها الطبيعة وألفة الصحب وانطلاقة الحياة. فكره سجن القصر وقيد العرش وجبروت الملك وسيطرة التسلط فخشي ان يفضحه ولده بين القبائل وهو الذي خبر ملكه وعرف بطشه وكره يديه الملطختين بالدماء وهو الجبار المتسلط اذن ليكم فاهه كما كمّ افواه رعيته. ولكنه كان قاصرا

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٩٤

(٢) م . س

أن يدرك ان الحب اقوى من الكره وان الحرية أرحب من التسلط ولن يستطيع اسكات الصوت الناشد للحب والحرية . ويمضي ابو نصر احمد ابن حاتم في روايته عن الاصمعي قائلا فغبر امرؤ القيس بذلك زمانا فكان لا يقول الشعر الآسراً مخافة أبيه فبينا أبوه ذات يوم نائم في قبته وقد شرب حتى طابت نفسه إذ انتبه وامرؤ القيس يشرب من فضل آنية أبيه وهو يقول:

أحار ابن عمرو كأني خمر ... ويعدو على المرء مايأتمر (٢)
فلا وأبيك ابنة العامري ... لايدعي القوم أني أفر
تميم بن مر واشياعها ... وكندة حولي جميعا صبر
اذا ركبوا الخيل واستلئموا ... تحرقت الارض واليوم قر
وهر تصيد قلوب الرجال ... وأفلت منها ابن عمرو حجر

• • • •

رمتني بسهم أصاب الفؤاد ... غداة الرحيل فلم أنتصر
فأسبل دمعي كفض الجمان ... أو السدر رقراقه المنحدر
وإذ هي تمشي كمشي النزيف ... يصرعه بالكثيب البهر
برهرهة رودة رخصة ... كخرعوبة البانة المنفطر
فتور القيام قطيع الكلام ... تفتر عن ذي غروب خصر
كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها ... اذا طرب الطائر المستحر
فبت أكابدليل التمام ... والقلب من خشية مقشعر
فلما دنوت تسديتها ... فثوبا نسيت وثوبا أجر
ولم يرنا كالئ كاشح ... ولم يفش منا لدى البيت سر
وقد رابني قولها ياهناه ... ويحك ألحقت شرا بشر
وقد اغتدي ومعي القانصان ... وكل بمربأة مقتفر

---

(١) الديوان ص ١٩٤

٢) شرح الديوان ص ٧٧-٨٣

أن اشدما يعاني منه الانسان الخضوع للجور والأوامر . وامرؤ القيس يتحدى والده في مطلع القصيدة ويخرج على أوامره ونواهيه. ويقول الشعر الذي نهاه عنه مترنما بعظمة كندة وقوة شكيمة فرسانها وحرارة رحى الحروب التي يخوضها رجال كندة.

ويقرن الشاعر بين صراع الحروب وصراع حبه لهرّ وهرّ هذه «كانت من القيان اللائي يغشين قصور الملوك ليطربنهم ويأخذن جرزهم اي عطاءهم ومع ذلك يحاولن ان يوقعهن في شركهن» (١). فهي تتصيد قلوب الرجال كما يتصيد الهر قطعة اللحم، وعلى الرغم من مهارة هرّ في الصيد أفلت منها ابن عمرو حجر والد الشاعر.

ويمضي الشاعر في وصف مغامرته معها عندما انقلب الهر الى مصيد والشاعر الى صائد ، ثم قرن الشاعر بين صيده لهر وقصة الصراع الرهيبة بين الكلب الصائد والثور الطريد ، ووصف مايلاقيه في ترحاله وتجواله على ناقته من كد وتعب ومتعة وبهجة.

ويمضي ابن حاتم في روايته قائلا: « فوثب اليه ابوه، فجعل يجأي عنقه حتى أدمى منخريه ثم طفق يلطمه ويقول: ألم أنهك ان تقول شعرا وعن أن تذكرني في شعرك ثم دعا مولى له يقال له ربيعة.وكان حاجبه فقال له انطلق بهذا الى موضع كذا وكذا فاقتله فاني لاأظنه الاّ سيشتمنا، وجئني بعينيه فانطلق ربيعة فاستودعه رأس جبل منيف». (٢) لماذا أغضب شعر امرىء القيس حجرا ألأنه يخشى اذا ماشاع شعره وانتشر وسارت به الركبان سيشتمه؟! ولهذا السبب يمنعه من ذكره في شعره؟ أم لانه استشف من البيتين الاول والثامن تعريضا به على الرغم من خفته،لايلق بمنزلة الملك، فخشي إن هو لم يردعه عن ذكره في شعره أن يتطاول عليه وعلى ملكه فتسقط هيبته بين رعيته. هو الجبار المتسلط. فوصلت به سورة الغضب حدها بأن

---

(١) شرح الديوان ص ٧٨

(٢) الديوان ص ١٩٤

طلب الى حاجبه أن يأخذه الى مكان ثان يقتله فيه ويأتيه بعينيه تخلصا منه ومن شعره الذي يظن به حجر الظنون؟

وهنا يجدر بنا ان نتساءل لماذا هذا الجفاء بين حجر وولده؟ نعتقد ان الامر يقف عند حدود طبيعة امرىء القيس الرقيقة العذبة الكارهة لكل جبروت وتسلط وعشقه للحرية التي علمته اياها الطبيعة الجميلة الفسيحة على مرمى النظر . وتربيته التي اكتنفها الاهمال في طفولته واتباع الصبيان في صباه . وحبه للهو والمتعة والصيد والفروسية في يفاعته. كل ذلك نفره من الابهة والعظمة اللتين تحيطان بالملك فأحب البساطة والانطلاق. وكرهه من الطغيان والتسلط وسجن القصر وقيود العرش مما أزعج والده منه الذي كان يريد من ولده الطاعة والاذعان والسير في ركاب الملك والابتعاد عن الرعية والظهور أمامهم بمظهر الجلال والعظمة لتستتب السيطرة على الرعية ويحكم الخناق عليها . فوصل به الغضب منه حد الأمر بقتله. أليست هذه منتهى القسوة والغلظة التي اتسم بها حجر وشيعت عنه. وعلم ربيعة ان حجراً سيندم على قتله اذا هو صحا من سكره فعمد الى جؤذر كان عنده فذبحه وانتزع عينيه فاحتملهما الى حجر. فقال له حجر أقتلته؟ قال: نعم. قال: فأين عيناه؟ قال: هاهما هاتان. فوقعت الندامة على حجر وهم بقتل ربيعة. فلما رأى ربيعة ذلك قال: أبيت اللعن! اني استودعته ولم أقتله . قال فأين هو؟. قال: في موضع كذا وكذا على رأس الجبل. قال: فأتني به فانطلق ربيعة الى امرىء القيس فوجده حيث خلفه. وسمعه وهو يقول وظن أنه قاتله :

لاتسلمني ياربيع لهـــذه	وكنت أراني قبلها بك واثقـا
مخالفة نوى أسير بقريـــة	نوى عربيات يشمن الـــبوارقا
فاما تريني اليوم في رأس شاهق	فقد اغتدى أقود أجرد تائقاً،(١)

---

(١) الديوان ص ١٩٥

وعلى الرغم من شكنا في هذه الرواية المتأثرة بالأساطير، فاننا نلمس فيها حنو الاب الجبار والملك المتسلط على ولده المتحدي. ونجد في أبيات امرىء القيس حبه للحرية والصيد والانطلاق. فقد تشرب الفروسية وتشربته الحياة.

عاد امرؤ القيس الى والده. تبدو عليه الطاعة في الاقلاع عن قول الشعر ومصاحبة الفتيان ولكن عشق الحرية قد تسربت في دمه ورروح الفارس قد تملكته. فانطلق في ممارسة الشعر مع شاعر بني أسد عبيد بن الابرص الذي وجد فيه امرؤ القيس استاذاً يعلمه بواطن الشعر وسحر فنونه وما لبث التلميذ أن فاق استاذه وعلا عليه في الشعر وفنونه وقوافيه. (١) وعندما أحس امرؤ القيس بتفوقه في الشعر على شعراء قبيلته والقبائل الأخرى. راح ينازع الشعراء ويتعرض لهم. (٢) ومضى شعره يتهادى كالنسائم في الصحراء الفسيحة فعاد النزاع مجدداً بينه وبين أبيه. وقد يكون الامر وصل الى الحد الذي طرد الأب ولده، وكأن الابن الذي تشرب الحرية كان ينتظر هذه اللحظة فانطلق في الصحراء مع الشباب من صحبه لاهيا منطلقاً، يعيش حياته التي سعى اليها دائماً، حياة ابناء الملوك اللاهين في الصيد والخمر والنساء والفروسية انها الحياة المثلى للعربي قبل الاسلام. ويظهر من خلال شعره في هذه الفترة من حياته انه كان يسعى مع صحبه الى الصيد، فما ان يصيبوا الصيد حتى يعدوا المائدة العامرة والخمر الوافر: يحيط بهم الخدم والطباخون كحالة اولاد الملوك، تغنيهم القيان فيشربون ويطربون.. وخير من يجسد هذه الحياة اللاهية، حياة الأنس والبهيمة والسعادة، الحياة التي أحبها امرؤ القيس وعاشها بكل ابعادها في مطالع شبابه. فكانت مغامراته مع ام الحويرث وام الرباب وبيضة الخدر، والمرح الملذ الذي استمتع به في دارة جلجل مع عنيزة وصويحباتها ومغامراته مع سلمى في بيتها من دون

(١) ينظر المحاورة بين امريء القيس وعبيد بن الابرص الديوان ص ٩٥ - ٩٧

(٢) ينظر/ شرح الديوان ص. ٨٧ - ٨٩

خوف او وجل من زوجها (١) ولمغامراته مع المرأة التي سعت اليه متلهفة مشوقة :

ومنهن سوف الخود قد بلها الندى ... تراقب منظوم التمائم مرضعا (٢)
يعز عليها ريبتي ويسوءها ... بكاه فتثني الجيد ان يتضوعا
بعثت اليها والنجوم ضواجع ... حذارا عليها أن تهب فتسمعا
فجاءت قطوف المشي هيابة السرى ... يدافع ركناها كواعب أربعا
يزجينها مشي العريف وقد جرى ... صباب الكرى في مخها فتقطعا
تقول وقد جردتها من ثيابها ... كما رعت مكحول المدامع أتلعا
وجدك لو شيء أتانا رسوله ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
تصد عن المأثور بيني وبينها ... وتدلي علي السابري المضلعا
اذا أخذتها هزة الروع أمسكت ... بمنكب مقدام على الهول أروعا

تعد هذه القصيدة نموذجا لحياة امرىء القيس اللاهية في شبابه فهو المعشوق لا العاشق، وهو الذي يسعى اليه لا الساعي، وهو المرغوب دائما، حتى من النساء الحرائر والزوجات المصونات وذوات الاطفال. ان عاطفتهن تجاهه أقوى من عاطفة الامومة (٣) وعلى الرغم من المبالغة في عرض المغامرة تلك المبالغة التي يمارسها الشعراء في ذلك العصر، فهي مناسبة لواقع البيئة الصحراوية قبل الاسلام ، ومناسبة لشاب جميل شجاع غني وابن ملك. ملك فصاحة اللسان وقوة السيف ، ومناسبة أيضا لواقع حياة اللهو التي كان يحياها أولاد الملوك، فكيف اذا كان هذا الشاب لايستبدل لحظة متعة وانس بكل عروش الملوك.

جاب امرؤ القيس شبه جزيرة العرب متنقلا من مكان الى آخر طلبا للصيد

(١) شرح الديوان ص ١٣٨ - ١٤٢
(٢) م. س ص ١١٢ - ١١٣
(٣) ينظر عمر الطالب، صراع الحياة والموت في شعر امرىء القيس، مجلة آداب الرافدين، العدد ٩، ١٩٧٨ عمر الطالب رحلة في معلقة امرىء القيس مجلة المجمع العلمي، المجلد ٩، ١٩٧٨

واللهو والمتعة ومعه صحبه واحبابه يتشرب الحياة كأسا دهاقاً حتى الثمالة. وكم من مرة ارتحل الى ممالك اعمامه وكان يرتاح الى عمه شرحبيل، الذي كان يحبه ويرعاه أيضا .وربما كان السبب في هذا الميل الى عمه حبه لابنته فاطمة، فقد بدت من خلال معلقة امريء القيس مكتملة الخَلق والخُلق. لذا تعامل معها بشكل خاص يختلف كل الاختلاف عن تعامله مع النساء الاخريات اللاتي ذكرهن في شعره .ولايبدو أن فاطمة كانت تميل اليه وأدرك الا أمل في اجتذابها إليه .فقد كانت فتاة رزينة عاقلة تتصرف كابنة ملك وربما أخذت على امريء القيس تحديه وطيشه كما كانت تراه من خلال تربيتها الخاصة المترمتة والالبني بها .وربما أدى هذا الحب الفاشل الى سدور امريء القيس في حياته اللاهية التي تحددت بعناصر الرجولة عند البدوي قبل الاسلام المتمثلة في المرأة والفروسية والخمر والصيد . وكان امرؤ القيس أشجع اخوته واقرانه وأكثرهم حضورا في مجالي الفروسية والصيد (١).وهذه الرواية تجسد لنا شجاعته وفروسيته كان يتصيد مع اخوته ، فاغار عليهم المنذر بن النعمان ابن امريء القيس الملقب بذي القرنين لثأر كان له عند أبيهم فأصاب اثني عشر شابا من بني حجر بن عمرو وافلت امرؤ القيس على فرس شقراء ، فطلبه القوم وفاتهم . وأمر المنذر بضرب اعناقهم . فقتلوا عند جفر الأملاك وهو موضع بظاهر الحيرة به دير بني مرينا فقال امرؤ القيس يرثيهم (٢).

الا ياعين بكّي لي شنينا	وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوكا من بني حجربن عمرو	يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا	ولكن في ديار بني مرينا
فلم تغسل جماجمهم بغسل	ولكن بالدماء مرمّلينا
تظل الطير عاكفة عليهم	وتنتزع الحواجب والعيونا

ومضى امرؤ القيس يحيا الحياة التي كان يريد، وقد تجسدت هذه الحياة

---

(١) ينظر المصدران السابقان

(٢) شرح الديوان ص ١٩٠

في شعره الذي طرقه بعد مقتل والده في الذكريات الكثيرة التي تداعت في قصائده .

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني (١)
ديار لهند والرباب وفرتنا لياليننا بالنعف من بدلان
ليالي يدعوني الهوى فاجيبه وأعين من أهوى الي روان
وإن أمس مكروبا فيارب بهمة كشفت إذا ماسود وجه الجبان
وإن أمس مكروبا فيارب قينة منعّمة أعملتها بكسران
لها مزهر يعلو الخميس بصوته أجش إذا ماحركته اليدان
وإن أمس مكروبا فيارب غارة شهدت على أقب رخو اللبان
على ربذ يزداد عفواً إذا جرى مسح حثيث الركض و الذألان
ويردى على صم صلاب ملاطس شديدات عقر لينات متان
وغيث من الوسمي حو تلاعه تبطنته بشيظم صلتان

هذه هي الحياة التي عاشها امرؤ القيس في ابان شبابه ، النساء والفروسية والسعي وراء الغدران والعشب على فرس قوي كان قريناً له في تجواله وصيده ومجالس الأنس والطرب التي يعقدها بحضور اصحابه وقيانه يغنين ويضربن على المزهر والعود .

ولكن الحياة لم تمض بهذه السهولة على امريء القيس فقد قتل عمه الحبيب شرحبيل في يوم الكلاب ، وكاد أن يصيب أهله الضر لولا أن قام عوف ابن شجنة بن الحارث في بني سعد وبني عوف دون عياله فيمنعونهم وحالوا بين الناس وبينهم ودافعوا عنهم حتى ألحقوهم بقومهم و مأمنهم، وكان بنو حنظلة تخاذلوا عنهم. فقال امرؤ القيس يمدح بني عوف(٢) :

أحنظل لو حاميتم وصبرتم لأثنيت خيراً صالحاً ولأرضان
الا أن قوماً كنتم أمس دونهم هم استنقذوا جاراتكم آل غدران

(١) م.س ص ١٨٦ – ١٨٧

(٢) م.س ص١٨٩

ثياب بني عوف طهارى نقيـــة | وأوجههم عنـد المشاهد غُرّان
عوير و من مثل العويرو رهطــه | وأسعد في ليل البلابـل صفـوان
هم أبلغوا حيّ المضلل أهلهـــم | وساروا بهم بين العراق ونجران
فقد أصبحوا والله أصفاهـم بـه | أبرّ بميثاق وأوفى بجيـران

وقد كان امرؤ القيس وسيماً جميلاً (١). ذكياً في حدة خاطر وسرعة بديهة ويستدل على ذلك من محاوراته الشعرية الآنفة الذكر مع عبيد بن الأبرص والتوأم اليشكري وغيرهما . غير انه لم يذكر لنا في شعره شيئاً عن زوجاته وولده. ونحن لانجد في كتب الأدب غير روايات ثلاث عن زواجه أولاهما(٢). يبدو أنهـا حدثت قبل مقتـل والـده مفادها « أن امرأ القيس آلى باليّة لايتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين . فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه فأعجبته ، فقال لها :

ياجارية ما ثمانية وأربعة واثنتان ؟ فقالت : اما ثمانية فأطباء الكلبة . وأما أربعة فأخلاف الناقة واما اثنان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها . وشرطت هي عليه أن تسأله ليلة بنائها بها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك ، وعلى أن يسوق إليها مائة من الأبل وعشرة أعبد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك» (٣).. وتمضي الرواية قائلة : بأن امرأ القيس أرسل إلى خطيبته نحياً من سمن وآخر من عسل وحلة مع عبد له، فما أن وصل العبد إلى غدير مـاء حتى نشر الحلة فانشقت وطعم أهل الغدير من السمن والعسل فنقصا، ثم وصل العبد إلى ديار الخطيبة وسلم اليها الهدية فأعلمته ان يخبر سيده بكلام استشفّ منه امرؤ القيس ان العبد قد عبث بالهدية . فعفا عنه امرؤ القيس عندما أوجد العبد التبرير المناسب .ثم ساق مائة

(١) أمير الشعراء ،في العصر القديم ص ٩٤، انظر / عمر الطالب، المصدرين السابقين
(٢) وسنورد في هذا البحث خيري الروايتين من زواجه
(٣) الاغاني جـ٩ ص ١٠١ ١٠٣

من الأبل وخرج نحوها ومعه الغلام، فنزلا منزلاً . فخرج الغلام يسقي الابل فعجز فأعانه امرؤ القيس ، فرمى به الغلام في البئر فخرج حتى أتى المرأة بالابل وخبرهم بأنه زوجها . وعندما اختبرته عرفت انه ليس امرأ القيس خطيبها . ومرّ قوم بقرب البئر فاستخرجوا امرأ القيس ، فرجع إلى حيّه فاستاق مائة من الابل وأقبل على خطيبته . فقيل لها قد جاء زوجك . فقالت : «والله ماأدري أهو زوجي أم لا ولكن انحروا له الجزور فأطعموه من كرشها وذنبها . فلما أتوه بذلك قال : أين الكبد والسنام والملحاء ! فأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً خازراً . فأبى أن يشربه وقال : فأين الصديف والرثيئة ! .فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم فأبى أن ينام وقال : افرشوا لي فوق القلعة الحمراء واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت اليه : هلمّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث . فأرسل اليها أن سلي عما شئت . فقالت : مم تختلج شفتاك ؟ قال : لشربي المشعشعات ، قالت فمم يختلج كشحاك؟ قال: للبسي الحبرات . قالت : فمم تختلج فخذاك؟ قال: لركضي المطهمات. فقالت: هذا زوجي! فعليكم به واقتلوا العبد فقتلوه. ودخل امرؤ القيس بالجارية» (١). وعلى الرغم من شكنا في هذه الرواية . فهي أول رواية تتحدث عن زواج امرؤ القيس. وسبب الشك فيها يعود إلى أمور عدة؛فقد ذكرت الرواية أنها طفلة كان يحملها والدها ، ولا يعقل أن يتزوج شاب كامرىء القيس طفلة أو يحب طفلة . كما اختلطت الاسئلة الثلاثة باسطورة أوديب عندما قابل الهولة على مشارف طيبة وهي أسطورة معروفة وشائعة . ومما يشكك في الأمر أيضاً مسألة العبد الخائن، فكيف يصطحبه امرؤ القيس معه وقد عرف خيانته وجحوده ، وارتبطت قضية رميه في البئر بقصة يوسف ، وهي قصة روتها التوراة وتناقلها اليهود والنصارى في شبه الجزيرة العربية . وثالثة الاثافي ، كيف لم تعرف فتاة خطيبها وكانت قد رأته من قبل واشترطت عليه شروطاً مقابل امتحانه لها ؟ فهي تخلط بين العبد وبينه في الحالين ولا

(١) الاغاني جـ٩ ص ١٠١ ، ١٠٣

تتعرف عليه إلا بعد اختباره وفوزه بها بعد الاجابة عن اسئلتها . ويبدو ان هذه الرواية من تدبيج الرواة لتزجية الوقت عند السمر والحصول على الجوائز والعطايا من الخلفاء ولكنها تبقى الرواية الوحيدة المتوافرة عن زواج امرئ القيس قبل مقتل ابيه . ونحن نعتقد بأن امرأ للقيس قد تزوج بأكثر من امرأة لما يحس به من صبوة ودنف بالنساء. ولمنزلته الاجتماعية وغناه، وفروسيته وجماله وتفوقه في الشعر على شعراء عصره، وهي صفات تتجسد في الرجل المثال لعصر ماقبل الاسلام .

وتجمع الروايات على ان :امرأ القيس بقي على تشرده إلى ان قتل والده. وقال ابن السكيت: ولما طعن الاسدي حجراً ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له: :انطلق إلى ابني نافع – وكان أكبر ولده – فأن بكى وجزع فأله عنه . واستقرئهم واحدا واحداً حتى تأتي امرأ القيس – وكان أصغرهم – فأيهم لم يجزع فادفع اليه سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي. وقد كان بينّ في وصيته من قتله وكيف كان خبره، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه، فأخذ التراب ووضعه على رأسه ثم استقرأهم واحدا واحداً فكلهم فعل ذلك . حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد فقال له: قتل حجر. فلم يلتفت إلى قوله، وأمسك نديمه. فقال له امرؤ القيس : اضرب فضرب .حتى اذا فرغ قال : ماكنت لأفسد عليك دستك ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله فأخبره فقال : الخمر علي والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة واجزّ نواصي مائة . وفي ذلك يقول :

أرقت ولم يأرق لما بي نافع وهاج لي الشوق الهموم الروادع (١)

وقال ابن الكلبي « فأتاه – امرؤ القيس – خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوّصاف فلما أتاه بذلك قال:

تطاول الليل على دمّون دمّون إنّا معشر يمانون

---

(١)الاغاني جـ٩ ص ٨٧

وإنّا لاهلنا محبون

م قال : ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً ،لاصحو اليوم ولاسكر غداً. اليوم خمر وغداً أمر . فذهبت مثلا .ثم قال :

خليليّ لافي اليوم مصحىً لشارب ولافي غد إذ ذاك ماكان يشرب

ثم شرب سبعا، فلما صحا آلى أن لايأكل لحما ولايشرب خمراً ولايدهن بدهن ولايصيب امرأة ،ولايغسل رأسه من جنابة حتّى يدرك ثأر.، فلما جنّه الليل رأى برقاً فقال:

أرقت لبرق بليل أهل يضيء سناه بأعلى الجبل » (١)

إلى آخر القصيدة وروى الهيثم عن اصحابه : «أن أمر القيس لما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع :وكان في بني حنظلة مقيماً لأن ظئره كانت امرأة منهم، فلما بلغه ذلك قال:

يالهف هند إذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحلاحلا
تالله لايذهب شيخي باطلا ياخير شيخ حسبا ونائلا
وخيرهم – قد علموا – فواضلا يحملننا والأسل النواحلا
وحيّ صعب والوشيج الذابلا مستثفرات بالحصى جوافلا» (٢)

ونحن لسنا مع الرواية الإخيرة وانما مع الرواية الأولى فقد تواترت في كتب الأدب على الرغم من اختلاف الرواية فيها وهي اقرب إلى المنطق والمعقول .وهي لم تخل من فن القص وملح الرواية .

وبعد أن علم بنو أسد استعداد أمريء القيس لقتالهم، قدم اليه رجال من قبائل بني أسد كهول وشبان.فلما علم بمكانهم أمر بانزالهم وتقدم باكرامهم والافضال عليهم. واحتجب منهم ثلاثا، فسألوا من حضرهم من رجال كندة. فقال: هو في شغل باخراج مافي خزائن حجر من السلاح والعدة. فقالوا

(٢،١) الاغاني ج ٩ ص ٨٧–٨٨ ، ٨٨–٨٩

ألّلهم غفراً إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ماسلف ونستدرك به مافرط، فليبلغ ذلك عنا. فخرج اليهم في خف وعمامة سوداء وكانت العرب لاتعتم بالسواد إلا ّفي الترات. فلما نظروا اليه قاموا له، وبدر اليه قبيصة بن نعيم: إنك في المحل والقدر والمعرفه بتصرف الدهر وماتحدثه أيامه وتنتقل به أمواله. بحيث لاتحتاج إلى مبّصر واعظ ولاتذكرة مجرب ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتمل بحتمل ماحمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن هفوة،ولاتتجاوز الهمم إلى غاية الا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح الذي كان من الخطب الجليل الذي عمّت رزيئة نزار او اليمن ، ولم تخصص كندة دوننا للشرف البارع .كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وآخاه الحمد وطيب الشيم ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولقد يناه منه ولكن مضى به سبيل لايرجع أولاه على أخراه ولايلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال : أما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا واعلاها في بناء المكرمات صوتا، فقدمناه اليك بنسعه يذهب مع شفرات حسامك تنائي قصيدته فيقول رجل: امتحن بهلك عزيز فلم تستل شكيمته إلا بتسكينه من الانتقام، أو غداه بما يروح من بني أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الخسية فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسبيط الإحن على البراء ، واما أن توادعنا حتّى تضع الحوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات.

فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم. وإني لن اعتاض به جملاً او ناقةً فاكتسب بذلك سبّة الأبد وفتّ العضد ،وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون امهاتها ولكي اكون لعطبها سببا. وستعرفون طلائع كندة بعد ذلك: تحمل القلوب حنقا فوق الأسنةعلقا:

اذا جالت الخيل في مـأزق   تدفع فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار وأبلى الاجترار لمكروه وأذية ، وحرب وبلية ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثلا:

لعلك ان تستوخم الموت أن غدت   كتائبنا في مأزق الموت تمطر

فقال امرؤ القيس : لا والله لاستوخمه . فرويدا ينكشف لك وجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير . ولقد كان ذكر هذا أولي بي اذ كنت نازلا بربعي ولكنك قلت فأجبت .

فقال قبيصة : ماتتوقع فوق قدر المعاتبة والاعتاب : فقال : امرؤ القيس: فهو ذاك (١). ارتحل امرؤ القيس حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بني أسد ، فبعث العيون عليهم فنذروا بالعيون ولجأوا إلى بني كنانة . وكان الذي انذرهم بهم علباء بن الحرث . فلما كان الليل قال لهم علباء: يامعشر بني أسد تعلمون والله أن عيون امرؤ القيس قد أتتكم ورجعت اليه بخبركم فارحلوا بليل ولا تعلموا بني كنانة ، ففعلوا ، واقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة وهو يحسبهم بني اسد ووضع السلاح فيهم . وقال يالثارات الملك ! يالثارات الهمام ! فخرجت اليه عجوز من بني كنانة فقالت : أبيت اللعن ، لسنالك بثأر ، فنحن من كنانة فدونك ثأرك فاطلبهم فان القوم قد ساروا بالأمس ، فتبع بني أسد ففاتوه ليلتهم . فقال في ذلك :

الا يا لهف هند اثر قـوم   هم كانوا الشفاء فلم يصابوا (٢)
وقاهر جدهم ببني أبيهم   وبالأشقين ما كان العقاب
وافلتهن علباء جريضا   ولو أدركنه صفر الوطاب

وروي أنه قال ايضا مهدداً بني أسد:

---

(١) الاغاني جـ٩ ص ١٠٣ - ١٠٥
(٢) شرح الديوان ص ٥٠ - ٥١

يالهف هند إذ خطئن كاهلاً ... تالله لايذهب شيخي باطلا (١)

حتى أبير مالكا وكاهلا ... القاتلين الملك الحاحلا

خير معد حسباً ونائلا ... وخيرهم قد علموا شمائلا

نحن جلبنا القرّح القوافلا ... يحملننا والأسل النواهلا

وحيّ صعب والوشيج الذابلا ... مستثغرات بالحصى حوافلا

يستشرف الأواخر الأوائلا

فأجابه عبيد بن الابرص الاسدي متحديا :

ياذا المخوفنا بقتل ... أبيه إذلالا وحينا

أزعمت أنك قد قتلت ... سراتنا كذبا ومينا

هلاّ على حجر بن أم ... قطام تبكي لا علينا

أنّا اذا عضّ الثقاف ... برأس صعدتنا لوينا

نحمي حقيقتنا وبعض ... القوم يسقط بين بينا؟

هلاّ سألت جموع كندة ... يوم ولوا أين أينا

ايام نضرب هامهم ... ببواتر حتى انحنينا

وجموع غسان الملوك ... أتينهم وقد انطوينا

نحن الألى فاجمع جمو ... عك ثم وجههم إلينا

واعلم بأن جيادنا ... آلين لايقضين دينا

ولقد أبحنا ما حجمت ... ولا مبيح لما حمينا

وتبع امرؤ القيس أسداً فادركهم ظهراً وقد تقطعت خيله وقطع أعناقهم العطش ،وبنو أسد حامّون على الماء. فنهد إليهم فقاتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم . وحجز الليل بينهم. وهربت بنو أسد فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: لقد أصبت ثأرك .فقال : والله مافعلت ولا أصبت من بني كاهل ولامن غيرهم من بني أسد أحدا. فقالوا : بلى ولكنك رجل

---

(١) م. س ص ١٥٤ – ١٥٦

مشؤوم. وكرهوا قتالهم بني كنانة وانصرفوا عنه. ومضى هاربا لوجهه حتى لحق بحمير فاستنصر أزد شنؤءة فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا فنزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذي جدن الحميري وكانت بينهما قرابة فاستنصره واستمده على بني أسد فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم، وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يدعى قرمل بن الحميم وكانت أمه سوداء، فردّ امرأ القيس وطوّل عليه حتى هم بالانصراف ،فقال امرؤ القيس :

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذ نحن لاندعى عبيداً لقرمل

فأنفذ له ذلك الجيش وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من قبائل العرب رجالا فسار بهم إلى بني أسد ومرّ بتبالة وبها صنم للعرب تعظمه يقال له ذو الخلصة فاستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة، الأمر والناهي والمتربص، فأجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها ثانية فخرج الناهي وهكذا للمرة الثالثة. فجمعها وكسرها وضرب وجه الصنم وقال : مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ماعقتني .ثم خرج إلى بني أسد وظفر بهم (١) . وقتل قتلة أبيه وأنكى فيهم ألبسهم الدروع البيض محماة، وكحلهم بالنار وقال قصيدته:

يـــا دار مـاويّـــة بالحائل وفالسهب فالخبتيـن من عاقل (٢)

صمّ صداهـا وعفـا رسمهـا واستعجمت عـن منطق السائل

قـــولا لدودان عبيـــد العصـا مـاغركم بالأسد الباسـل

قـد قـرت العينان من مالك ومن بني عمرو ومـن كاهل

ومـــن بني غنم بنه دودان إذ نقـذف اعلاهـم علـى السافل

نطعنـــهـم سلكى ومخلوجة كرّك لأميـن علـى نابـل

إذ هـنّ أقساط كرجل الدّبا أو كقطا كاظمة الناهـل

(١) الاغاني ج٩ ص ٩٢ — ٩٣

(٢) شرح الديوان ص ١٥١ — ١٥٢

حتى تركناهم لدى معرك أرجلهم كالخشب الشائل
حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

ويقال : أن امرأ القيس مااستقسم عند ذي الخلصة بعد ذلك بقداح حتى جاء امر الله بالاسلام وهدمه جرير بن عبدالله البجلي"(١). وتدلنا هذه الرواية على أن امرأ القيس لم يكن متمسكاً بدين آبائه واجداده، وانه خفيف التدين لاهياً عنه بتشرب الحياة والانطلاق في أرجائها قبل مقتل والده ، وجاداً في الأخذ بثأر أبيه بعد مقتله.

وكان امرؤ القيس كما مر بنا لما بلغه قتل أبيه حجر آلى على نفسه ألا يمس رأسه غسل ولا يشرب خمراً حتى يثأر لأبيه ،فلما ظفر ببني أسد وأدرك ثأره حل له ماحرم على نفسه ،فقال :

قالت فطيمة حل شعرك مدحه أفبعد كندة تمدحن قبيلا (٢)

وفطيمة هي ابنة عمه فاطمة التي طالما خاطبها بالتجلة والاحترام، وكان لاتصلح من النساء لمخاطبته بعد الوصول إلى ثأره والانتقام من بني أسد إلا امرأة بمستوى الانتصار يكن لها الحب والود .ولم نجد في شعره امرأة تحظى بهذه المكانة الكبيرة غير ابنة عمه فاطمة.

وهم الكرام بنو الخضارمة العلى لسميدع أكرم بذاك نجيلا
ياأيها الساعي ليدرك مجدنا ثكلتك أمك هل ترد قتيلا
سائل بنا ملك الملوك إذا التقوا عنا وعنكم لا تعاش جهولا
منا الذي ملك المعاشر عنوة ملك الفضاء فسل بذاك عقولا
وبنوه قد ملكوا خلافة ملكه شبان حرب سادة وكهولا
سائل بني أسد بمقتل ربهم حجر بن أم قطام جل قتيلا

(١) الاغاني ٩ـ ٩٣
(٢) شرح الديوان ص ١٥٦ – ١٥٨

إذا سار ذو التاج المجان بجحفل لجب يحارب بالفلاة صهيلا
حتى أبال الخيل في عرصاتهم فشفى وزاد على الشفاء نحيلا
أحمى دروعهم فسربلهم بها والنار كحلهم بها تكحيلا
وأقام يسقي الراح في هاماتهم ملك يعلّ بشربها تعليلا
والبيض قنعها شديداً حرها فكفى بذلك للعدا تنكيلا
حلت له من بعد تحريم لها أو أن يمسّ الرأس منه غسولا
حتى أباح ديارهم فأبارهم فعموا فهم لايهتدون سبيلا

وألح المنذر في طلب امرىء القيس ووجه الجيوش في طلبه من أياد وبهراء وتنوخ ولم تكن لهم طاقة، ومدة أنو شروان بجيش من الأساورة فسرحهم في طلبه (١) وتفرقت حمير ومن كان معه عنه، فنجا امرؤ القيس في عصبة من بني آكل المرار حتى نزل بالحرث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ومع امرىء القيس أدرع خمسة كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكا من ملك .فقلما لبثوا عند الحرث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر مائة من أصحابه ووعده بالحرب إن لم يسلم اليه بني آكل المرار فأسلمهم، ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحرث وأخته هند والأدرع والسلاح والمال (٢)، وقال يهجو بني حنظلة :

أبلغ بني زيد إذا ما لقيتهم وابلغ بني لبنى وأبلغ تماضرا(٣)
وأبلغ ولاتترك بني أبنة منقر أفقرهم إني أفقر خابرا
أحنظل لو كنتم كراما صبرتم وحطّم ولايلغى التميمي صابرا

لجأ امرؤ القيس ومن معه إلى ابن عمته عمرو بن المنذر، وأمه هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار، وكان عمرو يؤمئذ خليفة لأبيه المنذر ببقة وهي بين الأنبار وهيت ،فمدحه وذكر صهره ورحمه وأنه قد تعلق بحباله

---

(١) ولقد قام بين دولتي المناذرة وكندة عداء قديم، ينظر/ محاضرات في تاريخ العرب ص ٨٦-٩٢
(٢) الاغاني حـ٩ ٩٣
(٣) شرح الديوان ص ٩٢

ولجأ اليه فاجاره ومكث عنده زمانا ثم بلغ المنذر مكانه فطلبه، وانذره عمرو فهرب ونزل على سعد بن الضباب الايادي سيد قومه فأجاره ،وكانت أم سعد بن الضباب تحت حجر أبي امريء القيس فطلقها وكانت حاملا وهو لايعرف ،فتزوجها الضباب فولدت سعداً على فراشه فلحق نسبه به وكان قبله قد لجأ إلى هاني بن مسعود بن عامر أحد رؤساء بني شيبان فاستجاره فلم يجره وقال له أنا في ديز الملك فقال امرؤ القيس يذكر ذلك :

يفاكهنا سعد وينعم بالنـــا ... ويغدو علينا بالجفان وبالجـزر
ونعرف فيه من أبيـه شمـــائلا ... ومن خاله ومن يزيد ومـن حجر
سماحة ذا وبـرّ ذا ووفـاء ذا ... ونائل ذا إذا صحا واذا سكر(١)

وقال فيه بعد أن أجاره:

منعت الليث من أكل بن حجـر ... وكاد الليث يودي بابن حجـر
منعـت فانت ذو منّ ونعمـى ... على ابن الضّباب بحيث ندري
سأشكرك الـذي دافعت عـني ... ومايجزيك مني غير شكري
فما جار بأوثق منك جـارا ... ونصرك للفريد اعزّ نصر (٢)

وقال يمدح سعد بن الضباب الايادي ويهجو هاني بن مسعود الشيباني (٣).

لعمرك ماقلبي إلى أهله بحر ... ولامقصر يوما فيأتيني بقـر
الا إنما الدهر ليال وأعصـر ... وليس على شيء قويم بمستمر
ليال بذات الطلح عند محجّر ... أحب إلينا من ليال على أقر
اغادي الصبوح عند هرّوفرتنا ... وليداً وهل أفنى شبابي غيرهـر
لعمرك ماسعد بخلّة آثـم ... ولاتأناء يوم الحفاظ ولاحصر
لعمري لقوم قد نرى في ديارهم ... مرابط للامهار و العكر الدثر

(١) الاغاني حـ٩ ص ٩٢ - ٩٤
(٢) شرح الديوان ص ٩١ - ٩٢
(٣) شرح الديوان ص ٨٣- ٨٦

أحب إلينا من أناس بقنّة يروح على آثار شائهم النمر
لعمري لسعد بن الضباب إذا غدا أحب إلينا فأفرس حمر

وقال امرؤ القيس في سعد بن الضباب أيضا بعد أن أجاره وانزله في جبال طيء :(١)

تنكرت ليلى عن الوصل ونأت ورثّ معاقد الحبل
ولووا متاعهم وقد سئلوا بذل المتاع فضن بالبذل

* * *

من كان يأمل عقر داري من أهل الأوّد بهاوذي النّحْل
فليأت وسط قبابه خيمي ويأت وسط خميسه رجلي
باهل أتاك وقد يحدث ذو الود القديم مسمّة الدخل
إني لعمري ماانتميت فلم أعدل إلى بدل ولامثل
لأخ رضيت به وشارك في الانساب والاصهار والفضل
ولمثل أسباب علقت بها يمنعن من قلق ومن أزل
لما سما من بين أقرن فالأجبال قلت فداؤه أهلي
همّ سيبلغه التمام فذا ظنّي به سينال أو يبلي
وأتى على غضفان فاختلفوا دين يجيء وهارب مجلي
ويحشّى تحت الغدر بوقدها بغضى الغريق فاجمعت تغلي

لقد تحول امرؤ القيس عن سعد بن الضباب خشية عليه من ان يطلبه المنذر فوقع في رجل أرض طيّ فنزل برجل من بني جديلة يقال له المعلى بن يتم ابن ثعلبه فأجازه ومنعه وكان المنذر بن ماء السماء يجد في طلبه فقال امرؤ القيس يمدح المعلى:

كأني اذا نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا الملك الشآمي
أصدّ نشاص ذي القرنين حتى تولى عارض الملك الهمام
أقرّ حشا امريء القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام (٢)

(٢،١) شرح الديوان، ١٤٩ – ١٥٠ ، ١٨٠ – ١٨١

لبث امرؤ القيس عند المعلى واتخذ إبلا هناك. وكان بين امرىء القيس وبين سبيع بن عوف أحد بني طهية وشيجة قربى .فنزل عليه سبيع وسأله فلم يعطه شيئاً فذمه سبيع بقوله :

إذا ما نزلنا دار آل مخرز بليل فلا يخلف عليها الغمام(١)
مخرز أبكار اللقاح إذا شتا وضيفك جار البيت لأياً ينام

فرد عليه امرؤ القيس بقصيدةطويلة :

لمن الديار غشيتها بسحام فعمايتين فهضب ذي إقدام
فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر تمشي النعاج بها مع الآرام
دار لهند والرباب وفرتنا ولميس قبل حوادث الأيام
عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام
أبلغ سبيعاً إن عرضت رسالة أني كهمك إن عشوت أمام
فاقصر إليك من الوعيد فانني مما ألاقي لا أشد حزامي
وأنازل البطل الكريه نزاله وإذا أناضل لا تطيش سهامي
وأنا المنبه بعد ماقد نوموا وأنا المعالى صفحة النوام
وانا الذي عرفت معد فضله ونشدتُ عن حجر بن أم قطام
خالي ابن كبشة قد علمت مكانه وأبو يزيد ورهطه أعمامي
وإذا أذيت ببلدة ودعتها ولا أقيم بغير دار مقام

ومن خلال فخره ندرك سوء حالته الاقتصادية ومعاناته للاضطهاد الذي كان يشعر به من ملاحقة المنذر بن ماء السماء له، وهو لم يعط سبيعاً لاعن بخل وامساك بل خشية مما يخبيء له الدهر وهو الذي لاقى الكثير من تقلباته وأهواله .

وقد غدا قوم من بني جديلة يقال لهم بنو زيد فطردوا إبل امريء القيس، وكانت له رواحل مقيدة عند البيوت خوفاً من أن يدهمه أمر ليسبق عليهن

(١) م. س ، ١٧٥ – ١٧٩

فخرج حينئذ فنزل ببني نبهان من طيء، فخرج نفر منهم فركبوا الرواحل ليطلبوا له الابل فأخذتهن جديلة فرجعوا إليه بلاشيء فقال في ذلك :

واعجبني لـه مشي الحزقة خالد كمشي أتان حلئت بالمنـاهـل
فـدع عنك نهباصيح في حجراته ولكن حديث ماحديثاً الرواحل (١)

وتروى الحادثة (٢) على أن امرأ القيس نزل على خالد بن سدوس بن أصمع النبهاني فأغار عليه باعث بن حويص الجديلي الطائي في رجال معه فذهبوا بابله ،فلما علم امرؤ القيس أخبر جاره خالداً ،فقال له خالد: اعطني رواحلك ألحق بها القوم فأرد إبلك ؟ فأعطاه رواحله فركبها خالد. فلما أدركهم قال : يابني جديلة. أغرتم على جاري فردوا اليه ابله؟ . فقالو : ماهو بجار ،فقال: بلى والله ماهذه الأبل التي معكم إلاّ كالرواحل التي تحتي ، فقالوا : أكذلك ؟. فرجعوااليه فانزلوه عنها وذهبوا بها أيضاً فلما عاد إلىامريء القيس بهذه الحال تحول عنه إلى جارية بن مرّ الثعليفأجاره وأكرمه .فقال يمدحه وبني ثعل :

دع عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل
كـأن دثـاراً حلّقـت بلبونة عقاب تنوفى لاعقاب القواعل
تلعّـب باعـث بذمة خـالد واودى عصام في الخطوب الأوائل
وأعجبني مشي الحزّقـة خالد كمشي أتان حلئت في المناهل
أبـت أجأ أن تسلم العام جارها فمن شاء فلينهض لها من مقاتل
تبيت لبونى بالقريّـة أمّنا وأسرحها غبّا بأكناف حائـل
بنو ثعل جيرانهـا وحماتهـا وتمنع من رماة سعد ونائل
تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء في رؤوس المجادل
مكللّـة حمـراء ذات أسرّة لها حبك كأنها من حبائـل

(١) الأغاني ج ٩ ص ٩٤
(٢) شرح لمعلقات ص ١٥٢ ١٥٤

ففرقت عليه بنو نبهان فرقاً من معزى يحلبها فأنشد يقول (١) :

الا إلاّ تكن إبل فمعزى كأن قرون جلّتها العصيّ
تربع بالستار ستار قدر إلى غسل فجادلها الدليّ
إذا قام حالبها أرنت كأن الحيّ بينهم نعيّ
تروح كأنها مما أصابت معلقة بأحقيها الدليّ
فتملأ بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وريّ

ومكث امرؤ القيس عند طيء فترة طويلة وتزوج فيهم .وقد روى الميداني عن المفضل الضبي أن امرأ القيس كان مفركاً لاتحبه النساء ولاتكاد امرأة تصبر معه تزوج امرأة من طيء فابتنى بها فابغضته من تحت ليلها وكرهت مكانها معه فجعلت تقول:

ياخير الفتيان أصبحت ،فيرفع رأسه فيرى الليل كما هو ،فتقول المرأة: أصبح ليل.فلما أصبح قال لها : قد علمت ماصنعت الليلة .وقد عرفت أن ان ماصنعت كان كراهية مكاني في نفسك فماذا كرهت مني . فسكتت فألح عليها فقالت : كرهتك لأنك ثقيل الصدر ،خفيف العجز ،سريع الاراقة ،بطيء الافاقة (٢) .

وروى الاصمعي ان المرأة الطائية هي ام جندب . (٣) وان علقمة بن عبدة نزل بامرى القيس فتذاكر الشعر وادعاه كل واحد منهما على صاحبه، فقال علقمة بن عبدة :قل شعراً تمدح فيه فرسك والصيد واقول مثله ، هذه الحكم بيني وبينك .

فقال امرؤ القيس :

خليلي مرّا بي على ام جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب(٤)
فانكما ان تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى امجندب

---

(١) دمراء النصرانية قبل الاسلام ج١/ ص ٢٢
(٢) الاغاني ج٩ ص٩٣
(٣-٤) شرح الديوان، ٣١، ٣١ - ٤١

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب(١)

فلما فرغ منها فضلته ام جندب على امرىء القيس فقال لها: بما فضلته عليّ . فقالت: فرس ابن عبدة اجود من فرسك قال : وبماذا .قالت : سمعتك زجرت وضربت وحركت وهو قولك :

وللساق ألهـــوب وللسوط درة وللزجر منه وقع اهوج متعب

بينما ادرك فرس علقمة ثانيا من عنانه. وهو قوله :

فأقبل يهوى ثانيا مــن عنانــه يمـر كمرّ الرائح المتحلب

فغضب امرؤ القيس على ام جندب وطلقها . وقيل ان علقمة خلف عليها بعد ذلك فسمي علقمة الفحل .

ويظهر الاختلاف في هذه الرواية، فمن يمعن النظر في مقدمة قصيدة امرىء القيس يدرك بان زوجا لايمكن ان يتحدث بهذا الاسلوب عن زوجته وكأنه يتحدث عن امرأة يعاشرها لازوجة يصونها. ومن يستمع الى حديثها معه ليلة زواجهما، يتبين الاختلاف الكامن فيه فلا يمكن لامرأة حرة ان تتحدث الى زوجها مثل هذا الحديث وفي الليلة الاولى لدخوله عليها وانما هو حديث امرأة متمرسة في معاشرة الرجال. اما حديث المحاكمة بينه وبين علقمة فهو مختلف اصلا فلماذا يلجأ الى امرأة لامعرفة لها بالشعرلتحكم بينهما وهما شاعران كبيران يمكنهما ان يلجآ الى محكمين من العارفين بالشعر والخابرين له ومن اين لها المقدرة على الحكم بهذه الدقة بينهما وهي لاتعرف شيئا عن الشعر واصوله ومداخله ؟ . اما السبب في تسمية علقمة بالفحل « كان للتفرقة بينه وبين شخص آخر كان يسمى علقمة الخصي (٤) »

---

(١) شرح الديوان، ٤٢ – ٤٧ .

(٢) تاريخ الادب تاريخ الجاهلي ص ٥٦ – ٥٧

ونعتقد ان الدافع لهذه الرواية المختلقة هو دافع ديني ، يعاقب فيه الراوية المسلم امرأ القيس على سلوكه في شبابه بان تعافه زوجاته لانه مفرك او كريه الرائحة ويخلف غيره على زوجاته لان زو جاته لايطقنه ويضعن أعينهن على غيره من الرجال . فقد جنت بداه الاعاصير لانه كان قد زرع الرياح . وقد اعتدي عليه بمثل ما اعتدى . ولذلك جاء شكنا في هذه الرواية واعتقادنا بأنها موضوعة مثل الروايات الاخرى التي وضعت عند الحديث عن سيرته .

خرج امرؤ القيس ونزل بعامر بن جوين واتخذ عنده ابلا ، وعامر يومئذ احد الخلعاء الفتاك قد تبرأ قومه من جرائره .فكان عنده ماشاء الله. ثم هم ان يغلبه على اهله وماله ففطن امرؤ القيس بشعر كان عامر ينطق به وهوقوله:

فكم بالصحيح من هجان مؤبله تسير صحاحا ذات قيد ومرسله
اردت بها فتكا فلم ارتمض له ونهنهت نفسي بعد ما كدت أفعله

فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه وخافه على نفسه واهله وماله ، تغفله وانتقل الى رجل من بني ثعل يقال له حارثة بن مر فاستجار به فوقعت الحرب بين عامر وبين الثعلي فكانت في ذلك امور كثيرة وعندما شعر امرؤ القيس ان الحرب قد وقعت بين طيء من اجله ،خرج من عندهم فنزل برجل من بني فزارة يقال له عمرو بن جابر بن مازن :فطلب منه الجوار حتى يرى ذات غيبة . فقال له الفزارى : يا ابن حجر اني اراك في خلل من قومك وانا انفس بمثلك اهل الشرف ،وقد كدت بالامس تؤكل في دار طيء واهل البادية اهل بر لا اهل حصون تمنعهم،وبينك وبين اهل اليمن ذؤبان من قيس أفلا ادلك على بلد فقد جئت قيصر وجئت النعمان فلم ارلضيف نازل ولا لمجتهد مثله ولا مثل صاحبه، قال : من هو واين منزله؟ قال: السموأل بتيماء وسوف اضرب لك مثله هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات غيبك وهو في حصن حصين وحب كبير . فقال له امرؤ القيس: وكيف

لي به ؟ قال :اوصلك الى من يوصلك اليه فصحبه الى رجل من بني فزارة يقال له الربيع بن ضبع الفزارى ممن يأتي السموأل فيحمله ويعطيه . فلما صار اليه قال له الفزارى: ان السموأل يعجبه الشعر . فقال امرؤ القيس :

طرقتك هند بعد طول تجنب وهناً ولم تك قبل ذلك تطرق

وهي قصيدة طويلة واظنها منحولة لانها لاتشاكل كلام امرىء القيس والتوليد فيها بيّن وما دوّنها في ديوانه احد من الثقات واحسبها مما صنعه دارم لانه من ولد السموأل ومما صنعه من روى عنه من ذلك (١).

وقد وفد الفزاري بامريء القيس إلى السموأل ،فلما كانوا ببعض الطريق إذ هم ببقرة وحشية مرميّة ،فلما نظر إليها أصحابه قاموا فذكوها .فبينما هم كذلك إذا هم بقوم قناصين من بني ثعل.فقالوا لهم من أنتم؟ فانتسبوا لهم فاذا هم من جيران السموأل فأنشد امرؤ القيس قصيدته :

رب رام من بني ثعل متلج كفيه في قتره

فهو لا تنمى رميته ما له لا عدّ من نفره

مطعم للصيد ليس له غيرها كسب على كبره (٢)

ويبدو أن امرأ القيس قد لاقى من بني ثعل حسن الجزاء وطيب الاقامة وكرم الوفادة حيث قدم أكثر مديحه إليهم. فقد مدح ابني زهير من بني سلامان بن ثعل (٣) :

أرى إبلي والحمد لله أصبحت ثقالا إذا ما استقبلتها صغورها

رعت بجبال ابني زهير كليهما معاشيب حتى ضاق عنها جلودها

ومدح ابا حنبل الثعلي وقومه لأنه أحسن وفادته وأجاره بأبيات مطلعها (٤).

أحللت رحلي في بني ثعل إن الكريم للكريم محل

---

(١) الاغاني جـ٩ ص ٩٦ – ٩٧ .

(٢) الاغاني جـ٩ ص ٩٧ – ٩٩ .

(٣) شرح الديوان ص ٦٤ .

(٤) م . س ص ١٦١

ومدح بني ثعل وقد نزل في ديار طيء فأكرموه وحموه (١) بقطعة شعرية مطلعها :

الا حبذا قوم يحلون بالجبل وأثعلا وأين مني بني ثعل

وقد مضى بنو ثعل بامريء القيس حتى قدموا على السموأل فأنشده الشعر وعرف لهم حقهم، فأنزل المرأة في قبة آدم، وأنزل القوم في مجلس له براح، فكان عنده ماشاء الله . ثم طلب اليه أن يكتب له إلى الحرث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر فاستنجد له رجلا. واستودع عنده المرأة والأدرع والمال . وأقام معها يزيد بن الحرث بن معاوية ابن عمه (٢) .

ونحن نشك فيما ورد في بعض كتب الأدب عن رفض السموأل تسليم ودائع امريء القيس حتى عرض ولده للقتل أمام عينيه بسبب أمانته (٣) فلو كانت هذه الحادثة صحيحة لما أغفل امرؤ القيس ذكرها في شعره وهو الذي مدح كل من أجاره وأحسن وفادته فكيف ينسى فعلا شهماً وعظيماً كهذا الفعل .

وأكثر من ذلك لم يذكرها أحد من الرواة الثقات ولو كانت حقيقة واقعة لتناقل الرواة هذا الفعل العظيم. والقصة ولاشك وضعها اليهود بعد الاسلام لتعظيم مكانتهم قبل الاسلام وانتحلوها كما انتحلوا شعراً في السموأل والاشادة به كما سبق ذكره حول قصيدة (طرقتك هند بعد طول تجنب) .

ومضى امرؤ القيس إلى بلاد الشام وكان يصحبه الحارث بن حبيب السلمي وقد مات في الطريق فرثاه امرؤ القيس (٤)

ثوى عند الودّية جوف بصرى أبو الأيتام والكل العجاف
فمن يحمي المصاف اذا دعاه ويحمل خطة الأنس الضعاف

---

(١) م. س ص ١٦٠

(٢) الاغاني حـ٩ ٩٩

(٣) ينظر/ شعراء النصرانية قبل الاسلام ص ٢٥

(٤) شرح الديوان ص ١١٦

ومضى امرؤ القيس من بلاد الشام الى بلاد الروم. ويقال ان عمر وبن قميئة رافق امرأ القيس في سفره إلى القسطنطينيه . وكان عمرو بن قميئة من قدماء الشعراء في الجاهلية وأنه أول من قال الشعر من نزار . وهو أقدم من امريء القيس ولقيه امرؤ القيس في آخر عمره فأخرجه معه إلى قيصر عند ماتوجه اليه فمات في الطريق وسمته العرب (عمراً الضائع) لموته في غربته وفي غير أرب ولامطلب (١) .

وقد أمل امرؤ القيس ان يجد العون عند قيصر وهو في طريقه اليه وينتقم من بني أسد ويعيد مكانة آكل المرار في قومهم. فقال (٢) :

سمابك شوق بعد ما كان أقصرا ... وحلت سليمى بطن قوّ فعرعرا
كنانيّة بانت وفي الصدر ودها ... مجاورة غسان والحـيّ يعمرا
بعينيّ ظعن الحيّ لما تحملوا ... لدى جانب الافلاج من جنب قيمرا

• • • • •

حمته بنو الربداء من آل يامن ... بأسيافهم حتى أقرّ وأوقرا
وأرض بني الربداء واعتمّ زهره ... وأكمامه حتى إذا ما تهصّرا
أطافت به جيلان عند قطاعه ... تردد فيه العين حتى تحيرا

• • • • •

الا هل أتاها والحوادث جمة ... بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا
تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت ... على خملي خوص الركاب وأوجرا
فلما بدت حوران والآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا

• • • • •

فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرة ... ذمول إذا صام النهار وهجّرا

• • • • •

---

(١) الاغاني جـ١٦ ص ١٥٨ – ١٥٩

(٢) شرح الديوان ٦٦ – ٧٦

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله أبرّ بميثاق وأوفى وأصبرا
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ولكنه عمدا إلى الروم أنفرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبكي عيناك إنما نحاول ملكا أو تموت فنعذرا

• • • • •

اذا قلت روحنا أرنّ فرانق على جلعد واهي الاباجيل أبترا
لقد انكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

• • • • •

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا بكاء على عمرو وماكان أصبرا
اذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة وراء الحساء من مدافع قيصرا
اذا قلت هذا صاحب قد رضيته وقرّت له العينان بدلت آخرا
كذلك جدي ماأصاحب صاحبا من الناس الاخانني أو تغيرا
وكنا أناساً قبل غزوة فرمل ورثنا الفتى والمجد أكبرا أكبرا

• • • • •

فهل أنا ماش بين شرط وحيّة وهل أنا لاق حيّ قيس بن شمرّا
تبصر خليلي هل ترى ضوء بارق يضيء الدجى بالليل عن سر حميرا
أجار قسيساً فالطهاء فمسطحاً وجوّاً فروّى نخل قيس بن شمرّا
وعمرو بن درماء الهمام اذاغدا بذي شطب عضب كمشية قسورا

ونلمس مشاعر الأسى في نفس امريء القيس وتبدل الزمان عليه والنفس الكبيرة التي يحملها بين جنبيه والذي أخذ عهدا على تحقيق هدفه في الثأر لوالده من قاتليه واسترجاع مكانة آل آكل المرار إلى ماكانت عليه في الماضي. وهذا الهدف العظيم هو الذي دفعه للذهاب إلى قيصر لعله يلقى العون والمساعدة منه .

ويروي ابو الفرج الاصفهاني عن ابن الكلبي أن قيصر الروم رحب بامريء القيس واكرمه اكراما عظيما وانزله منزلة كبيرة، فاندس رجل من بني

أسد يقال له الطماح وكان امرؤ القيس قد قتل اخا له: فأتى بلاد الروم واقام مستخفيا .

«وضم قيصر الى امرىء القيس جيشا كثيفا وفيهم جماعة من ابناء الملوك وقال بعضهم لقيصر: إن العرب قوم غدر ولا تأ من أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه. واكد ابن الكلبي أن الطماح قال لقيصر إن امرأ القيس غويّ عاهر وانه لما انصرف عنك بالجيش ذكر انه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك شطراً يشهر بها بين العرب فيفضحها ويفضحك ،فبعث اليه حينئذ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك،فاذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة. واكتب اليّ بخبرك من منزل الى منزل.فلما وصلت اليه لبسها واشتد سروره بها فأسرع فيه السم وسقط جلده فلذلك سمّي ذا القروح، وقال في ذلك:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني مـــن مايلبسّ أبؤســـا
فلو أنها نفس تموت سويّــة ولكنها نفس تساقط أنفسا» (١)

وذكرت له قصائد قالها وهو عند قيصر يظهر فيها الافتعال وصنع الرواة وهي بعيدة عن روح شعر امرىء القيس هذا بالاضافة إلى أنها مشكوك في أمرها ونسبها إلى أمرىء القيس (٢). وعدها آخرون من المنحول وهي من زيادات ملحق الطوسي (٣) :

أأذكرت نفسك مالـــن يعــودا فهاج التذكـر قلبـــا عميــدا

وان امرأ القيس دخل الحمام مع قيصر فزعموا انه وصفه قائلا (٤)

إني حلفت يمينا غير كــاذبــة أنــك أقلف الاماجنى الــقــمــر

---

(١) الاغاني حـ٩ ٩٩- ١٠٠
(٢) شرح الديوان ص ٦٤
(٣) الديوان ص ٢٥١
(٤) شرح الديوان ص ٩٢

ومن الجلي ان مثل هذا الكلام لايصدر عن امريء القيس لأنه يختلف تماما عن طبيعة شعره ونحن نعجب من عجب امريء القيس لعدم ختان قيصر ويهجوه لذلك.

وقد عدّ آخرون هذين البيتين من المنحول ايضا وهما من زيادات ملحق الطوسي (١). ونحن لانشك بشخوص امريء القيس إلى بلاد الروم. ويبدو انه مرض في طريقه إلى القسطنطينية ويظهر من خلال شعره انه أصيب بالجدري حيث يقول (٢):

لمن طلل دائر آيه ... تقادم في سالف الاحرس
وتنكره العين من حادث ... ويعرفه شغف الأنفس
فاما تريني وبي عرّة ... كأني نكيب من النقرس
وصيرني القرح في جبة ... تخال لبيسا ولم تلبس
ترى أثر القرح في جلده ... كنقش الخواتم في الجرجس

وقوله:

ألما على الربع القديم بعسعا ... كأني أنادي أو أكلم أخرسا (٣)
فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا ... وجدت مقيلا عندهم ومعرسا
فلا تنكروني إنني أنا ذاكم ... ليالي حلّ الحيّ غولا فألعسا
تأوبني دائي القديم فغلسا ... أحاذر ان يرتد دائي فأنكسا
فاما تريني لاأغمض ساعة ... من الليل الا ان أكب فأنعسا
وماخلت تبريح الحياة كما أرى ... تضيق ذراعي ان أقوم فألبسا
فلّو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة ... فيالك من نعمى تحولن أبؤسا

ويبدو ان القصيدة قد انتهت عند هذا الحد المنطقي وإلى نهاية مايريد الشاعر قوله. وان البيتين الأخيرين منحولان فهما لايمتان بصلة إليها لامن الناحية

---

(١) الديوان ص ٢٨٠

(٢،٣) شرح الديوان ص ١٠٢، ٩٧ - ٩٩

اللفظية ولامن الناحية المعنوية فالبيت الأول يقحم (الطماح) اقحاما غير مبرر والبيت الثاني حكمي من تلك الحكميات المتأثرة بالتجارب الحياتية وبآراء الأحناف والتي استمرت تقال وتورد في القصائد في العصر الاسلامي.

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا
الا إنّ بعد اليوم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا

واشتد المرض على امرىء القيس وهو بالقرب من أنقرة في طريقه إلى قيصر

الا أبلغ بني حجر بن عمرو وأبلغ ذلك الحيَّ الجديدا(١)
بأني قد هلكت بأرض قوم بعيدا عن دياركم بعيدا
ولو أني هلكت بأرض قومي لقلت الموت حق لا خلودا
أعالج ملك قيصر كل يوم وأجدر بالمنية أن تقودا
بأرض الروم لانسب قريب ولا شاف فيسند أو يعودا
ولو صادفتهن على أسيس وحاقة إذ وردن بنا ورودا
على قلص تظل مقلدات ازمتهن ما يعدقن عودا

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له عسيب .فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال :

اجارتنا إن المزار قريب واني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب(٢)
فان تصلينا فالقرابة بيننا وان تصدمينا فالقريب غريب
أجارتنا مافات ليس يؤوب وما هو آت في الزمان قريب
وليس غريباً من تنادت دياره ولكن من وارى التراب غريب(٣)

ونحن نرى أن الابيات الثلاثة الأخيرة منتحلة لانها لاتتفق مع طبيعةشعر امرىء القيس وفيها روح اسلامية .

---

(١) م. س ، ٦٢ - ٦٣
(٢) الاغاني حـ٩ ١٠٠
(٣) شرح الديوان ٥٦

وقال عند احتضاره : رب طعنة متعنجرة وجفنــة متــحيّرة
وقصيدة محبّرة تبقــى عذاباً نقــرة (١)

ومما يؤكد رأينا في عدم وصول امريء القيس إلى قيصر انه لم يذكرلنا شيئاً عن مقابلته لقيصر فيما حفظ من شعره ووصل الينا. وان رواية لقائه مع قيصر وما تبعها من ظهور الطماح والحلة المسمومة رواها ابن الكلبي وهو مشكوك في رواياته .كما أن الافتعال واضح فيها . فلا يمكن أن يثق قيصر بامـريء القيس كـل تلك الثقة ثم يورده مـورد التهلكة بالحـلـة المسمومة لمجرد وشاية من شخص يظهر فجأة في قصر قيصر من دون مقدمات ويثق قيصر بوشايته من دون ثقة بالشخص نفسه أو معرفة سابقة به. وهذا التلفيق هو الذي دفع طه حسين إلى الأعتقاد بأن حياة امريء القيس انما هي تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك وأخفق في مسعاه (٢). وهذا ما دفع البعض إلى الربط بين حياة امريء القيس واسطورة أوديب «وتأتي نهاية امريء القيس مطابقة لنموذج ـ راجلان ـ وهو موته على قمة جبل عسيب بعد عودته من قيصر الروم» (٣) .

ولم يذكر المؤرخون البيزنطيون شيئاً عن امريء القيس ومقابلته لقيصر وما رواه لويس شيخو عن نونوز وبركوب وغيرهما (٤) . فيه اضطراب وتناقض «وقد ورد عند بروكوبيوس اسم شخص يدعى قيسا اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن عام ٥٢٤م. ويقال ان القيصر طلب منه ان يقود الجيوش ضدّ الفرس. وذكر نونوسوس ان جوستنيان كلفّه بالسفارة لديه. ومن ثم ظن كوزان دي برسفال ان قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية، واكبر الظن ان هذا مجرد تشابه في الأسماء...

---

(١) الديوان ص ٣٤٩
(٢) في الشعر الجاهلي ١٣٣ - ١٣٧
(٣) الشعر والمجتمع ١٠٧ - ١٠٨
(٤) شعراء النصرانية ص ٣٥

لندل على أن اخبار امريء القيس اختلطت في ذاكرة العرب باخبار امريء القيس اللخمي،وكنا ندفع هذه القصة الطويلة التي نسجت حول مقتله»(١).

وقد ولد امرؤ القيس في أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس بعد الميلاد. وتوفي بين سنتي ٥٣٩، ٥٦٥م (٢) .

ويعلل البهبيتي وصول امريء القيس إلى قيصر بقوله :«قصة الطماح، ودسه لامريء القيس لدى قيصر من القصص الشعبي ما في ذلك شك ولكن التاريخ في القصة هو أن غسطينوس كان يحالف آباء امريء القيس، ويعتمد على سلطانهم في قلب الجزيرة. والتاريخ ايضا انه أمده بجيش فصل به، ولكن الجيش لم يصل بلاد العرب ولا وصل قائده، لأن قائده مات بقروح كست جسده نسبتها القصة إلى حلة قيصر الموشية المذهبة المسمومة، فما علة ذلك؟ في سنة ٥٢٥م أي في العام الثاني لغزو الأحباش الثاني لليمن، أو في العام نفسه أصابت الامبراطورية الرومانية الشرقية زلازل مروعة ، خربت الرها، وبمباي بوليس، وكورينتا، وديراخيوم ، وذهبت من جرائها انطاكية طعمة للنار والماء جميعا فلم يبق منها حجر على حجر ... أفلا يرجح أن يكون جيش الروم قد ردته هذه الزلازل التي أصابت الأنضول حيث مات امرؤ القيس ودفن؟ ولم لا يرجح أن قروحه تلك كانت أثراً من حروق اصابته في تلك الزلازل عينها؟ وقد يكون هذا هو الحق . ولقد أقام له الروم بعد ذلك تمثالاً في أنقرة ، رآه الخليفة المأمون بعيني رأسه في سفره اليها» (٣).

ونحن على الرغم من احترامنا للتعليل والاستنتاج لا نتفق معه، وذلك لأن الكتب البيزنطية لم تذكر امرأ القيس بل قيسا (٤). واما ان يكون المأمون قد رأى تمثال امريء القيس عند قبره بالقرب من انقرة، فمن المحتمل ان يكون قيسا او اي امير آخر من الامراء العرب استعانوا بالقيصر لنجدتهم ومات

(١) العصر الجاهلي، ٢٤١ - ٢٤٢

(٢) تاريخ الادب الجاهلي ، ج٢ ٥٧

(٣) تاريخ الشعر العربي ص ٣٤

(٤) شعراء النصرانية قبل الاسلام ، ص ٣٥

في طريق العودة قبل وصوله إلى بلاد العرب . وهذه الرواية تؤكدلنا اختلاط الروايات ، وانتحال رواية لقاء امرىء القيس بقيصر ، وانتحال شخصية الامير العربي لامرىء القيس ، هذا بالاضافة إلى ان الخليفة المأمون .لا يعرف امرأ القيس شخصيا ليتمكن من تشخيص التمثال. هل هو لامرىء القيس أم لأمير عربي يدعى قيسا، والذي ورد ذكره في الكتب البيزنطية .
كما ان امرأ القيس لم يذكر شيئا عن لقائه لقيصر في شعره، وهو الشاعر الحساس الذي يكاد ان ينفعل بكل حدث يمر بحياته وينقله شعراً بديعا، فكيف ينسى هذا اللقاء المهم بقيصر؟ ! وكيف لم تؤثر فيه مدينة القسطنطينية بحضارتها المتقدمة وجمالها الخلاب ؟ ! .

المصادر والمراجع

١ – الاغاني، ابو الفرج الاصفهاني علي بن الحسين ، م دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٧ .

٢ – الاغاني ، ابو الفرج الاصبهاني علي بن الحسين ، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٧٦.

٣ – امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة ، ايليا حاوى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١.

٤ – امير الشعراء في العصر القديم، محمد صالح سمك، م. النهضة ، القاهرة، بلا .

٥ – تاريخ الادب الجاهلي، علي الجندي، م. الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٩.

٦ – تاريخ الشعر العربي حتى اواخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي ، القاهرة، بلا.

٧ – ديوان امرىء القيس ، ت. ح. محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩.

٨ – شرح ديوان امرىء القيس، حسن السندوبي ، القاهرة، م. الاستقامة بلا.

٩ – شرح القصائد العشر، التبريزي ابو زكريا علي بن محمد بن الحسن ابن موسى الشيباني.م. محمد صبيح واولاده. بلا.

١٠ – شرح السبع الطوال الجاهليات، ابن الانباري ، ت.ح عبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة، ١٩٦٣.

١١ – شعراء النصرانية قبل الاسلام، لويس شيخو، م. الكاثوليكية، بيروت، بلا

١٢ ــ الشعر والشعراء،ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم،دار الثقافة، بيروت، بلا.

١٣ ــ الشعر والمجتمع، عادل البياتي ، الاسطورة والرمز في الادب الجاهلي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤.

١٤ ــ العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٢.

١٥ ــ في الشعر الجاهلي،طه حسين،م. دار الكتب المصرية، القاهرة،١٩٦٢،

١٦ ــ مجلة آداب الرافدين، عمر الطالب ، صراع الحياة والموت في شعر امرىء القيس، العدد٩ ، مجلة كلية الآداب، ١٩٧٨.

١٧ ــ مجلة المجمع العلمي العراقي، عمر الطالب ، رحلة في معلقة امرىء القيس ، المجلد ٢٩، بغداد، ١٩٧٨

١٨ ــ محاضرات في تاريخ العرب، صالح احمد العلي ، مؤسسة دار الكتب ، الموصل ، ١٩٧٩.

١٩ ــ المزهر، السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة، بلا .

شعر الحرب في عصر بني أيوب

الدكتور ناظم رشيد شيخو
كلية الآداب – جامعة الموصل

تمهيد:

تناول باحثون عديدون شعر الحرب عند العرب، (١) دراسة وتحليلاً وقال احدهم، بعد أن درس الشعر الحربي من أول عصر بني أمية الى منتصف القرن الرابع للهجرة: «إني أرجو أن أوفق الى التوفر على دراسة أدب الحماسة العربية، والكتابة عن عصر صلاح الدين الايوبي والصليبيين، ونفسي تجيش بهذا الامل، كما أتمنى من علماء الأدب أن يعنون بدراسة هذا الوجه الحربي في شعر الحرب ، إذ كان ألصق الأشعار بهم، وأنطقها بحقيقتهم في كل أعصرهم، في ساح بداواتهم، وميادين حضاراتهم، لعل يوماً أغر محجلاً يكون فيه للعربية ملحمة جديدة تجمع بين مجدها التالد وعزها الطارف».

قامت معارك عنيفة، واشتباكات دامية، بين المسلمين والصليبيين على أرض الشام ومصر منذ سنة ٤٩٢ للهجرة، وهي السنة التي نزح فيها الغرب الى السواحل الشامية، ومن ثم جاس خلال الديار، وقتل الآلاف ، واحتل المدن الرئيسة، وبخاصة القدس. وكان للزنكيين دور مشرّف وبارز في صدهم بقوة، ومجابهتهم بصلابة ، ومحاربتهم بشتى الوسائل. ووقف الشعراء الغيارى الى جانب قوادهم الأشاوس وفرسانهم الميامين، وأشادوا بيطولاتهم، وتغنوا بانتصاراتهم، وتباهوا بضرباتهم، أمثال ابن الدهان الموصلي، وابن منير الطرابلسي، ومحمد بن نصر القيسراني ، وعماد الدين

---

(١) ينظر «شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام» للدكتور النعمان القاضي، و «شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة» للدكتور زكي المحاسني، و «معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية» رسالة ماجستير طادي نهر، مطبوعة على آلة الرونيو .

(٢) شعر الحرب في أدب العرب ص ٣٢٩ .

الأصفهاني الذي لازم نور الدين محمود بن زنكي، ونظم له رباعيات، بطلب منه، وعلى لسانه، لتنشد أمام الجند لالهاب المشاعر، واثارة العواطف، والاستنفار الى الجهاد، وهي ظاهرة جديدة في الشعر العربي، منها قوله: (١)

أقسمت بمنوى الجهاد مالي أرب   والراحة في سواه عندي تعب
إلاّ بالجد لاينال الطلب   والعيش بلا جدّ جهاد لعب

وقوله:

للغزو نشاطي واليه طربي   مالي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهادِ نجحُ الطلب   والراحة مستودعةٌ في التعب

ولما تسلم صلاح الدين الأيوبي مقاليد الحكم في مصر سنة ٥٦٧هـ ، والشام سنة ٥٧٠هـ، وأقام دولة ثابتة الأركان، رصينة البنيان، برزت خطة الكفاح والجهاد، واتخذت طابع العناد والتصميم على استرجاع الأرض السليبة وطرد الغزاة منها مهما كان الثمن غالياً، سواء كان هذا الثمن بالأرواح أم بالأموال، وتحول المسلمون من الدفاع الى الهجوم.

عُني صلاح الدين بكتب الجهاد عناية فائقة. يقول قاضيه بهاء الدين بن شداد: (٢) وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه، يحثه على الجهاد، أو يذكر شيئا من أخبار الجهاد، ولقد ألفت له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً، جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه» . كما عُني رجال أسرته بهذه الكتب، فألف محمود بن محمد بن صفي الدين كتاب «الجهاد» للملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل (٣) . وألف أبو العوالي مرتفع بن جزيل كتاب «سبل الرشاد في فضل الجهاد» للملك الصالح نجم الدين أيوب (٤) .

---

(١) الروضتين ١ : ٢٠٧
(٢) النوادر السلطانية ص ٢١ .
(٣) كشف الظنون ص ٩٧٨ .
(٤) بغية الوعاة ٢ : ٢٨ .

وكان صلاح الدين يحفظ حماسة أبي تمام، (١) ويحب سماع القصائد الحماسية الجيدة حينما يركن الى الراحة بعد المعارك، وكثيراً ماكان يستدعي أحد الأدباء، ويطلب منه القراءة في ديوان أحد الشعراء . ويعد ديوان أسامة ابن منقذ الشاعر الشامي المشهور من آثر الدواوين الى نفسه، قال العماد الأصفهاني(٢) «كنت ليلة عند صلاح الدين، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف». وكان لحفيده يوسف بن محمد صاحب حلب عناية بالدواوين الشعرية وكتب الحماسة ، وقد ألف له صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري كتاب «الحماسة البصرية». (٣)
كما قرب صلاح الدين الشعراء، واستمع اليهم في حلّه وترحاله، وسلمه وحربه، واستأنس بأقوالهم، وشملهم ببره واحسانه، وأظلهم بعطفه وحنانه. قال ابن العديم: (٤) «ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة ابن حمدان ماأجتمع ببابه من الشعراء رحمه الله وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء». وقد تضافر حسبما أحصينا أكثر من ستين شاعراً من الشام ومصر والعراق والمغرب على رسم بطولاته ، والإشادة بمواقفه العظيمة ووقائعه المظفرة في حرب الصليبيين وجلائهم عن المواقع الي احتلوها ، وطردهم من المدن الي استباحوها، ولاسيما القدس ، ونعته أحدهم لأعماله العظيمة بـ« ربّ الملاحم»:

ربُّ الملاحمِ، لم يؤرخْ مثلَها العلماءُ قِدماً في قديمِ الأعصُرِ
مَنْ رامَ من كل الملوكِ مرامَهُ تخفقْ مساعيهِ ويكبُ ويَعثُرِ (٥)

---

(١) الروضتين ٢ : ٢١٨ .
(٢) الروضتين ١ : ٢٤٧ .
(٣) تنظر مقدمة الحماسة البصرية ص ٢ .
(٤) زبدة الحلب في تاريخ حلب ٣ : ١٢٥ .
(٥) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤١ .

وجرى الشعر على ألسنة أغلب ملوك الأُسرة الأيوبية (١)، ووصلت الينا دواوين فريق منهم، ونال الشعر الحماسي لديهم نصيباً كبيراً من الرعاية والعناية، ينشدونه في مجالسهم، ويترنمون به في سوح المعارك، وساعات النزال. من ذلك ماروي عن عز الدين بن نور الدولة بن أخي صلاح الدين، وأحد قواده الشجعان حينما قاد جيشاً في معركة دارت قرب بانياس سنة ٥٧٠هـ، وانتصر فيها، إذ ذكر الشعر بقوله: (٢) «ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما.

فإن تكن الدولات قسماً فإنّهـا لمنْ يردِ الموتَ الزؤامَ تؤولُ
ومنْ هوّن الدنيا على النفس ساعـة وللبيضِ في هام الكُماةِ صليـلُ

فهان الموت في عيني، فألقيت نفسي فيه، وكان ذلك سبب الظفر».

إن الحروب الصليبية أذكت قرائح الشعراء، وحركت مكامن انفعالاتهم ودفعتهم الى نظم قصائد حماسية تعكس صدى بطولات الجيش وقواده في مقاومة الأعداء، وتبديد شملهم، و تحطيم معاقلهم. وقد غلب هذا اللون من الشعر على الألوان الأخرى في هذه الحقبة. ويكاد يكون الجزء الأعظم من دواوين بعض الشعراء يتناول أدب القتال والحض عليه، ووصف الجيوش وآلات الحرب، وابراز فضائل الشجاعة والبطولة، كما هو الحال في ديوان فتيان الشاغوري، وديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري. وخصص أبو الفضل عبد المنعم بن عمر الجلياني الأندلسي ديواناً كاملا لهذا الغرض سمّاه «المبشرات والقلسيات»، وصفه ابن أبي أصيبعة فقال (٣): «إنه نظم وتدبيج، وكلام مطلق، يشتمل على وصف الحروب والفتوح على يد صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس».

---

(١) ينظر «الأدب عند بني أيوب». مجلة المورد، المجلد الخامس، العدد الثالث ١٩٧٦، ص٣٥.
(٢) الكامل لابن الأثير ١١ : ٤٥٦، سنا البرق الشامي ١ : ٢٣٠ .
(٣) عيون الأنباء ٢ : ٢٦٥ .

شعر الاستنهاض والاستنجاد :

لقد صور الشعراء في لوحات خالدة الحروب التي دارت رحاها على أرض الشام ومصر ، ونعتوا مشاعر الناس وأحاسيسهم تجاه تلك الحروب واول مايلقانا من هذا الشعر ما يختص بالاستنهاض والتحريض لاقتلاع جذور البغي والعدوان، وازالة الاحتلال البغيض الذي جثم على صدور الناس الآمنين، وثلم عزتهم، وجرح كرامتهم، وأباح ماملكت أيديهم.

ظهر الإسلام في قصائد الشعراء، مستصرخاً الناس الى الجلاد، منادياً بملء صوته: «حي على الحروب»؛ لأنه أصبح يواجه هجمات من فئات باغية، وضربات من أناس ظالمين، لارحمة في قلوبهم ولا شفقة، همّهم طمس معالمه، وتشويه آثاره، واطفاء أنواره. فها هو ذا يعدو الى صلاح الدين يستغيثه ويستنجده، ويقول على لسان شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن الفراش (١) :

ترى الإسلام وافاك يعدو الى لُقياك مشقوقَ الجيوبِ
وقد نادى مؤذنهم، فنادى ليوثُ الغاب: حي على الحروبِ

ولا يقر للإسلام قرار، ولا يهدأ له بال، مادام خصمه رابضاً أمامه يتحين الفرص للنيل منه، والاجهاز عليه. فهو يستثير جنوده، ويدعو حاملي ألويته أن يقبلوا عليه، ويلقوه صريعاً أو أسيراً كما يقول العماد الأصفهاني مخاطباً صلاح الدين (٢) :

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا لكم من دماءِ الغادرينَ بها غدرا
فصبُّوا على الإفرنج سوطَ عذابها بأن يقسموا مابينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيتَ المقدسَ واعزموا على فتحه غازينَ وافترعوا البكرا

---

(١) الخريدة، قسم الشام ١ : ٢٠٣ .

(٢) الروضتين ١ : ١٧٩ .

تديمون بالمعروفِ طيبَ ذكركم وما الملكُ إلاَّ أن تديموا لكم ذكرا

ولم يكتف الشاعر بتوجيه الضربة القاصمة للإفرنج ، وإلهاب ظهورهم بسياط العذاب، وانما طلب من صلاح الدين أن ينتزع القدس من أيديهم، ويمتلكها، فهي لاتزال بكراً لم تستسلم للغرباء، ولم تركع للبعداء، ليحفظ ماء وجهها، ويصون كرامتها، ويدخر لنفسه ذكراً طيباً واحساناً دائماً.

وقد أحس الشعراء أن الاحتلال لاتزول آثاره من الشام مهما سقط للصليبيين من قلاع وحصون، ماداموا قابضين على القدس بيد من حديد، ومهيمنين على المسجد الأقصى بمخالب كاسره، لذا نراهم ينوهون بقيمتها، ويُعظّمون من مكانتها، ويرغبون صلاح الدين في الأقبال عليها وامتلاكها، وشبهوها بفتاة حسناء، غالية الثمن، وعزيزة المطلب، ولا تليق لأحد غيره، وتتكررُ هذه الصورة عند أكثر من شاعر، وكأن القرائح قد نضبت من إتيان صور أخرى فيها خلق وابداع ، فهذا الملك المظفر تقي الدين عمر أحد الأبطال المشهورين في مقارعة الصليبيين يقول (١) :

إيهِ صلاح الدين، خُذها غادةً بكراً، ملوكُ الأرضِ من رقبائها
كم خاطبٍ لجمالها ، قد ردَّهُ عن نيلها أنْ ليس من أكفائهـــا

ونلقى لوحة اخرى عند سعادة بن عبد الله الأعمى أكثر جدة وأعمق أثراً، فهو يرى ان المعالي وان كانت طيبة الجنى، حلوة الثمر لاتنال الآ بجدارة ومقدرة،ولايرقى المرء اليها بيسر وسهولة،وإنما بالمقارعة والمجالدة (٢)

ولا تخف، فالعوالي شوكها ثَمَرٌ حلو الجنى، والمعالي صابُها شَهَدُ
واخطبْ بحدِّ المواضي في كل شامخةٍ في أنفها شمم في جيدها غَيَدُ

---

(١) الخريدة، بداية شعراء الشام ص ٨٦ .

(٢) الخريدة، قسم الشام ١ : ٤١٤ .

فمن يكن بالمواضي خاطباً أبـــداً   زُفّتْ اليه بلادٌ كلها خُرُدُ

وأحسب أن احتفال الشعراء بصورة الفتاة الغيداء اللفّاء من قبيل إغراء الممدوح الى فتحها وتطهيرها من دنس الإفرنج.

ولما كان استرداد القدس من أعزّ الأماني ، وأغلى الرغبات ، لذلك لم تفتر ألسنة الشعراء عن ذكرها، وتوجيه الخطاب لصلاح الدين في استنقاذها واسقاط الامارات الصليبية التي أرهقت الناس بعسفها وظلمها ، ودعوة الرجال الى الجهاد والكفاح والالتحاق بصفوف المقاتلين الذين نذروا أرواحهم للدفاع عن الدين والأرض والشرف والكرامة ، ونصبوا أنفسهم لنصرة الحق والعدل ، ونخص بالذكر منهم أبا الفضل الجلياني الذي آلمه تنعم الأفرنج في الأراضي التي احتكروها لمآربهم، وخشي على المدن المقدسة من الخراب والدمار، ولا سيما القدس، كما يقول في الأبيات الآتية من قصيدة طويلة (١) :

فيا ملكاً ، لم يبقَ للدين غيرُهُ   وهتْ عمدُ الإسلام ، فاشددْ لها دعما
فذا المسجدُ الأقصى ،وهمتّك العلا   وعزمتك القصوى، ورميتك الصما
فما هو إلاّ أن تهمَّ ، وقد أتتْ   فتوح،.كما فاضَ الخضمُ الذي طما
وإن أنتَ لم تَرد الفرنجَ بوقعةٍ   فمن ذا الذي يقوى لبنيانها هدمـا؟
وما كلُّ حينٍ تمكنُ المرءَ فرصةٌ   ولا كل حال أمكنتْ تقتضي غُنْما

وكان الشاعر يستغل كلّ فرصة أو مناسبة يلتقي فيها بصلاح الدين لينشده قصيدة جديدة في ملحه، ويعرّج فيها على زهرة البلاد، القدس العزيزة، التي تندب حظها ، وتستصرخ الكماة الى ملحمة يثأرون فيها للدماء الزكية التي سكبت على أرضها، وقد بلغ القمة في الملحة التي أنشدها بين يديه قبل عام واحد من فتحها وتحريرها، منها البيتان الآتيان (٢) :

---

(١) الروضتين ٢ : ١١٦ .

(٢) الروضتين ٢ : ١١٦ .

اللهُ أكبرُ، أرضُ القدس قد صفرت   من آل أصفر إذ حَينٌ به حانوا
ولابن أيوبَ في الإفرنج ملحمةٌ   دلَّت عليها أساطيرٌ وحُسبانُ

لقد أصبحت الآمال معقودة بصلاح الدين دون سواه من حكام المسلمين في رفع الحيف عن المستضعفين، ودفع الأذى عنهم بعد تسعين عاماً، وقد أشار الى ذلك الحسن بن علي الجويني في قصيدة له، فقال: (١)

تسعونَ عاماً، بلادُ اللهِ تصرخُ وال   إسلامُ أنصارُه صُمٌّ وعميانُ
فالآن لبىَّ صلاحُ الدين دعوتهم   بأمرِ منْ هو للمعوانِ معوانُ

وصدق حدس الشعراء في الفارس الهمام صلاح الدين، وتحققت أمنياتهم ولم تذهب دعواتهم في الاستنهاض والحض على الجهاد سدًى. فهو يلتقي بالصليبيين في واقعة «حطين»، ويُمزق شملهم، ويُحطّم جمعهم، ويصرع فرسانهم، ويأسر قوادهم، ويغنم أسلحتهم وأموالهم وتتوالى عليه القصائد، منها قصيدة أبي الفضل الجلياني المعروفة بـ «الفتحية الناصرية»، يقول فيها: (٢)

ياوقعةَ التل ماأبقيت من عجبٍ   جحافلٌ لم يفت من جمعها بشرُ (٣)
حطّوا بحطين ملكاً كافياً عجباً   في ساعة زال ذاك الملك والقدرُ
أهوى اليهمْ صلاحُ الدين مفترساً   وهو الغضنفرُ أعدى ظفرهُ الظفرُ
أملى عليهمْ، فصاروا وسط كفته   كسرب طير حواها القانص الذكرُ

وتوجه القائد المظفر الى بيت المقدس، وكان فيها مايزيد على ستين ألف مقاتل، واشتبك معهم في قتال ضار، ولما وجدوا أنفسهم غير قادرين على الصمود، وأنهم خاسرون لامحالة، طلبوا الصلح والأمان، فأبى «إلاّ» قتالهم وتدميرهم، واستئصالهم، وقال: لا آخذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين

---

(١) الروضتين ٢ : ١١٥ .
(٢) الروضتين ٢ : ١١٦ .
(٣) التل : تل حطين

منذ إحدى وتسعين سنة. (١) وتحقَّق الحلم الأكبر، والأمل الأعظم : وعادت المدينة الى اصحابها، وفتحت أبوابها ، واستقبلت القادمين اليها بأهازيج الانتصار.

ولم يدع الشعراء صلاح الدين يخلد الى الراحة ، ويعيد سيفه الى غمده وينأى عن صليل السيوف، وقراع القنا، وصهيل الخيل، ولا سيما بعدما علموا ان الصليبيين دقّوا ركائز خيامهم على شواطىء البحر الأبيض المتوسط بعد خروجهم من القدس، وأخذوا يتسلّمون الامدادات من الغرب من رجال وسلاح ومؤونة، ويعدّون العدة، ويسنون الحراب، لاستعادة مافقدوه فاستنهضوا صلاح الدين من جديد، لمطاردتهم وتبديد أحلامهم، ودعا بعضهم الى عبور البحر، وغزو ديارهم، واحتلال بلادهم. قال أبو الفضل الجلياني من قصيدة طويلة: (٢)

تغزو أساطيلنا منها صقليـــة فتذعرُ الرومُ والصقلابُ والخزرُ
أبو المظفر ينويها، فخذ سفنـــاً من باب عكا الى طرطوس تنتشـرُ
يسبي فرنجة من أقطارهــا، ولــه مع المجوس حروب قدحها سعـرُ
براية تخرق الأرض الكبيرة فـي جمع تقول له الأجسام: لاوزرُ

فالشاعر لم يكتف بطرد الصليبيين من الشام، وقذفهم في البحر، وانما أراد دك معاقلهم في أوطانهم، واقامة دولة كبيرة ترفرف عليها راية المسلمين خفاقة، نكاية بهم، و تأنيباً لهم ، لكيلا تداعب العودة أحلامهم .

ثم اختطفت يد المنون صلاح الدين ، وتقاسم ملوك بني أيوب مصر والشام واليمن، وبقي الصليبيون قابعين في السواحل، يتحينون الفرصة للانقضاض على ما أخذ منهم عنوة. وأدرك الشعراء مايحيكون من شباك، فأقبلوا على الملوك حاملين عصارة قرائحهم في الاستثارة والاستنهاض، مثل بهاء الدين اسعد بن يحيى السنجاري في قوله مخاطباً الملك المنصور محمد

(١) الروضتين ٢ : ٩٥ .
(٢) الروضتين ٢ : ١١٦ .

بن تقي الدين عمر صاحب حماة حينما كان ملازماً تخوم العدو بالقرب من الساحل الشامي: (١)

يا أيها الملك المنصور نصحُ فتىً	لم يلْوِه عن وفاءٍ كثرةُ العذَلِ
اعزم، ولا تترك الدنيا بلا ملك	وجد، فالملكُ محتاجٌ الى رَجُلِ
وابرز الى الموت يوم الروع مُدرعاً	قلباً، اذا زالت الأفلاك لم يزُلِ
وهِمّ في طلبِ العلياءِ مرتقياً	وارسل الجيش أبدالاً من الرُسُلِ
واهصُرْ عِداك كهصرِ الليثِ طعمَته	وصُلْ اذا الليثُ في الهيجاء لم يَصُلِ
صفّدهم عاجلاً، واجعل حصونَهم	سجونهم فهم في غاية الفشل

لقد شد من أزر الملك المنصور، وقوّى عزيمته، ودفعه الى خوض معركة حامية مع الخصم اللدود، والوقوف كالليث في مواجهته، والاقبال عليه ببسالة. واقتحم الملك الحرب، ونال منهم نيلا مؤثراً، ولكنه لم يكن الانتصار الحاسم عليهم.

ومن شعر الاستنهاض الجيد في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ أُمتنا المجيدة قصيدة الملك المعظم عيسى بن أبي بكر التي أرسلها من دمشق الى أبيه في مصر يستحثه في العودة لمحاربة الأعداء الذين ينوون شن غارة شعواء على المسلمين، وأولها: (٢)

أرْوِ رماحكَ من دماءِ عداكا	وانهبْ بخيلكَ مَنْ أطاع سواكا
واركب خيولا كالسعالي شُزَّباً	واضرب بسيفك من يشق عصاكا
وأجلبْ من الأبطال كل سميدعٍ	يفري بعزمكَ كل من يَشْناكا
وسرِ الغداةُ الى العُداةِ مبادراً	واسقِ المنيّة سيفكَ السفاكا
وانكحْ رماحكَ للثغور فإنّها	مشتاقةٌ أن تُبْتَنَى بعُلاكا

(١) مفرج الكروب ٣ : ١٤٤ .

(٢) بدائع البدائه ص ٣٢١ . نفح الطيب ٣ : ٢٥١

فالعز في نَصْبِ الخيام على العدا ... تُردي الطغاةَ وتدفعُ المسلاكا
والنصرُ في الأعداءِ يومَ كريهةٍ ... أحلى من الكأسِ الذي روّاكا

إن هذه الابيات من الشعر الحماسي الذي عرفه العرب، والشعراء الفرسان منهم خاصة، ففيها الدعوة الى المجالدة والنزال، ومقارعة الخصم حتى يركع معفراً بالتراب، ومسربلاً بالدم، ويجر مَنْ بقي أذيال الخيبة والخسران والذل والهوان .

وبادر الصليبيون الى الهجوم ، و ضرب المدن الآمنة ، ومحاولة احتلالها كرة اخرى. ولكن خاب سعيهم، ولم يجنوا غير الهزيمة الماحقة. وتكاد تكون دمياط أكثر المدن الهاماً للشعراء. يقول المقريزي في حوادث سنة ٦١٥هـ: (١) والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر ، وأحدقوا بها وحاصروها، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات أن تصل اليهم، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً، وبنوا عليه سوراً... وكان في دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكناني، فكتب هذه الابيات، وألقاها الى الملك الكامل في سهم نشاب، وهي:

يامالكي ، دمياط ثغر هُدِّمَتْ ... شرفاته ، كادتْ تجتُّ أُصولُه
يقريكَ من أزكى السلام تحيةً ... كالمسك، طابَ دقيقُه ، وجليلُه
ويقولُ عن بعدٍ، وإنكَ سامعٌ ... حتى كأنكَ جارهُ ونزيلُه
ياأيُّها الملك الذي مإن يُسرى ... بينَ الملوكِ شبيههُ وعديلُه
هذا كتابٌ موضحٌ عن حالتي ... ماليس يمكنني لديك أقولُه
أشكو اليكَ عدو سوءٍ أحدقتْ ... بجميعهِ فرسانُه وخيولُه
فالبرُّ قد مُنعت إليه طَريقُه ... والبحرُ عز لنصرهِ أُسطولُه
فخضوعُه بادٍ على أبراجهِ ... وحنينه وبكاؤه وعويلُه

---

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ : ١٩٨ .

والقصيدة طويلة ، اخترنا منها هذه الأبيات ، وهي تشرح حال المدينة المحاصرة ، وما يعاني أهلها من ذعر وهلع ، وبؤس وشقاء . وكانت القصيدة على خفة أبياتها ، وسهولة الفاظها ، وبساطة تراكيبها — ذات تأثير كبير، دفعت الملك الكامل إلى إعلان الجهاد العام . وكتب إلى أخيه الملك الأشرف موسى صاحب حرّان وديار بكر آنذاك يستنجده ويستحثه للمجيء إلى مصر بجيش لجب ليكون عضداً له في فك الحصار عن دمياط ، وعوناً في إقصاء الغزاة المعتدين قبل أن يستفحل أمرهم ، وتتركز أقدامهم على أرض النيل(١) :

يامسعفي ، إنْ كنتَ حقاً مسعفي   فانهضْ بغيرِ تلبثٍ وتوقفِ
واحثُثْ قَلُوصك مُرقلاً أو موجفاً   بتجشّم في سيرها وتعسّف
واطوِ المنازلَ ما استطعتَ، ولاتُنخْ   الاّ على بابِ المليكِ الأشرفِ
واقرِ السلامَ عليه من عبدٍ له   متوقعٍ لقدومهِ متشوّفِ
واذا وصلتَ إلى حماهُ فقلْ لهُ   عنّي بحسنِ توسلٍ وتلطفِ
إنْ تأتِ عبدكَ عن قليلٍ تلقَهُ   ما بينَ كلِّ مهنّدٍ ومثقّفِ
أو تبطِ عن انجاده فلقاؤه   بكَ في القيامة في عراصِ الموقفِ

لقد أفصحت هذه الأبيات عن الدعوة العاجلة التي لارخصة فيها ولا توانٍ . فلا مناص من النهوض بغير تلبّث وتوقّف ، وحث القلوص حثاً ، سواء أكان إرقالاً أم وجيفاً ، وطي المنازل جَهْدَ الوسع والطاقة ، خشية فوات الأوان .

كما أفصحت عن الشعور المضطرم في الجوانح ، شعور تمليه الغيرة على الدين والحمى ، ويسوقه الخوف الشديد إنْ ملك الأعداءُ زمام المدينة ، وصبوا عليها جام حقدهم ، ومرارة اخفاقهم على يد صلاح الدين وحملاته المتتابعة ، فهم — ولاريب — سيجرون الدماء أنهاراً ، والعباد أشلاءً ، والزرع والضرع تدميراً واحراقاً .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ١٠٧، السلوك ١ : ١٩٧ ، خطط المقريزي ٢ : ٣٧٦ .

وما خاب ظنه بأخيه ، إذ خفَّ اليه على الصعب والذلول ، وأدركه وهو بين اليأس والرجاء ، حتى دحرَ القومُ الأعداءَ ، ومزقوهم شرَّ ممزق .

كانت القصائد التي نظمت في نجدة دمياط كثيرة ، ولعلَّ قصيدة ابن النبيه المصري التي أنشدها بين يدي الملك الأشرف موسى حينما وصل إلى مصر من أجودها ، ومطلعها : (١)

للذَّة العيشِ والأفراحِ أوقاتُ فانشرْ لواءً له بالنصرِ عاداتُ

ومنها :

دمياطُ طُورٌ، ونارُ الحربِ مُوقَدَةٌ وأنت موسى،وهذا اليومُ ميقاتُ
أنت الصباحُ، فمزِّقْ ليل كفرهمُ واصبرْ ورابط فللأعمالِ نيّاتُ
ألقِ العصا تتلقّفْ كل ماأفكوا ولاتخفْ ماحبالُ القومِ حيّـاتُ
طأهم بجيشك، لا تحفلْ بكثرتهم فإنّهمْ لبغاثِ الطيرِ أقواتُ

استوحى الشاعر معاني أبياته من قصة النبي موسى – عليه السلام – مع فرعون وسحرته الذين (قالوا ياموسى إما أن تُلقي وإما أنْ نكون نحن الملقين، قال القوا، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم، وأوحينا الى موسى أن القِ عصاك فاذا هي تلقف مايأفكون، فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون) (٢) .

شعر التهاني والبشائر :

إن الشعر الحربي في عصر بني أيوب كثير وفير، تبعاً لكثرة الأحداث وترادفها، وبروز الرجال وتصارعهم، وتحيُّر الناس واضطرابهم، فكان منه شعر الاستنهاض الذي يُعد البداية المتوقعة لكل حدث جلل – وقد ألممنا بطرف منه – وشعر الانتصار، الذي تعارف القوم على تسميته «بشعر التهاني والبشائر»، وهو الذي يزجى الى القواد والأبطال غبَّ كل انتصار مؤزر،

---

(١) ديوان ابن النبيه المصري ص ٣٥٤ .
(٢) سورة الأعراف، الآيات ١١٥ – ١١٨ .

وتعد حصة صلاح الدين فيه من أكبر الحصص، ففي فتح «بيت الأحزان» سنة ٥٧٥هـ مثلاً قال العماد الأصفهاني (١): «وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن»، وذكر أمثلة لعدد من الشعراء، منهم نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي من أهل الحلة في قوله:

وأوردت بيضَ الهندِ ماءَ رقابهم ... وأصدرتها تختال في حُلَلٍ حُمرِ
جلوت به صمصامة الدين بعدما ... علا متنَها من بغيهم صدأ القهر
هي الفتكةُ الغراءُ، لازلت قائماً ... بأمثالها للدين في السرِّ والجهرِ
فأصبح في أقصى خراسان ذكرُها ... وفي كل قلبٍ منه جيش من الذُّعرِ

كانت السيوف والدين - في عرف الشاعر - من أبرز الدواعي الى فتح صلاح الدين «بيت الأحزان». فالسيوف قد أضر بها الظمأ فأصبحت تتحرق الى الري، والدين قد أثقله صدأ البغي والقسر فأصبح يتطلّع الى الجلوة والنقاء.

ولهذا كانت هذه الفتكة الغراء التي طبقت أخبارها أقصى خراسان، وجرى حديثها على كل لسان أمارة الاستجابة الصادقة والفعل الناصع، فاذا السيوف تقع على الشرع تنهل منه وتعب، وتسرف في النهل والعب حتى تصدر عنه ممتلئة رياً. واذا يلقي عن كاهله ماران عليه من الصدأ، ويعود مشرقاً وضاءً.

لقد أمدّت الانتصاراتُ الخالدةُ الشعراءَ بمعين لاينضب من قصائد التهاني، تلك الانتصارات التي زها بها الإسلام، وعمت أنواره مدناً كانت ترزح تحت نير القهر والاستعباد. قال العماد الأصفهاني مهنئاً صلاح الدين بفتح قلعتي حمص وبعلبك (٢):

بفتوح عصرك يفخر الاسلام ... وبنور نصرك تشرف الأيام
أسدى صلاح الدين والدنيا يداً ... بنوالها سوق الرخاء تقام

---

(١) سنا البرق الشامي ١ : ٣٣٧ .
(٢) مفرج الكروب ٢ : ٣٠ .

دم للعلى، حتى يدوم نظامها واسلم ، يعز بنصركَ الاسلام

وحينما دخل صلاح الدين مدينة طبرية، أنشده ابن الساعاتي قصيدة مطلعها(١):

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرَّتْ عيونُ المؤمنينا

تغنى الشاعر في قصيدته بهذا الفتح، وأشاد بالظفر العظيم الذي حقّق للمسلمين أمانيهم ،وأزال شكوكهم ،وطمأن قلوبهم ، وأبهج القدس الجريحة وأسرَّها ما دام هناك مجيب لنداء الجهاد :

قضيت فريضة الاسلام منها وصدقت الأماني والظنونا

تهز معاطف القدس ابتهاجاً وترضى عنك مكة والحجونا

فلو أن الجهاد يطيق نطقاً لنادتك : ادخلوها آمنينا

أعدت بها الليالي ، وهي بيضٌ وقد كانت بها الأيام جونا

وتسابق الشعراء إلى نظم قصائد النصر بعد معركة «حطّين» ،الملحمة الخالدة التي أذهلت الصليبيين ،وارجفت قلوبهم، وأفقدتهم صوابهم، وجعلتهم لايقوون على الوقوف أمام البطل الجريء الذي نازعهم ورد غائلتهمٍ، ودخل البيت المقدّس رافعاً راية النصر ليتفيأ الخلق في ظلالها، ويتنسمَ الجميع عبير الحرية .قال الرشيد بن بدر النابلسي (٢):

هذا الذي كانتِ الآمالُ تنتظرُ فليوفِ للهِ أقوامٌ بما نذروا

بمثلِ ذا الفتحِ، لاوالله ِ،ماحكيتْ في سالفِ الدهر أخبارٌ ولاسيرُ

الآنَ قرّتْ جنوبٌ في مضاجعها ونامَ مَن لم يزلْ حلفاً لهالسّهرُ

يابهجة القدس ، إذ اضحى بهعلمالإ سلام من بعد طيٍّ، وهو منتشرُ

كان المسلمون يائسين من عودة القدس إلى حوزتهم؛ لكثرة مافيها من ذخيرة وعتاد، وقواد وأجناد، فلما فتحها صلاح الدين صعب عليهم

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ : ٣٨٢ .

(٢) الروضتين ٢ : ١١٨، شفاء القلوب ص ١٦٧ .

تصديقه، وعدّوه من المعجزات التي أجراها الله على يده. وقد عبّر الشعراء عن ذلك بقصائد طويلة، منها قصيدة محمد بن أسعد الجواني، نقيب الأشراف بالديار المصرية ،وأولها (١):

أترى مناماً مابعيني أبصرُ؟ القدس يُفتح والفرنجه تكسر!
ومليكهم في القيد مصفودولم يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسر

ذهل الشاعر ، واصابته الدهشة ، ولم يصدق بصره ، أهو في يقظة، أم في منام؟حينما رأى فتح القدس ، واندحار الافرنج ، واسر مليكهم وتقييده بالحديد .

وسلك ابن الساعاتي مسلكا آخر أكثر جدّة وطرفه في افتتاح قصيدته وتبيان مشاعره الوجدانية ،اذ تساءل : هل أصاب العيّ الالسنة للتعبير عن هذا الحدث العظيم الذي طار ذكره في الافاق، واسمع الاذان الصماء (٢)؟

وقد ساغَ فتح القدس في كل منطق وشاع الى ان أسمع الاسل الصما

وتمنى ان لو شهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الفاتح الاول لها ، هذا الفتح ، ثم انتقل فذكر المدينة ، وهي تعاني مرضا عضالا لايُجدي معه كل دواء ، غير الحسام العضب

فليت فتى الخطاب شاهد فتحها فيشهدَ ان السهم من يوسف اصمى
وما كان الا الداء أعيا دواؤه وغير الحسام العضب لايعرف الحسما
وأصبح ذاك الثغر جذلان باسماً وألسنة الأغماد توسعه لثما

ومن المدن التي حظيت بالاهتمام بعد القدس ، مدينة دمياط التي أحدق بها الصليبيون وأرادوا استباحتها ، ولكن همة ملك مصر محمد بن أبي بكر حالت دون تحقيق ذلك ، اذ جلاهم عنها ، وأنقذ ساكنيها من كارثة كادت لاتبقي ولا تذر ، وأقام اثر دخوله لها مجلساً كبيراً حضره المهنئون ونهض

---

(١) مفرج الكروب ٢ : ٢٣٣ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي ١ : ٣٨٥

راجح بن اسماعيل الحلي ، وأنشده قصيدة تطفح بالبشر والفرح ، وتتهلل بالنصر الباهر الذي حباه الله للصادقين ، واخزى به وجوه الماكرين الافاكين (١) :

هنيئاً ، فإن السعد راح مخلّدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إلهُ الخلق فتحا بدا لنا مبينا وإنعاماً وعزاً مؤيّدا
تهلّلَ وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

وانشده البهاء زهير قصيدة اتشحت نفسه فيها بالافراح ، وتلفعت بوشاح الانشراح ، مطلعها (٢) :

بك اهتز عطفُ الدين في حُلل النصرِ وردُت على أعقابها ملّةُ الكفرِ

ولم تكن مصر — حسبما ذكر الشاعر — جذلة بهذا النصر : بل بغداد ومكة ويثرب ؛ لأنهن أصبحن في مأمن من صروف الدهر ونوائبه:

ومافرحتْ مصرٌ بذا الفتحِ وحدها لقد فرحتْ بغدادُ أكثر من مصرِ
فلو لم يقمْ للهِ حق قيامه لما سلمتْ دارُ السلامِ من الذعرِ
فمن مبلغٌ هذا الهناءِ لمكةٍ ويثرب تُنهيهِ إلى صاحبِ القبر
فقلْ لرسولِ اللهِ : إن سميهُ حمى بيضة الإسلامِ من نوب الدهرِ

وصف الجيش:

أسهم شعر الحرب في وصف الجيش، ودقة تنظيمه، وقدرته العاليةفي الاقتحام والالتحام، ومهارته الفائقة في جلاد العدو والانقضاض عليه. والظاهر أن بعض الشعراء كان يصطنع شعره الحربي، ويتكلف في بنائه مثل العماد الأصفهاني في وصفه جيش ناصر الدين محمد بن شيركوه(٣):

---

(١) شفاء القلوب ص ٣٠٧ .
(٢) ديوان بهاء الدين زهير ص ١٢١
(٣) سنا البرق الشامي ١ : ١٩٠ .

وكتيبةٍ مثل الرياض كأنّمـا ... راياتُها منشورةٌ أزهارُ

وكأنما خضرُ البيارق للقنـا ... وُرقٌ وهـاماتُ العُداة ثمارُ

وكمائـمُ الأغماد عن زهرِ الظبّي ... فتقت فكلُّ صقيلةٍ نـوّارُ

وعلى شعاع الشمس لمع حديدها ... يبدو كما يعلو اللُّجين نضارُ

نقلنا الشاعر في أبياته إلى رياض غناء، بديعة الأزهار والأشجار والثمار، تلفت الزائرين، وتعجب الناظرين، وأطلق عنان خياله ليخرج تشبيهات بعيدة عن ميدان القتال، وصرير الحديد ، وصهيل الخيل، وطراد الفرسان ويبدو أن معين العماد الأصفهاني الرياض والمروج ، ينتح منه صوره الحربية، ويعرضها للمشاهدين . ففي قصيدة أخرى يصف فيها جيش صلاح الدين بقوله (١):

للهِ جيشٌ بالمروجِ عرَضْتَهُ ... أسدُ العرين رجاله ورماحُهُ

ومن الحديد سوابغاً أبدانـهُ ... ومن المضاءِ عزائماً أرواحُهُ

روض من الصفرِ البنود وحمرِها ... والبيض ، يُزهى وَرْدَهُ وأقاحهُ

ويخرجنا ابن عُنين من ساحات المروج والرياض إلى البيداء التي ضاقت هضابها ووهادها بجيش جرّار يقوده كلّ بطل كرّار من بني أيوب امتلأ مضاء ، وتدرّع عزماً (٢) :

يقودهم من بني أيوب كلّ فتىً ... ماضي العزائمِ لانكسٌ ولانخبُ(٣)

وتهاب الأعداء هذا الجيش وتحذره، وتتراجف من سطونه، وتتوقى مبادرته، وتتحامى مقابلته (٤):

متى عاينتهُ المشركون تقطّعَتْ ... لهيبتهِ أكبادهُمْ والمفاصلُ

---

(٢) الخريدة، قسم مصر ١ : ٢٠ .

(٣) ديوان ابن عنين ص ٤٨ .

(١) النخب : الجبان .

(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٣١٨ .

وهو اذا مادب في الأرض لايُبقي مكاناً خالياًمن تزاحم سنابك الخيول بين الجماجم ،وأسراب الطير التي تحوم فوقه تحجب الشمس ، ماخلا أشعة متناثرة كالدراهم هنا وهناك ، وهي صورة فيها من الحركة مايمكن أن يلحظ من السرى والسطوة ونثر الحرباء شعاعها فوق عقابه(١):

فاذا سرى ملأ العـراء سنابكاً واذا سطا ملأ القفار جماجما
فغزالةُ الحرباءِ فوق عُقابـه نثرتْ عليه من الشعاع دراهما

وصورة الطير الذى يرافق الجيش المنتصر –وان كانت مألوفة في ادبنا القديم – تتكرر عند عدد من شعراء هذه الحقبة ، ولا نلمح تلويناً جديداً ، ويكادفتيان الشاغورى من اكثرهم ايراداً لها ، مثل قوله (٢) :

خميسٌ له الراياتُ ظلٌ ،وفوقه من الطيرِ ظلٌ يحجب الشمس سادل

وقوله (٣):

قد عود الطير عاداتٍ وثقْن بها يوم الوغى،فهو مطعامٌ ومطْعان

وللجيش صور كثيرة في دواوين الشعراء آنذاك ،ونجدها بارزة في ديوان ابن سناء الملك، ففي احداها يظهر لنا قدرة جيش صلاح الدين القتالية، واندفاعه إلى الموت، وترفّعه عن الأسلاب والغنائم، وانصياعه إلى قائده الذي أعده وهذبه ودربه (٤):

وجيشٌ به أسد الكريهةِ غُضبُ وإن شئتَ عقبانُ المنيةِ حومُ

---

(١) ديوان شرف الدين الأنصاري ص ٤٤٠ .

(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٣١٧ .

(٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ٤٧٦ .

(٤) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٩٢ .

يعفون عن كسب المغانم في الوغى ... فليس لهم الا الفوارس مغنمُ
اذا قاتلوا كانوا سكوتاً شجاعةً ... ولكن ظُباهم في الطلى تتكلّم
بإقدامهم نالوا الحياةَ وربّما ... يؤخّرُ آجالَ الرجال التقدمُ
وأنتَ الذي هذبتهم فتهذبوا ... وأنتَ الذي فهّمتهم فتفهّموا
ضربت بهم قوماً نياماً جهالةً ... فلا نائمٌ الا وأيقظه الدم

ولم يقف الشعراء عند وصف الجيش الإسلامي المنتصر ، وانما تجاوزه الى وصف الاعداء ، وما وقع عليهم من هزيمة واستسلام وغالبا ما تأخذ هؤلاء الشعراء نشوة النصر فيقعون في التهويل والمبالغة ، من ذلك مثلا قصيدة ابن سناء الملك التي قالها لما توجه الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف من مصر سنة ٥٩٤ للهجرة الى تبنين » (١) وخلصها من الصليبيين الذين نازلوها بفارسهم وراجلهم ، واحدقوا بها وضايقوها (٢)، ومطلعها :

والشام للاسلام دار القرار ... وكان من قبل طريق الفرار

ومنها :

جئت «لتبيين» ومن حولها ... قوم كأعداد الحصى ، للحصار
وطبقوا البحر سفناً فما ... بان ، وساروا فوقها في قفار
ويمّموا الثغر ، وطافوا به ... وأحدقوا كالغِل لا كالسّوار
وكان ذاك الثغر مع أهله ... وقبل ان يحضره في احتضار
وانهزموا للبحر اذ أبصروا ... بحر وغى تغرقُ فيه البحار
وعذرُهم اذ هربوا واضحٌ ... هل يثبتُ الليلُ أمام النهارْ
أقسم ما شدّوا إزاراً لهم ... الا لأن الليل مرخيّ الإزارْ
وانقلبت بالذلّ أزياؤهم ... فصار ذو المغفر ذات الخمارْ

انها وصف لامواج الصليبيين المحدقين بمدينة «تبنين» ، وهم كالحصى عدداً ، وسفنهم الراسية في البحر حالت دون رؤية الماء الزاخر لكثرتها وتزاحمها

---

(١) تبنين : بلدة بين دمشق وصور (معجم البلدان ٢ : ١٤) .
(٢) مفرج الكروب ٣ : ٧٥ .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ١٣٢ .

ومع ذلك لم يستطيعوا الصمود تجاه القوة العظيمة التي داهمتهم ، واحالتهم الى يباب يتطاير أماهم خوفا وهلعاً ، واقسم الشاعر ان رجالهم ولّوا هاربين بلا أزر ، وقوادهم نزعوا مغافرهم ، وبدّلو أزياءهم وغيروا هيئاتهم ، وصاروا كالنساء المذعورات . انها مبالغات دبجتها مخيلة الشاعر ليقدمها هدية لمبدوحه المنتصر

وصف آلات الحرب وأدواته :

كانت الحرب وما يتصل بها شغل الناس الشاغل آنذاك ، فانهم عنوا بالادب الذي تناول وصف آلاته وأدواته الى جانب الكتب التي ألفت فيه مثل «عمدة السالك في سياسة الممالك» ليعقوب بن صابر المنجنيقي الذي «يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها ، وفتح الثغور . وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية ، والهندسة ، والمصابرة على القلاع والحصار ، والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل اداة الحرب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها (١) . وثمة رسالة قيمة في الات الحرب وأدواتها بعنوان «تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء» ألفها مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي المتوفى سة ٥٨٩ للهجرة لصلاح الدين الايوبي (٢) .

كان سلاح المحاربين في عصر بني أيوب – كما كان سابقاً – السيف والرمح والقوس والمجن، ويلبس الفرسان الدروع من زرد أو جلد ، ويضعون المغافر على رؤوسهم، وقد ذكرها الشعراء في شعرهم،وتفننوا في تصويرها، وأوضحوا أثرها، وبينوا فعلها. وللسيف القدح المعلّى من هذا الشعر،فهو زينة الرجل الشجاع، يصطحبه في سلمه وحربه.يذب به عن نفسه، ويفري بحدّه رقاب خصومه. وكان صلاح الدين يوليه اهتمامه،قال على بن ظافر

---

(١) وفيات الأعيان ٧ : ٣٦ .

(٢) طبعت في بيروت سنة ١٩٤٨ بتحقيق كلود كاهين .

الأزدي: وجرى بين يدي القاضي الفاضل ذكر سيوف السلطان الملك الناصر – رحمه الله – فارتجل قطعة علق بحفظي منها (١):

ماضياتٌ على الدوام دوامي هي في النصر نجدةُ الاسلام (٢)
في يمين السلطان، إن جرّدتْها أشبهتها صواعقٌ في غمام (٣)
تنثرُ الهامَ كالحروفِ، فما أشـ ـبهَ هذي السيوفَ بالأقلامِ
في محاريبِ حربهِ البيض صلّتْ وركوعُ الظبى سجودُ الهامِ

من هذه الأبيات – وإن كانت على شيء من التكلّف والتصنع – نستدل أن صلاح الدين كانت له مجموعة من السيوف يتولاها حدّاً وصقلا بحيث دفعت الأُدباء للتحدّث عنها في مجالسهم وارتجال الأشعار في أوصافها ومضائها في حومة الوغى.

وقد أغربت مخيلة الشاعر الضرير سعادة بن عبد الله الحمصي في تصوير سيوف صلاح الدين المرهفات؛ إذ جعل أغمادها رؤوس الفوارس المهاجمين بتيجانها وهي مرصّعة بالفضة والذهب وفصوص العقيق الملطّخة بالدم وكأنها ورود بين رياحين وشبّه لمعان نصالها بين مثار النقع بالنار المتوهجة بين دخانها (٤):

غيثٌ يكرُّ من الظُبى بصواعق ماء الرّدى يجري على نيرانها
بصوارم، أجفانها قِمم العدى لاما كساها القَيْنُ من أجفانها
فضيّــة ذهبيّــة، فلُجينها يختال يوم الروعِ في عقيانها
محمرةً بدم الفوارس خُضرها فالوردُ منثورٌ على رَيْحانها
من كل لامعة بليلِ قَتامها كالنارِ لامعةً بليلِ دُخانها
تلك السيوفُ المرهفات بكفه أمضى على الأيام من حدثانها

(١) ديوان القاضي الفاضل ٢ : ٤٤٤، وانظر بدائع البدائه ص ٣٩٧ .
(٢) دوام : جمع دامية، أي يسيل عليها الدم .
(٣) جردتها : الفاعل ضمير يعود على اليمين .
(٤) الخريدة، قسم الشام ١ : ٤٠٦ .

قُضُبٌ اذا اقترنت كواكب بيضها بكريهةٍ كانت ردى أقرانها
مهزوزةٌ للضربِ في يدِ ماجدٍ ضربٌ أطاح الروس عن أبدانها

ونجد الرماح تعاضد السيوف في الميدان ، والتقاء الجموع ، ضرباً وطعناً وقد برع الشعراء في نعتهما ، وتفننوا في رسمهما صوراً حيّة متحركة ومن طريف ماصيغ في ذلك أبيات ابن الساعاتي التي يقول فيها (١) :

وسل ألسن الأعلام عن فتكاته غداة التقى الجمعان : كفرو ايمان
بحيث كلوم الدارعين لدى الوغى موارد ، والسمر الذوابل أشطان
كأن القنا أغصان بان، وبيضهم جداول، والزعف المضاعف غدران
هناك دماء القوم حمر ، مزاجها مياه المواضي ، والأسنة ريحان
اذا ماتغنّى السيف في الهام والطلى خفيفاً تثنى رمحه، وهو نشوان

إنه أنشأ أبياته على سبيل التخييل، فالرماح أشطان بئْر تستقي الدماء من كلوم فرسان الأعداء، ثم جعلها جزءاً هاماً من مكونات الرياض ، فهي أغصان أشجار البان، والسيوف جداول مياه، وزرد الدروع غدران متناثرة في أرجائها .

ومن لوازم المقاتلين الضرورية الدروع السابغة، والمغافر الصلبة . يقول فتيان الشاغوري (٢):

فعزمه تحت العجاج ماانثنى وسيفهُ يومَ الهياجِ مانبا
يميسُ في سابغةٍ ومغْفَرٍ فيها يُرينا القمرَ المنتقبا (٣)

أما السهام فلها دورها البارز في ضرب الأعداء، وبخاصة من أماكن بعيدة، أو مواضع مرتفعة كالقلاع والحصون، وهي اذا انطلقت بقوة وسرعة لاتردّها الدروع الدقيقة النسج كما يقول فتيان الشاغوري (٤):

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ :١٢٩ .
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢٥ .
(٣) السابغة : الدروع الواسعة : المغفر :زرد ينسج على قدرالرأس وقيل هوحلق يتقنع به المتسلح.
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ص ٥٣

يرمي بأسهمه يوم النزال فما ... تردهن الدروعُ السابرياتُ

وكانت الخيل الوسيلة الرئيسة في الاقدام والاحجام ،فأكثر الشعراء من وصفها واسباغ النعوت عليها ، وهي في جملتها لا تخرج عن اوصاف القدماء ونعوتهم ، من ذلك قول ابن عُنين :(١)

الخائضُ الغمراتِ في رهجِ الوغى ... والحربُ حاسرةٌ بغير قناعِ
بمطهمٍ نهدٍ ، كأنَّ مروره ... سيلٌ تدافعَ من متونِ قلاعِ
أو لقوةٍ شغواءَ حقّقَ طرفُها ... من رأسِ مرقبةٍ طلّاً في قاعِ (٢)

ونلمح في بيتي فتيان الشاغوري الآتيين صورة جميلة للخيل العائدة من فتح بيت المقدس، وهي نشوى، تشدو كشدو المغنية «النُّحيلة» بشعر أبي عبادة البحتري (٣):

والخيلُ مطربةٌ، كأنَّ صهيلها ... شدْوُ النحيلةِ في نسيب البحتري
نشوى تميدُ من السرورِ كأنّما ... صبُحتْ كؤوساً من شرابٍ مسكرِ

واستخدمت الآلات الثقيلة في الحروب آنذاك، ولاسيما في حصار المدن، مثل المنجنيق الذي يرمي الحجارة الثقيلة، والزراقة التي تبعث النفط المشتعل في أنابيب خاصة، والدبابة وهي أخطرها، قال ابن شداد في وصفها(٤): «يدخل تحتها من المقاتلين خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل،ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمّى كبشاً، ينطح بها السور بشدة عظيمة » وقد ورد ذكر المنجنيق وآلة أخرى تعرف بالبرج في الشعر . قال ابن النبيه مخاطباً الملك الأشرف موسى حينما توجّه الى بلاد الروم (٥) :

---

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٣ .
(٢) اللقوة الشغواء : العقاب الأنثى لزيادة منقارها الأعلى على الأسفل .
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٣ .
(٤) النوادر السلطانية ص ١٤١ .
(٥) ديوان ابن النبيه المصري ص ١٩٤ .

ستملك أرضَ قُسْطينة وما كان للروم منها يقارب
كأني بأبراجها قد هوتْ وصخرِ المجانيقِ فيها ضوارب
وقد زحَفَ البرجُ زحَفَ العروسِ اليها يجرُّ ذيول الكتائبْ
فما لُبْسُهُ غير نسجِ الحديدِ وما حليهُ غير بيضِ القواضب
وأُضرمت النارُ حشو النقوب وثار الدخانُ كجنح الغياهبْ

وكان للأسطول في هذه الحروب قيمته وأثره ، وقدعُني صلاح الدين به وأعطى المشرف عليه سلطة كبيرة في تخيير رجاله و اعداد سلاحه ومما جاء في وصف السفن الحربية، ولاسيما الكبيرة منها المعروفة بالشواني قول المهذب ابن الزبير (٢) :

وكأن بحر الرّوم خلّق وجهه وطغَتْ عليه منابتُ المرجانِ
ولقد أتى الأسطولُ حين غزابما لم يأتِ في حينٍ من الأحيانِ
أحببْ الي بها شواني أصبحتْ من فتكها ولها العداةُ شواني
شُبِّهن بالغربانِ في ألوانها وفعلن فعل كواسر العقبانِ
أوقرتَها عُدد القتالِ ،فقدغدتْ فيها القنا عوضاً من الأشطانِ
فأتتك مُوقرةً بسبيٍ بينه أسراهمُ مغلولة الأذقانِ
حربٌ عوانٌ حكّمتْك منالعدا في كل بكرٍ عندهمْ وعوانِ

وصف الأبطال :

يعالج جزء كبير من الشعر الذي ندرسه وصف الأبطال، وبيان شجاعتهم، ورباطة جأشهم، وثبات نفوسهم ، وشدة شكيمتهم، وجدارتهم في ركوب الخيل، وصبرهم على المصاولة ، وبأسهم في المنازلة ، ومهارتهم في تسديد الضربات القاتلة، والطعنات المميتة ، وقد جاء أكثره على لسان الشعراء المداحين ، وأقله على لسان الفرسان أنفسهم ؛ وقد نعزوه إلى أن الفارس الشاعر تستأثر الحرب بمعظم احساسه فلايبقى منه الاّ القليل يسكبه في قصيدة

(١) في مفرج الكروب ٢ : ١٣ نص يحدد حمولة الشيني بمائة وخمسين جندياً .
(٢) الخريدة، قسم مصر ١ : ٢١١ .

أو عدد من المقطوعات على حين نرى الشاعر يعالج احساسه الذي يضطرم في جوانحه فيسكبه شعراً كله ، يحمل أوار نفسه وتوقد مشاعره قال محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة الذي جرت له وقائع مع الافرنج ،وانتصر عليهم (١):

كم قد أبدتُ بسيفي كل مفتخرٍ   حامي الحقيقةِ يوم الجحفل اللجب
وكم تركتُ بني الإفرنج في رُعب   فصرتُ أدعى لديهم جالب الرّعبِ
وكم جررتُ اليهم جحفلاً لجباً   بالسابريّةِ ، والماذي واليَلَب (٢)
كفعل أبائي الغر الذين همُ   كانوا لدين الهدى كالوالدِ الحدبِ

كما جرى الشعر على ألسنة الجنود يحمسون به أنفسهم أو يصورون بعض أفعالهم ومواقفهم من العدو تصويراً هو أقرب إلى الخاطرة الحارة المتدفقة منه إلى الشعر الموصول الأفكار ،فكأنهم يردفون ضربة السيف بأبيات من الشعر تحمل مايجيش في نفوسهم من هذه المشاعر الثائرة . مثل قول الجندي محمد بن يعقوب بن علي (٣):

دعني أخاطر في الحروب بُمهجتي   إمّا أموتُ بها ، وإما أُرزق
فسواد عيشي لاأراه أبيضاً   الا اذا احمر السّنان الازرق

والشعر الذي يفتخر بالبطولة والفروسية ، ويعتد بالقوة والبسالة ، ويتغنى بالنصر والظفر كثير في دواين هذه الحقبة ، ومن ذلك ماجاء في ديوان ابن عُنين قصيدة مطلعها (٤) :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا   اذا جُهلت آياتُنا والقنا اللّدنا

وقدم ابن عُنين ثمر موهبته ، وحصاد شاعريته في هذه القصيدة الحماسية التي رسم فيها صورة حيّة للمعركة التي دارت قرب مدينة دمياط سنة ٦١٨ للهجرة،وانكسر فيها العدو، وولى هاربا مذعوراً لايلوي على شيء ، قال فيها :

---

(١) مفرج الكروب ٤ : ٨٢ .
(٢) السابري : درع دقيقة النسج، الماذي : كل سلاح من حديد. اليلب : الترسة، وقيل الدروع
(٣) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٦٧ .
(٤) ديوان ابن عنين ص ٢٩ .

غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يُحصى يقيناً ولا ظنا

قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمّةً ... وديناً ، وإن كانوا قد اختلفوا لُسنا

عليهم من الماذي كل مُفاضةٍ ... دلاصٍ كقرن الشمس قد أحكمتْ وَضنا (١)

وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا ... إلينا سراعاً بالجيادِ وأرقلنا

فما برحتْ سمرُ الرماحِ تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منّا

سقيناهمُ كأساً نفتْ عنهم الكرى ... وكيف ينامُ الليلَ من عدمِ الأمنا

إنها صورة واضحة للخصوم القادمين من الغرب بأعداد كبيرة طمعاً في خيرات الشرق ، تجمعهم وشائج الدين والرأي والعقيدة ، مع تباعد أوطانهم ، واختلاف ألسنتهم . وقد دفعهم الغرور ، وظنوا أنهم قادرون على أخذ دمياط تمهيداً للسيطرة على مدن أخرى في وادي النيل . ولكن الضربة القاصمة التي جاءتهم كبحت جماحهم ، وحطّمت غطرستهم ، وسقتهم كأس المنون ، وجعلتهم يستجيرون بقوات المسلمين . وتظهر في القصيدة مبادئ الفتوة والفروسية الأصيلة ، والشهامة العربية العالية في مراعاة الأسرى والمستجيرين:

لقوا الموتَ من زرق الأسنّة أحمراً ... فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنّا

وما برحَ الإحسانُ منّا سجيةً ... توارثها عن صيد آبائنا الأبنا

منحنا بقاياهم حياة جديدة ... فعاشوا بأعناقٍ مقلّدة منّا

ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ... ولوغاً ، ولكنّا ملكنا فأسجحنا (٢)

وبالغ الشعراء في إضفاء صفات الشجاعة النادرة على ممدوحيهم . ففي شعر ابن الساعاتي تتجلّى أمارات معينة للملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف نمّت على كثرة تمرسه بالحروب ، وتميزه على أقرانه فيها ، من مثل قوله (١):

---

(١) دلاص : ملساء . وضناً : نسجاً

(٢) أسجح : أحسن العفو ، وفي المثل : ملكت فأسجح

(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٢٠ .

كم وقعة أقدم فيها مصلتاً ... حيث السهامُ خيفة لاتقدمُ
تبكي السيوف والعوالي شجوها ... ويضحك الذئب بها والقشعمُ
اذا انبرى في مأزق وحلّقت ... طيور جو للقرى تزدحم
شكت هل تلك الطيور خيلهُ ... أم تلكمُ الخيلُ طيورٌ حُوّمُ
خضن المياه، وهي صرفٌ وانثنت ... مغذة وهي مياه ودمُ
فالوعرُ سهلٌ، والجبالُ كُثبٌ ... والصعبُ هينٌ ، والبعيد أممُ
لاتسألني عن أعاديه وسلْ ... مافعلت عادٌ وأين جرهمُ
ينثر هاماتهم بسيفه ... والقلوب بقناه ينظمُ

فالممدوح ذو وقائع كثيرة، وحملات مترادفة : ضاقت منها ذرعاً والرماح والسيوف والخيول ، وانتشت بها حبوراً الذئاب والقشاعم : فالأولى لما يصيبها من أثر القراع والكلوم، والثانية لما يهيئ لها من الولائم الحافلة بأطايب الطعام، وهو ذو بلاءٍ بعيد، وهمّة عالية نافذة لايعيقه الصعب، ولايحول دون مأربه البعيد، حتى إنه يقضي على أعاديه القضاء المبرم فيستأصل شأفتهم، ويخمد أنفاسهم، وكأنهم مما عفى عليه التاريخ السحيق.

ونرى صورة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد عند البهاء زهير مشرقة وضاءة ،فجياده تتطلّع اليه، وتحن شوقاً ، والسمر ترقص طرباً ،والسيوف تصفّق حبوراً كما في قوله (١):

أبداً تحنٌ إلى الطراد جيادهُ ... فلها اليه تشوّفٌ وتشوّقُ
يبدي لسطوته الخميسُ تطرّباً ... فالسُّمرُ ترقصُ والسيوفُ تصفقُ
في طي لامته هزبرٌ باسلٌ ... تحت العريكة منه بدرٌ مُشرق
يُروي القنا بدم الأعادي في الوغى ... فلذاك تثمرُ بالرؤوس وتورقُ (٢)
يمضي فيقْدُمُ جيشَهُ من هيبة ... جيش يغصُّ به الزمان ويشرقُ
ستجوبُ آفاق البلاد جيادُهُ ... ويُرى له في كل فجّ فيلقُ

(١) ديوان البهاء زهير ص ٢٢٦ .
(٢) اللامة : الدرع . الهزبر : من أسماء الأسد .

وأجلى مافي هذه الأبيات أنه أضاف صفة العاقل إلى الجماد، فاذا به يحس احساسه، وقد يربو عليه من خلال ماتتدبره من حنين الجياد إلى الطراد، والسمر إلى الرقص، والسيوف إلى التصفيق. كما كلّل ممدوحه تاجاً من الهيبة في مسيره أمام جيشه الجرار كالأسد الهصور طالباً خصومه ليروي رماحه من دمائهم، وتثمر رؤوساً دانية القطاف.

وترتفع صورة الممدوح الملك العادل أبي بكر بن أيوب عند ابن سناء الملك حينما ينيط بها كل الأفعال من غير ان يتسع في الجو الذي يهيئه لبطله المغوار (١) :

يبادرُ للاقران قبل بدادهم ... ولا يدرك العلياء من لم يبادرِ
وتسري الى النصر المبين رماحهُ ... فتعبر من أجسادهم في معابر
فحملاتُـه لاتتقى بسوابغ ... وفِعلاتُه لاتُتَّقى بالمعاذر
له الله ! ما امضاه حدَّ عزيمة ... وأثبتهُ بينَ اختلاف البواتر
يَظلُّ بوجهٍ ضاحك الثغر باسم ... أمام نهارٍ كالح الوجه باسر

فهو شجاع ، لايهاب الردى ، يقذف بنفسه في أتون المعركة ، ويبادر أقرانه الكماة بجلادة وأنداده الفرسان بضراوة ، كما هو ذو إرادة قوية ، وعزيمة ثابتة ، لايكل ، ولايمل ، تراه ضاحك الوجه ، مبتسم الثغر في احلك المواقف واشدها ، ونرى مثل ذلك في قول فتيان الشاغوري (٢) :

أباح ثغور الكفر بالسيف عَنْوةً ... وسد ثغورَ السلم بالطعنِ في الثغْر
لقد كان يلقى المرهفات بوجههِ ... وسُمْرَ القنا بالصدر في الورد والصدْر
وترعشُ أيديهم مهابتهُ فما ... لضربهم والطعن في جسمه أثرْ
وكان يردُّ الجحفل المَجْرَ وحدَهُ ... يمسونَ بالايدي الظهور من الخورْ

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ١١٩ .
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢١١ .

الممدوح فارس همام ، ومقاتل صدام ، يغشى الوغى بحماس واندفاع . يصدع قلوب الاعداء بمهابته ، فترتعش أيديهم ، ولايقدرون على الضرب بسيوفهم البتارة ، ورماحهم الغدارة ويرتدون على أعقابهم في هلع وخور .

ويضع ابن الساعاتي صورة لبطله الملك الافضل على بن صلاح الدين يوسف مجسّدة في اطار فخمم ، تبرز فيها اسيافه الموشحة بالدماء، ورماحه النافذة في كلوم الاعداء ، وهو واقف ثابت الجنان ، يجالد الابطال الفرسان (١)

لبست صوارمه الدماء كأنها مغمورةٌ ، وظياتها لم تغمد
حيثُ الكلوم هي العيون وسمره أميالها ورؤوسها كالاثمدِ
تهفوا الفوارس سجدا لحسامهِ صعر الخلود لغيره لم تسجدِ

ملامح فنية

بعد أن درسنا الشعر الذي عكس صدى المعارك التي دارت زمن بني أيوب، نذكر أبرز الملامح الفنية .

إن حجم شعر الحرب الذي وصل الينا كبير ، وهو يتوزع بين قصائد طويلة تتنازل وصف المعارك، ورصد أحداثها، ومقطوعات قصيرة يلمس القاريء فيهالفتات شعوريةحارة تجاهالأحداث المثيرةالتي رافقتتلك الحروب.

ومعجم هذا الشعر بسيط وواضح، لاتعقيد فيه ولاغموض ، وتكاد ألفاظ الشعراء وعباراتهم تقرب من لغة الحياة التي لاتكد الذهن ولاتتعب الفكر في استكناه معانيها والوقوف على دقائقها.

وسمة السهولة والوضوح في الألفاظ والمعاني لم تكن سوى خلاصةلاتجاه معروف في القرنين السادس والسابع، عرف باتجاه الرقّة والسهولة، أو مدرسة الرقّة والسهولة كما يسميها الدكتور محمد كامل حسين (٢) واليك

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ : ١٣٤ .
(٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٠

هذه الأبيات للشاعر أسامة بن منقذ (١):

سل بي كماة الوغى في كل معركة يضيق بالنفس فيها صدرذي الباس
ينبؤك بأني في مضايقها ثبت، اذا الخوف هزالشاهق الراسي
أخوضها كشهاب القذف يصحبني عضب كبرق سرى أو ضوءمقباس

لقد استعمل الشاعر في مطلع أبياته أسلوباً خطابياً ،فقال: «سل» ، لاثبات قدرته في مباشرة الحرب، والضرب والطعن، والكروالفر، وهذه الظاهرة نلمحها عند الكثيرين ، ولاسيما الشعراء الذين اكتووا بنار الحرب وشاهدوا بأعينهم الدمار والخراب والقتل الذي أحدثته أيدي الصليبين، وخير مثال على ذلك قصيدة بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجاري الحماسية التي خاطب بها الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة حينما كان مرابطاً في السواحل الشامية وهو ينتظر نجدة ملوك الشام ومساعدتهم، يقول في أولها (٢):

المجد يدرك بالعسالة الذبل والمشرفية ،لابالوعد والأمل
والجد في الجد ، فاجنبها مسومة يقودها أسد بالأينق الذلل
مالذة العيش إلاصوت معمعة ينال فيها المنى بالبيض والأسل
ياأيها الملك المنصور نصح فتى لم يلوه عن وفاء كثرة العذل
اعزم ، ولاتترك الدنيا بلاملك وجد ، فالملك محتاج إلى رجل
وابرز إلى الموت يوم الروع مدرعاً قلباً ،اذا زالت الأفلاك لم يزل
وهم في طلب العلياء مرتقباً وارسل الجيش أبدالاً من الرسل
واهصر عداك كهصر الليث طعمته وصل اذا الليث في الهيجاءلم يصل
صفدهم عاجلاً، واجعل حصونهم سجونهم فهم في غاية الفشل

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢١١ .
(٢) مفرج الكروب ٢ : ١٤٤ .

فالشاعر قد آمن بمبدأ القوّة في أخذ الحق، واسترداد المسلوب، واعادة المنهوب، فاستعان بهذا الزخم من الأفعال الطلبية (اجنب ، اعزم، لاتترك، جدّ، ابرز، هم ، أرسل، اهصر ، صل : صفّد، اجعل) ،وقد قصدبها تحريك القائد، ودفعه لاقتحام أورار المعركة، وانتزاع النصر من الخصم اللدود ولسنا بحاجة إلى ايراد أمثلة أخرى، فهي سمة واضحة في الشعر الحماسي الذي تستدعيه الأجواء التي سطعت فيها شُهب الحرب .

وثمة ظاهرة لغوية أخرى هي استعمال الألفاظ المعرَّبة ، ولاسيما في أسماء العدد الحربية وأدواتها ومثال هذا ماورد في قصيدة للصاحب شرف الدين الأنصاري، وصف فيهاشجاعة الملك المنصور محمد بن محمود وجيشه المقدام(١) :

لله درُّ كتيبةٍ ملمومةٍ تبغيكَ حين حملتَ ذي جاليشها (٢)

جنّبتها نَغَمَ القيان مُعَوَّضاً بترددِ الأصواتِ من شاويشها (٣)

وقول فتيان الشاغوري في قصيدة مدح بها الملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل وهو متوجه إلى الحرب (٤) :

فكم من رحى حربٍ، أدار بماسقى به السمرَ والبيضَ الرقاقَ الدبابيسا (٥)

وقول ابن سناء الملك في مدح صلاح الدين بعد فتح نابلس (٦) :

وقد رجمتها المنجيقات إذ رمتْ لشيخٍ لعينٍ كافرٍ جاهلٍ رذْلِ (٧)

وقد استقى بعضهم ألفاظه ومعانيه من معين الفقهاء والنحاة واللغويين مما أبعد الشعر عن خصائصه المعروفة ودل على العجز في التعبير عن التجارب

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ص ٢٧٠ .

(٢) الجاليش : في الأصل معناها الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر، ثم أطلق اللفظ على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه .

(٣) الشاويش :لفظ تركي،كان معناه في مصطلح العصر الأيوبي جندي مهمته النداء أو استنفار الجند.

(٤) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢٢٦ .

(٥) الدبابيس : جمع دبوس، عصا من خشب أو حديد في رأسها شيء كالكرة .

(٦) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٢٤ .

(٧) المنجيقات : جمع منجيق، لفظ أعجمي معرب، وهو آلة من آلات الحصار يقوم مقام المدفع الحالي، وإن كانت قذائفه من الحجارة .

مثل قول فتيان الشاغوري بعد فتح صلاح الدين البيت المقدس (١)

أنشأتَ ملحمةً تُملُّ مقاتل الفرسانِ بالعَـدَدِ الذي لم يُحْصَرِ
إعرابها ضربُ الحُسامِ ، ونقطها وقع السِّهامِ ، وخَطّها بالسَّمهري
والحبرُ بحرُ دمٍ تَغَطْمَطَ موجُهُ اذ ليس ثمَّ سوى الثرى من دفتر
والبيضُ تنثرُ ، وهي غيرُ حواطبٍ والسمرُ ناظمةٌ ، وإنْ لم تَشْعُرِ

ومن ذلك ماجاء في قصيدة لعلي بن المبارك المعروف بابن الزاهدة في مدح صلاح الدين: (٢)

اذا كانت الأعداء فعلاً مضارعاً أصار مواضيه الحروف الجوازمـا

وقد صحب سهولة الألفاظ، وبساطة التعابير، وضوح الصور الشعرية. وهي — وان كانت تحتفل بالمجازات والتشبيهات — مستملحة ، تعتمد الحركة والحياة في كثير من جوانبها كما ترى في أبيات فتيان الشاغوري التي عُني فيها بالجو العام الذي يحيط بممدوحه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ، وما يسفر عن فعاله من القتل والتمثيل (٣):

مَلْكٌ اذا نارُ الهياجِ احتدمت في مأْزقِ الحربِ الشديد الوقدِ
يوماً تَرَى فيه القنا رَواعِفـاً والخيلُ تَردي والكُماةُ تُرْدي
والنقعُ فيه كالغمـام والظبى بروقُهُ والركضُ صوتُ الرَّعدِ
هنـاكَ يُلقَى سيفُهُ بكفـهِ صَلْتاً ومنْ دَمِ العدَى في غمدِ
يركعُ في الهام فتهوي سُجَّـداً منْ كل مَن لم يَتْلُ آيَ الحمدِ
فمـن هناكَ عنترٌ و عـامرٌ لديهِ في الإقدامِ وابنُ مَعْدي

فالحرب نار محتدمة، شديدة الاتقاد، والرماح تفجر الدماء ، والخيول

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٢ .
(٢) معجم الادباء ٥ : ٣٠١ .
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ١١٢ .

تطأ أعناق المحاربين، والكماة يقتلون نظراءهم ، والنقع الثائر المنعقد سحاباً غليظاً، تبرق فيه الظبي ،والأصوات المنبعثة تشبه صوت الرعد قوة واصطحاباً.

هذا هو الجو العام الذي أعدَّه الشاعر ليكون للمدوح خير ممهد لشجاعته واستخراج كل ضروب بأسه وفتوته. أما ما يتمخض عن اسهامه فذاك موكول الى سيفه المسّلول الذي جعل دم الأعداء غمداً له ، ورؤوسهم موضع ركوعه وسقوطها سجوداً، فالممدوح — بعد هذا كله — يبذ فرسان العرب المشهورين من أمثال عنترة بن شداد العبسي، وعامر بن الطفيل الغنوي، وعمرو بن معديكرب الزبيدي،في البأس والشجاعة والاقدام.

والخيال في هذه الصور ليس بعيداً عن الحقائق أو قائماً على الاختلاق والتزييف . كما أن هذا الخيال مع صدق العواطف وحرارة المشاعر جعل تلك الصور جذابة تستهوى النظر وتجعله يقبل عليها ويشاركها روحياً ووجدانياً .

واستعان شعراء كثيرون في تلوين صورهم الشعرية ، وتزيين أطرها بزخارف بديعية ، وقد أحسن بعضهم استعمالها ، وأجاد في وضعها ، مما جعل أثرها في النفوس أوقع ، وصداها في الآذان أعذب.وأساء آخرون ، فبرزت قبيحة مستكرهة مثل قول ابن الساعاتي في وصف سيوف الممدوح في الوغى (١) :

سقاها ريّها ، والعامُ محلٌ فعادت، والرؤوسُ لها اثمار
وأوطأ بيضه سود المنايا وكانت لا يحلّ لها إزار

شبه السيوف بالشجر، والدماء بالمياه الراوية ، ورؤوس الأعداء بثمار الشجر، ثم تغارب فشبّه المنايا بالجواري التي أحلت لسيوفه وكانت من قبل مصونات، وتوصلاً إلى هذه المعاني تكلّف ما تكلّفه من جعل نكاح البيض (السيوف) لسود الجواري(المنايا) التي لم يجسر أحد أن يحلّ ازارهن .

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ : ٣٦ .

وانظر إلى اقتران الطباق بالمبالغة في صورة الملك الأشرف موسى بن أبي بكر عند ابن النبيه (١) :

تؤمُّ الجوارحُ أعلامَهُ ... تروح بطاناً وتغدو سواغبْ
كأن السناجقَ أوكارُها ... فكم عُصَبٍ فوق تلك العصائب (٢)
أيا ملكَ الأرضِ حقاً اليكَ ... مآلُ مشارِقها والمغاربْ

والمبالغة سمة بارزة لا تخفى على قارىء الشعر الحربي في هذه الحقبة، وقد تصل عند بعضهم إلى حدّ مستهجن، مثل قول ابن سناء الملك في مدح صلاح الدين (٣) :

بضربٍ يذيبُ الشمسَ في الأفق حرُّه ... ويحرق ما بين القلوب من الشّحنا

وتقترن المغالاة بالحشو والتطويل والتكرار عند الكثيرين من الشعراء الذين ولجو باب الشعر الحربي أمثال فتيان الشاغوري، وابن الساعاتي، والصاحب شرف الدين الأنصاري ... وهذا الأمر — وإن كان يعكس الحركة النفسية الداخلية لدى الشعراء تجاه الحرب آنذاك — يقلل من القيمة الفنية لهذا الشعر، ويضعه في مرتبة دنيا اذا ما قيس بالشعر الحربي في عصر المتنبي وأضرابه من الشعراء .

ومن الجدير بالذكر أن الشعراء لم يخالفوا في نظمهم الأوزان العربية المعروفة، ما عدا العماد الأصفهاني الذي نظم دوبيتات في الجهاد، كما عنوا بالبحور الطويلة لجلال مظهرها، وعمق أثرها في النفوس أثناء الأنشاد، واستيعابها جملة المعاني، واعتملوا القوافي جميعها، ولا سيما الراء لأنها من القوافي الذلل كما يقولون (٤) التي آثرها كثير من الشعراء في شعر الحرب ووصف المعارك .

---

(١) ديوان ابن النبيه ص ١٩٤ .
(٢) السناجق : جمع سنجق، راية صغيرة صفراء اللون .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢٣ .
(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١ : ٤٦ .

المصادر والمراجع

١ ــ بدائع البدائه: علي بن ظافر الأزدي، ت ٦٢٣هـ، تحـ: محمد ابو الفضل ابراهيم. المط الفنية القاهرة ١٩٧٠.

٢ ــ بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ. تحـ: محمد ابو الفضل ابراهيم. مط مصطفى الحلبي القاهرة ١٩٦٤.

٣ ــ الحماسة البصرية: صدر الدين بن أبي الفرج البصري، ت٦٥٩هـ. تحـ: د. مختار الدين احمد. مطمجلس دائرة المعارف العثمانيةالهند١٩٦٤.

٤ ــ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة: ابن الفوطي، ت ٧٣٢هـ. تحـ: مصطفى جواد. مط الفرات بغداد ١٣٥١هـ.

٥ ــ خريدة القصر وجريدة العصر: عماد الدين الأصفهاني، ت ٤٩٧هـ. بداية قسم شعراء الشام. تحـ. د. شكري فيصل .المط الهاشمية دمشق ١٩٦٨ .

شعراء الشام. مط المكتبة الهاشمية دمشق ١٩٥٥ ــ ١٩٦٤.

شعراء مصر: تحـ: أحمد أمين، شوقي ضيف، احسان عباس. مط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥١.

٦ ــ ديوان ابن الساعاتي: تحـ: انيس المقدسي .المطالأميركانيةبيروت١٩٣٨.

٧ ــ ديوان ابن سناء الملك: تحـ: خليل مروم. مط دمشق ١٩٤٦ .

٨ ــ ديوان ابن النبيه المصري: تحـ: عمر محمد الأسعد. ط دار الفكر١٩٦٩

٩ ــ ديوان بهاء الدين زهير: مط دار صادر بيروت ١٩٦٤ .

١٠ ــ ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: تحـ: د. عمر موسى باشا المط الهاشمية دمشق١٩٦٧.

١١ ــ ديوان فتيان الشاغوري: تحـ: أحمد الجندي. المط الهاشمية دمشق ١٩٦٧.

١٢ ــ ديوان القاضي الفاضل: تح: د. أحمد أحمد بدوي. مط دار الكتاب العربي مصر ١٩٦١.

١٣ ــ الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة المقدسي، ت ٦٦٥هـ. مط وادي النيل القاهرة ١٢٨٧هـ.

١٤ ــ زبدة الحلب من تاريخ حلب: ابن العديم، ت ٦٦٠هـ. تح: د. سامي الدهان المط الكاثوليكية بيروت ١٩٦٨.

١٥ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي؛ ت ٨٤٥هـ. مط دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٤.

١٦ ــ سنا البرق الشامي: الفتح بن علي البنداوي، ت ٦٤٢هـ. تح: د. رمضان ششن. ط دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧١.

١٧ ــ شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي الى عهد سيف الدولة: د. زكي المحاسني. مط دار المعارف القاهرة ١٩٦١.

١٨ ــ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: أحمد بن ابراهيم الحنبلي، ت ٨٧٦هـ. تح: ناظم رشيد. دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٩.

١٩ ــ عيون الأنباء في طبقات الاطباء: ابن أبي أصيبعة، ٦٦٨هـ. مط الأقبال بيروت ١٩٥٦.

٢٠ ــ الكامل في التاريخ: ابن الاثير، ٦٣٠هـ. ط دار صادر بيروت

٢١ ــ كشف الظنون : حاجي خليفة، ت ١٠٦٨هـ. المط الاسلامية طهران ١٩٦٧.

٢٢ ــ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ابن واصل، ت ٦٩٧هـ. تح: د. جمال الدين الشيال. ج٢، المط الأميرية القاهرة ١٩٥٧. ج٣، مط دار القلم القاهرة ١٩٦٠. ج ٤، تحقيق د. حسنين محمد ربيع مط دار الكتب ــ القاهرة ١٩٧٢.

٢٣ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي، ت ٨٤٥هـ.
ط بولاق ١٢٧٠هـ.

٢٤ - النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ت ٨٧٤هـ. مط دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٦.

٢٥ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: بهاء الدين بن شداد، ت ٦٣٢هـ. تح: د. جمال الدين الشيال. ط الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٤.

الأسرة الحارثية في مرج بني عامر
٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م - ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م

الدكتور محمد عدنان البخيت
قسم التاريخ - كلية الآداب
الجامعة الأردنية

ان العلاقة التي قامت بين القوى المحلية في الولايات العربية من الدولة العثمانية من جهة، والسلطات العثمانية من جهة أخرى، لهي من المواضيع التي اصبحت تسترعي اهتمام الباحثين والدارسين لتاريخ العرب الحديث. ومن هذه القوى اسرة محلية تعرف بآل طراباى (١)، التي اصبحت تعرف فيما بعد باسم الاسرة الحارثية (٢) وكانت قد برزت كأسرة متنفذة منذ اواخر القرن الخامس عشر الميلادي في منطقة اللّجون (٣) في شمالي شرقي فلسطين. فالى أي عهد تاريخي مدون تعود جذور هذه الاسرة؟ وماموقفها من العثمانيين؟ واية مهام عسكرية وادارية ومالية كانت قد اوكلت اليها؟ واخيرا ماالعلاقة التي نشأت بين هذه القوة وبقية القوى المحلية التي عاصرتها سيما وان الحزبية القيسية — اليمنية كانت مستشرية بين اهالي بلاد الشام: بادية وريفا وحاضرة.

يذكر المؤرخ الدمشقي شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي الحنفي (ت٩٥٣/١٥٤٦م) في اخبار سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م مايلي: «وفي ليلة الأحد سادسه(سادس جمادي الاخرة)،سافر حاجب الحجاب وابن شاربك (٤) الاستادار الى برج (كذا، والأصح مرج) بني عامر ليسلما البلاد لابن طراباى عوضا عن ابيه المقتول باشارة دوادار السلطان الكبير (٥)»، ان ابن طولون كما نلاحظ لايذكر الاسباب التي كانت قد احاطت بمقتل والدابن طراباى، وربما كان قد قتل في حركة عصيان العشائر التي عمت حماه وحوران وفلسطين (٦). كما أنه لايزودنا بالاسم الأول لابن طراباى واكتفى بتكنيته باسم عائلته .زيادة على ذلك، فان ابن طولون هذا لايسعفنا في معرفة موقف هذه الاسرة من الصراع القيسي — اليمني، الا أن مؤرخا أسبق زمنيا من ابن طولون هو الشيخ صدر الدين ابو عبدالله محمد بن عبد الرحمن العثماني الدمشقي الشافعي (ت٧٨٠هـ/١٣٧٦م)، الذي سبق له وعمل قاضيا في صفد، يذكر لنا في النص الذي نشره الاستاذ برناردلويس ان لصفد عشرة اعمال منها «العمل السابع: مرج بني عامر وبه ولايتان:

اللّجون وجنين، فاللّجون بلد قديم وهو قاعدة المرج وهو من عشير يمن وكذلك جميع مرج بني عامر (٧) ويذكر احمد المقريزي (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م) في استعراضه لاحداث سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ، ان شخصا باسم متيريك بن قاسم بن متيريك امير حارثة قد نزل على بلاد صفد إلا ان المماليك حاربوه واسروا له ولدين واخذوا له ستة الاف بعير ويعود ويذكره في احداث ٨١٢هـ/١٤٠٩م مع انه تقدم حارثه وشارك مع عساكر السلطان في اخماد احدى حركات العصيان من هنا يمكننا أن نقول أن هذه الأسرة ان كان لها وجود في العهد المملوكي كانت ذات جذور يمنية .. ويعود ابن طولون ليذكر أن السلطان سليم الأول في العاشر من محرم سنة ٩٢٣هـ/ في الثاني من شباط ١٥١٧م كان قد أرسل مكتوبا من القاهرة إلى ابن طربية يخبره فيه عن انتصاره على المماليك حيث يقول : « ... ورد قاصد من عند ابن طربية أمير الدريب (الدريين في المفاكهة) مع مرسوم وصل اليه من ملك الروم ابن عثمان مكتتب في منزلة بولاق خارج القاهرة مؤرخ بيوم الاحد عاشر المحرم وفيه أن ابن عثمان دخل مصر يوم (٢٢١ ص) الثلاثاء خامس المحرم ووقع القتال بين الجراكسة يوم الاربعاء والخميس والجمعة ، وفي اخرها ليلة السبت فرت الجراكسة ، بعضهم إلى الصعيد ، وبعضهم إلى البحر ، وبعضهم إلى جهة الشام ، مكسورين ، ثم التحريض لابن طربية في مسك من يظفر (به) بالدرب من الجراكسة فشلّوا (كذا) الناس في هذا المرسوم» (٨)ويذكر ابن طولون نصا اكثر تفصيلا في كتابه «مفاكهة الخلان» حيث يقول فيه « ... ثم ان كان من الاعيان جهزه إلى القاهرة ، وان كان ممن دونهم أجهز عليه ، أن كان مجروحا ، والا قتله فشلوا (كذا) الناس في هذا المرسوم » (٩) .

ان احدى الوثائق العثمانية المحفوظة في مكتبة المحفوظات (أرشيف) متحف طوب قبو باسطنبول والتي يعود تاريخها إلى صفر سنة ٩٢٣هـ / آذار ١٥١٧ م ، تلخص لنا رسالة كان ابن طراباى ، الذي تذكر الوثيقة

اسمه طرباى بن قراجه ، وتصفه بانه احد شيوخ جبل نابلس ، قد بعث بها إلى السلطان سليم في مصر حيث تنص هذه الوثيقة (١٠) على ما يلي :

« جبل نابلس شيخلرندن أمير طراباي بن قراجه دن كلان مكتوب صور تيلر تقبيل ارضدن صكره مقام شريفة انها اولنان او الدركه بوعبوديتك تحريري وقتنده باب صدقات شريفه نك بنده سي اوغلوم كلوب ، انوك حقنده وقوع بولان انعا ملرى ، وسلطان عرب وخادم مدينة وحرمك سعادتله تحت مصره جلوسني وأعداد مخذولينه نصرني اعلام ايلدى . بوبنده أول حالتده الله تعالايه سجده شكر لرايلدي سلطان اسلامك سلامته نصره الله نصرا عزيزا. وبوبنده اوامر شريفه يه امتثال ايدوب، يوللروك حفظنده وبلادك وعبادك عمارتنده و قلان ارباب ورك لتعميرنده وامانننده مجد وساعي او هرب، سلطان اسلامك دوام ايامي دعاسنه خاص وعامي مشغول ايلمك ازرنه مداوم ومراسيم شريفه نك بروزنه قدم طاعت اوزره مطيع واقفدر ديمشى.

«صورة المكتوب الوارد من احد شيوخ جبل نابلس الامير طراباى بن قراجة :

«بعد تقبيل الأرض بين ايديكم فانه يريد ان ينهي الى المقام الشريف، أنه في الوقت الذي يسجل فيه عبوديته للسلطان قد حضر عبد باب الصدقات الشريفة ولده وبان عليه ماوقع بحقه من الانعامات (السلطانية) . وانه اخذ علماً بالجلوس السعيد لسلطان العرب والعجم وخادم المدينة والحرم على عرش مصر ، واخذ علما بانتصاره على اعدائه المخذولين. ومن جانبه في مثل هذه الحالة، سجد لله شاكراً على سلامة سلطان الاسلام، نصره الله نصرا عزيزاً. وفي مثل هذه الحالة ايضاً يذكر أنه ممتثل للأوامر الشريفة، من حيث حفظ الطرق وعمارة (تنمية) البلاد والعباد ، كما أنه مجدّ وساع في تعمير (اسكان) وتأمين أرباب الضرائب القادمين . (ويضيف) أن دوام ايام سلطان الاسلام هو دعاء الخاص والعام وانهم مشغولون بذلك ، وأنه مطيع واقف على قدم الطاعة عند بروز المراسيم الشريفة ».

ويرد في نفس الوثيقة خلاصة رسالة كان قد بعث بها طراباى بن قراجة لشخص تذكره تلك الخلاصة باسم حضرة محمد باشا، حيث جاء فيها:

«ومذكور طراباى بن قراجة محمد باشا حضر تلري داخي وجه مشروح مكتوب كوندروب، اوغلنه اولان احساندن انبراع صفالر سولاكين (؟) وفتح مصره وجلوس تخت يوسف صديقه عليه السلام فوق الحد بشارتلر ايلدكين، وليل ونهار خدمت اوزرنه وقوفده اشارت ايلمس».

المذكور طراباى بن قراجة يرسل كتابا آخر مفصل الى حضرة محمد باشا، ويذكر فيه انواع الصفا من الاحسان الذى (ناله) ولده.كما (١١) يبشره بشكل يفوق العادة بفتح مصر وجلوس (السلطان) على عرش يوسف الصديق عليه السلام، ويشير الى وقوفه على قدم الخدمة ليل نهار» .

من هذين التخليصين نستنتج ان احد ابناء طراباى كان برفقة السلطان سليم في طريقه لفتح مصر وهذا يؤكده ماجاء عند اوليا جلبي من أن آل طراباى كانوا على رأس الجيش العثماني المتوجه الى مصر (١٢). بعد أن نجح السلطان سليم في اخضاع السلطنة المملوكية في الشام ومصر وضم بلادها لسلطته يذكر ابن طولون ما يلي:

«فوّض الخنكار نيابة دمشق لجان بردى الغزالي ومعها من بلاد المعرّى (كذا والأصح بلاد القرى) الى عريش مصر على مال معين، قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار، وأضاف أمر الجراكسة بدمشق من الحجوبية الكبرى والثانية ودوادارية السلطان وأمرة ميسرة وغير ذلك من الامريات اليه (١٣).» والجدير بالذكر أن السلطان سليم كان قد اعطى نيابة بيروت وصيدا وتقديمة بلاد البقاع وما والاهما ونوى الى احدى الشخصيات الدمشقية المحلية المعروفة باسم محمد بن قرقماس (١٤).والأرجح أنه اعطى بلاد صفد بما في ذلك منطقة من مرج بني عامر لابن طربية حيث يذكره ابن طولون باسم «نائب صفد طربية» وعلى أنه كان من بين الذين خرجوا لوداع السلطان في طريق عودته الى اسطنبول (١٥).

أن المصادر التاريخية الشامية المتوافرة بين ايدينا لاتلقي ضوءاًعلىشكل العلاقة التي قامت ما بين طراباى بن قراجة والوالي المملوكي الجديد جان بردى الغزالي، الا ان المؤرخ محمد بن أحمد بن أياس الحنفي، المملوكي الأصل القاهري النشأة (ت. ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) يذكر مايلي: وفيه (ذو الحجة ٩٢٦هـ ١٥١٩م) قدمت الاخبار .

بان عربان بني عطا وبني عطية اتفقوا مع عربان طائفة السوالم وكسروا طراباى ابن قراجة شيخ عرب جبل نابلس ، وكان ملك الامراء (خايربك) انخلع عليه وعلى جماعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، وانعم عليهم بمال له صورة ، على انهم يلاقون جان بردى الغزالي ويحاربونه قبل ان يدخل الى القاهرة (١٦). ان هذا الموقف المتسم بالولاء التام للعثمانيين ، لاشك ، قد عزز من مركز طراباى بن قراجةلدى السلطان العثماني الجديد سليمان القانوني حيث أنه أصبح أكبر ملتزم للضرائب في بلاد الشام في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي.

ومن حسن الحظ ، أنه يوجد في مديرية المحفوظات باسطنبول دفتر طابو (١٧) يحمل رقم (١٩٢) ويعود تاريخه الى سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨ م يبين لنا أسماء القرى والمزارع التي كانت ضرائبها في عهدة طراباى بن قراجة . ولقد جاء في مقدمة هذا الدفتر النص التالي:

«دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها كما زين در تصرف طره باى عن امراء اعراب بودر حاليا ، بامر حضرت باديشاه نصاب خلد الله تعالى خلافته الى يوم الماب هميجو ممالك سايره ، باموافق شرع قويم ومطابق قانون قديم نوشته . رقع المحرر في شهر ربيع الأول من شهور سنة خمس واربعين وتسعماية هجرية».

«دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر وتوابعها ولواحقها كما هي في تصرف طرباى من امراء الاعراب حاليا . وتمت كتابته بما يوافق الشرع القويم ويطابق القانون القديم ، بامر حضرة الباديشاه نصاب العدالة خلد الله تعالى

خلافته، وكذلك سائر ممالكه الى يوم المآب. وكان تحريره في شهر ربيع الاول من شهور سنة خمس واربعين وتسعماية هجرية (سنة ١٥٣٨م)».

والقرى المناطة به كانت موزعة في عدد من النواحي على الشكل التالي :

ناحية سائل عثليث الغربي من مرج بني عامر

	السكان			
	خانة (١٨)	مجرد (١٩)	حاصل قسم من (٢٠) الربع / ١قجة	(٢١) حاصل قطعة أرض / ١قجة
١ . قرية صرفنده ص ١	١١	١	١٧٧١	١٢٠
٢ . قرية سوامر ص٢	٦	١	٤٩٦٠	
٣ . قرية اجرنه ص٢	٦		٣٩٦٩	
٤ . قرية جبا ص٣	٧		٣٦٠٥	
٥ . قرية ديرسياج ص٣	٨		٢١٦٨	
٦ . قرية حيفا ص٤	٢٠		٤٧٥١	محصول اسكله (ميناء) ١٠٠٠
٧ . قرية مارالياس ص٥	٥		٢٦٢٠	
٨ . قرية طيرة اللوز ص ٥ - ٦	٦٩	٢	٢٠٣١٠	
٩ . جماعت تركمانان سواحلي ص ٧	٣٢	٤	٢٢٦٦٠	
١٠. جماعت جماسين ص٨	٣٩		٥٨٩٠	

١١. قرية بيّما ص٨ – ٩ ١٠ ٣٦٦٠

١٢. محصول اسكلة (ميناء) طرطورة، اسكلة عثليث واسكلة طلوزه ص ٩ ٥٠٠٠

١٣. باح غفارة (٢٢) طرطورة عثليث ص ٩ ١٠٠٠٠

١٤. حواصل الطواحين (٢٣) ص ١٠ ٤٤٨٠

ناحية مرج بني عامر

١ . قرية رمانة ص ١١	١٦	٧٩١٤	١٢٠
٢ . قرية فين (؟) ص١١ – ١٢	٩	٤٠١٠	
٣ . قرية سولم ص ١٢	١٨	٤٩٠٥	
٤. قرية ناعورة ص ١٣	١٤	١٠٤١٨	
٥. قرية عنيدور ص ١٣	٩	٣٧٤٢	
٦. قرية زوعين ص ١٤	٩	٥٦٣٨	
٧. قرية نورس ص ١٤	١٥	٣٩٨١	
٨. قرية عرّانة ص ١٥	١٥	٨٩٠١	
٩. قرية جلمه ص ١٥ – ١٦	١٩	٧٨٣٠	
١٠. قرية خروبه ص ١٦	٤	٢٤٣٥	
١١. قرية كفردان ص ١٦ – ١٧	١٨ ١	١١٦٧٣	
١٢. قرية بيت قاد ص ١٧	٧	٣٣٥٠	
١٣. قرية جلبوت ص ١٧ – ١٨	١٢	٤٥٩٠	

١٤. قرية صندلة ص ١٨ ٥ ٢٢٩٠

١٥. قرية أكامنا (؟) ص ١٨ — ١٩ ٢٢ ٤١٧٥

١٦. قرية هربونة ص ١٩ ٥ ٣٥٥٦

١٧. قرية جنين ص ٢٠ ١٢ ٤٦٥٤رسم باج لحفارة ١٨٠٠٠

١٨. قرية المحتوص ٢٠ — ٢١ ٦ ٢٨٢٠ قطعة ارض ١٨٠

١٩. حيزور ص ٢١ ٦ ٢٨٢٠

٢٠. قرية دير غزالة ص ٢٢ ٩ ٣٩٣٩

٢١. قرية هرعرا ص ٢٢ ٨ ٣٣٧٨

٢٢. قرية عانين ص ٢٣ ٧ ٢٣٤٥

٢٣. قرية عابه ص ٢٣ ١٨ ٦٢٠٠

٢٤. قرية أم الفحم ص ٢٤ ٦ ٤٣٤٠

٢٥. قرية اليامون ص ٢٤ — ٢٥ ٣٧ ٣ ١٤٢٦٣
ص ٢٥ — ٢٦

٢٦. قرية سبرين (صبرين) الترابة ٣٤ ١١٦١٠

٢٧. قرية سبنين (؟) ص ٢٦ ٨ ٢٥٥٢

٢٨. قرية أم التوت ص ٢٦ — ٢٧ ٤ ٢٤٥٦

٢٩. قرية البيرة ص ٢٧ ٣٧ ١٣٣٥٨ طاحونة ١٠٠٠ ص٢٨

٣٠. قرية جدّ (جت) ص ٢٨ ٧ ٢٢١٦

٣١. قرية دنه ص ٢٨ — ٢٩ ١٠ ٢ ٢٩٥٢

٣٢. قرية طيرة القبلية ص ٢٩ ٥ ١٩٧٠

٣٣. قرية طيرة الشمالية ص ٢٩ — ٣٠ ٣ ١٩٤٢

٣٤. قرية قفين ص ٣٠ ١٤ ٣ ٥٤٢٥

٣٥. قرية لجون ص ٣١ ٢٣ ٤٦٢٠طاحونة باج غفارة خان ١٠٠٠ ٣٠٠٠٠

٣٦. قرية زبدا ص ٣٢ ٧ ٣١٨٩

٣٧. قرية ديرمروان ص ٣٢ — ٣٣ ٨ ٣٨٤٠

٣٨. قرية شيخ بريك ص ٣٣ ٢٣ ٧٢٦١

ناحية غوردر (في) لواء عجلون (ب)

١. قرية الجدايد ص ٣٤ ١١ ٢٠٠٠

. قرية المجدّعة ص ٣٤ ٦ ١٨٠٠مزرعتان ١١٠٠٠ ص٣٥

. قرية البيسا ص ٣٥ ٩ ٢٢٥٠ مزارع ٧٨٧٦ص ٣٥

ويعدد الدفتر اسماء خمسة و عشرين مزرعة في الغور خراب وعاطلة انذاك ص ٣٥ — ٣٧

ناحية بني كنانة (٢٤) در (في) لواء شام

١. قرية خرجا، ص ٣٩ ٣٠ ١٠٩١١

٢. قرية منداح ص ٤٠ ٢٣ ٧٩٠

٣. قرية سمر ص ٤٠ — ٤١ ٢٢ ٥٦٧٨ قطعة ارض ١٠٠

٤. قرية الدير يذكرها ايضاً باسم ١٣ ١٤٩٣
آخر (دير ابو ثلجي) ص ٤١—٤٢

٥. قرية محريا (؟) ص ٤٢ ٢٣ ٣٥٧٥ قطعة ارض ١٠٠

٦. خريبة الخارجية او خريبة الكروض (صَ ٤٣) حاليا خراب حاصلها في الاصل ٢٦٣٠

ناحية بني عاتكة (٢٥) در (في) لواء شام

١. قرية بيت أكّار ص ٤٤ ١٤ ٢٧٩٨ مزرعة ٥٦٤
مزرعتان خراب

٢. جماعت عرب ربيعه در (في) ٣١ ١٠٢٠ مزرعة ص٤٦
وادي مسعود ص ٤٥ ٧٤٠

ناحية بني جهمة (٢٦) در (في) لواء شام

عادث عربان مع البادهوا

١. طائفة اعراب منطور ص ٤٧ ــ ٥١ ١٢٣ ٤٨٢٩ مزرعتان في
عهدتها ٢٣٦٨

٢. طائفة عرب عمور ص ٤٧ ــ ٤٨ ٢٢ ١١٠٦ مزرعة في
عهدتها ١٣٦٨

٣. قرية سا!م ص ٥٤ ٦ ٢٤٨٤

٤. قرية ريحانة ص ٥٤ ــ ٥٥ ١١ ٥٢٧٠

٥. قرية جيّابوادص ٥٥ ٣ ٢٢٤٠

٦. قرية كوكب الهواص ٥٥ يذكر انها في اهالي
قرية البيرة ٤٤٤٠

ثم يذكر القرى التالية على أنها من بني عامر وحاليا خالية وخراب
حاصلها في الاصل/ ١ قجه

١. قرية كفرر ام ص ٥٦ ٢٦٧٠

٢. قرية طيبه ص ٥٦ ٢٤٧٠

٣. قرية أم الصوص ص ٥٦ ٢٩٠٠

٤. قرية منصورة ص ٥٦ ١٤٧٥

٥. قرية بلعم ص ٥٦ ١٢٦٠

٦. قرية شرابا ص ٥٧ ١٢٠٠

٧. قرية طيبة الأسم ص ٥٧ ٤٠٩٠

٨. قرية دير سودان ص ٥٧ ١٤٩٥

ثم يعدد الدفتر طوائف الاعراب في ناحية مرج بني عامر كما يلي:

د	خانة
١. طائفة بني زيد	٥
٢. طائفة العمور	١٠
٣. طائفة بني زيد	٣٠
٤. طائفة الظهور	٧
٥. طائفة العمرات	٧
٦. طائفة السلة (؟)	٦
٧. طائفة بني سالم	٦
٨. طائفة دعاكنة	٥
٩. طائفة بني سبرى	٥
١٠. طائفة ديونة	١٠
١١. طائفة فضيل	٣
١٢. طائفة برامكي	١٠

يذكر ان عادتهم (٢٧) عن قديم الزمان في السنة

هي ٣٠٠٠٠ / اقجة

ويذكر في ناحية مرج بني عامر قرية تليل ص ٥٨ — ٥٩ على أنها في عرب بني زعيب وان عدد سكانها ١٩ خانة وحاصلها قسم من الربع ٥٥٢٠ اقجة مزارع ٣٤٠٠، ٤٠٠٠ طا حونة، كما يشير الدفتر الى مزرعة باسم طوبانية على أنها في يد عرب بني زغيب وحاصلها ٢١٦٠ ويذكر جماعتين من الاعراب ترتحلان في مرج بني عامر ، الأولى تعرف باسم منجد ولد زين شرف ، والثانية باسم مجيد شرف ، وأن عادتهما من قديم الزمان ، أن يقدم كل منهما ، مقابل حق المرعى ، امهار تعادل قيمتها ثمانماية اقجة ص ٦٠

ويكشف لنا هذا الدفر عن وجود ٧٤ مزرعة في حالة من الخراب في مرج بني عامر ، (ص ٦٠ — ٦٦) .

در (في) ناحية قانون من نابلوس

أمام حاصل قسم من الثلث / اقجه

١ — قرية قباطية ص ٦٧ ٤٢ ١ ٢١٨٧٠

حاصل قسم من الربع

٢ — قرية باقا الشرقية ص٦٨ ٢٨ ٦٨٨٤

٣ — قرية بيت صاما ص ٦٨ — ٦٩ ٤ ٣٢٩٠ مزرعة ١٣٢٠

٤ — قرية جلقموس ص ٦٩ ٣ ١٢١٦

٥ — قرية جلمة بني سعد

٦٩ ٧٠ ٦ ١٧٥٦٢ مزرعتان خراب

من هذه الاحصاءات يمكننا ان نتصور مدى الثقة العثمانية بطراباى بحيث انه لم يوكل اليه ناحية من مرج بني عامر فقط بل قرى عديدة في ست نواح اخرى ، وكان عدد سكانها ١٢٥٥ خانة . وأن قيمة حواصل الدولة العثمانية من البلاد التي عهد بها إلى طراباى ٥١٦٨٤٤ اقجة .

زيادة على ذلك نجده يدمج في نظام التيمار الذي أدخل إلى البلاد الشامية ؛ فنجد في أحد دفاتر الطابو (دفتر رقم ٤٠١) الذي يعود تاريخه إلى حوالي سنة ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ اقطاعات مدونة باسمه (٢٨) . كما يشير إلى مثل هذا ايضا احد دفاتر المالية الذي يعود تاريخه إلى حوالي سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م .

ومما يلفت النظر أن الدولة كانت تتقاضى الضرائب من القرى ، باستثناء قرية قباطية ، بما يعادل ربع المحصول عينا أو بما يساوي قيمة ذلك الربع نقدا ، كما نلاحظ ان الدولة ، وهي في مطلع عهدها ، كانت تدون أسماء المزارع والمواقع الخربة ومقدار ما كان يحصل منها في حالة صلاحها، مما يؤكد الدقة من جانبها . أما من حيث السكان فانهم

كانوا مزيجا من أهالي القرى والاعراب (البدو) والتركمان ، كعنصر دخيل على المنطقة وبشكل عام لانجد في منطقة مرج بني عامر تجمعات سكانية كبيرة . وهذا ينسحب على العشائر التي ورد ذكرها في هذا السجل . فان متوسط أعداد كل عشيرة كان قليلا مما يوحي بانها كانت في طور الاستقرار. .وأخيرا فاننا نجد ان جميع السكان كانوا من المسلمين .

ان كتب التراجم المتوافرة بين ايدينا لا تذكر لنا شيئا عن طراباى قراجة هذا .ومن المحتمل ان تكون وفاته في اواخر عام ٩٥٩هـ ١٥٥٢م ، حيث يرد في احد تقارير والي دمشق الى السلطان اسم هذه الاسرة على انها في حالة عصيان ،بالاشتراك مع عشائر أخرى ، كبني حسن وبنبي ثوبه .وأن هذا التقرير يذكر ان ابن أخي طراباى ، بدون اعطاء اسمه بدقة ،و قد جاء الى دمشق يطلب العفونيابة عن هؤلاء العصاة ومنح ماطلبه الان السلطان يأمر الوالي في جوابه له باستدراج هؤلاء العصاة الى دمشق بأية وسيلة ممكنة لمعاقبتهم (٣٠) وعلى الأرجح ان اسرة آل طراباى قد عادت الى سيرتها الأولى من الموالاة وأن امورها قد اصبحت بيد الامير علي بن طراباى ، الذى يذكر سنة ١٥٥٩م على انه صاحب سنجق اللجون ،وانه كان من بين الحكام الذى تلقوا احكاما بإلقاء القبض على الشاه بايزيد عندما هرب بعد ثورته على أبيه السلطان سليمان القانوني، وكان يعتقد انه قد هرب الى الولايات العربية (٣١) . الا ان علي هذا لم يستمر في حكم اللّجون ،اذ أننا نجد في سنة ٩٧٢هـ/١٥٦٤م ، ان سنجق اللجون يعهد به الى شخص يعرف باسم كمال بك ، الذى شارك حاكم سنجق نابلس المعروف باسم حسن بك ، في اقتراح مفاده ترميم القيسارية بجنين وتحويلها الى قلعة يقيم بها خمسون جنديا لتأمين سلامة الطريق الى مصر والقدس ولاعمار المنطقة ،مما يوحي بان حالة من الفوضى كانت قد عمت تلك البلاد ،وربما كان آل طراباى طرفا في ذلك ، وهذا مما ادى الى عزلهم (٣٢) .الا ان الحظ عاد وابتسم لهذه الاسرة فآلت زعامتها الى شخص يعرف باسم عساف الذى واظب على حراسة الطرق ووفر الامن للمسافرين

بحيث ان السلطان نتيجة لتوسط الامير رضوان بن مصطفى شاهين امير غزة ارسل له حكما شريفا باللغة العربية جاء فيه مايلي :

"هذا مرسومنا الشريف العالي الخاقاني ، وكتابنا المنيف السامي السلطاني : قد أرسلنا إلى الأفندي الكبيري الأمير عصاف (كذا) دام مجد (ه) ينبي اليه افتخار الامراء العظام رضوان (٣٣) الأمير بلواء غزة، قد أرسل الكتاب إلى سدتنا السنية الاعتاب ، فلما كشف لدينا وتلا (كذا) بين ايدينا فوقفنا على مافيه واطلعنا بجميع مايحويه من شجاعتك وحسن فراستك وحفظ الطرق المارة من لواء لجون إلى شام ومصر القاهرة وحراستك من مضرات قطاع الطريق وسوء اعمال الرقيق بحيث لم يأت الضرر والخسران والقصور والنقصال (كذا والأصح النقصان) لاموال ايتام (ابناء) السبيل وأنفسهم والمتوطنين في البلاد من البغي والفساد، أظهرنا فيك مراحمنا الجليلة السلطانية وعواطفنا الجميلة الخاقانية ، فأصدرنا هذا الكتاب ووشحنا بالخطاب المستطاب فاذا فصل (وصل) اليك مرسومنا هذا الكتاب ان كنت ثابت الاقدام في الامتثال بما أمرت وسعيت في الخدمة بالاستقامة والاقدام وأنهى أمير الأمراء حسن اطاعتك بخلوص الفؤاد إلى سدتنا السنية الشامخة العماد فأظهرنافيك عواطفنا العلية وعوارفنا الجليلة وخلصنا جميع مأمولك وقبلنا كل سؤالك ان سألته (٣٤) والظاهر انه قد اثبت كفاءة بحيث اعطي سنجق اللجون ، وأنه في سنة ٩٨٧هـ / ١٥٧٩ يعرض للسلطان مدى خدماته في حفظ وحماية الطرق إلى القدس ومصر وأنه يلتمس مقابل ذلك أن يعطى سنجق نابلس متعهدا بضمان امن الطرق ودركها من القنيطرة حتى حدود سنجق غزة والقدس ، ويتعهد بجمع الضرائب بما في ذلك المتأخر دفعها على الفلاحين والملتزمين منذ عشرة سنين . زيادة على ذلك يقوم بتعمير الطرق الخربة بالاضافة إلى بنائه برج على نفقته الشخصية بالقرب من القلنسوة إلى الشمال الغربي من نابلس مابين القاقون وجلجوليه على الطريق إلى القاهرة ، حيث تتجمع قطاع الطرق حيث سيقيم عدد من الجنود لتوفير الحماية .

وجواب السلطان يسمح له فقط بجمع الأموال المتبقية ، كما يطلب السلطان من دفتر دار دمشق (٣٥) تقريرا حول المواضيع التي ذكرها عساف (٣٦) ، ونرى ان الدولة سنة ١٥٨١ تكلف عساف هذا بعد التقارير التي وصلتمن قضاة دمشق وصفد وعكا حول تدهور الحالة الآمنيه الناجمه عن تعرض البدو للتجار والحجاج في منطقه عيون التجار ، باسفر مع رجاله للاقامهفي عيون التجار إلى أن يتم تشييد قلعة هناك (٣٧) . والظاهر أن حركات العصيان قد تفاقمت ولم يعد بامكان عساف اخضاعها وربما كان طرفا فيها، بحيث أن السلطان في ٢٧ صفر سنة ٩٩١ / ٢٢ آذار ١٥٨٣ ، يصدر حكما شريفاً بطرد عساف من حكم سنجق اللّجون وعين شخصا اخر مكانه يعرف باسم ابراهيم بك الذي طلب منه ومن أصحاب الزعامات والتيارات بعد اعفائهم من المشاركة في الحملة على بلاد فارس ، بالانصراف الكلي لاخضاع البدو العصاة، .حتى طلب من سناجق غزة وعجلون والكرك والشوبك التعاون مع ابراهيم بك المذكور . ولقد تفاقم الوضع بحيث طلب من والي دمشق نجدة ابراهيم بك بمائة انكشارى واستعانت الدولة بعشائر القزق التركمانية المجاورة وبأحد الزعامات المحلية من ناحية بني كنانة الذي كان يعرف باسم الشيخ احمد الكناني (٣٨) . ويبدو أن الدولة العثمانية قد لجأت إلى أسلوب الابعاد والنفي ، اذ يجيء في حكم شريف تاريخه سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م أن عساف هذا كان قد أبعد إلى جزيرة رودس وأنه التمس من السلطان أن يسمح له بأداء فريضة الحج — كما التمس من السلطان ان يعطيه سنجق اللّجون ومقابل ذلك يتعهد باعماره وبالعمل على ازدهاره بعد الخراب الذي لحق به . وكان جواب السلطان ان يسمح له بالاقامة في بلدة اللّجون وان يوكل اليه حراسة المنطقة من القنيطرة إلى القاقون واذا ماعمر هذه المناطق من جديد كما تعهد بذلك وشهد بذلك والي دمشق فان حكما شريفا كان سيصدر له باعطائه السنجق الذي طلبه . وفي العام التالي، ٩٩٨هـ / ١٥٨٩م، نجد عساف هذا يذهب إلى دمشق للحصول على الحكم الشريف

فقبض عليه وخنق هناك. والجدير بالذكر ان والي الشام آنذاك كان قد تخلص من عدد من الزعامات المحلية كالأمير علي الحرفوش والأمير منصور بن فريخ الزعيم البدوي السني في البقاع (٣٩).

ان التخلص من عساف لم يكن يعني نهاية الأسرة بل اننا نجد بروز شخص آخر من نفس الاسرة يعرف بطرا باي بن علي الحارثي ويوصف بأنه أمير اللجون (٤٠) . ونجد أن السلطان يوكل اليه سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٤م أمور سنجق غزة أيضا أثناء غياب اميرها عندما كان أميراً للحج (٤١) . وحافظ طراباى هذا على منصبه إلى حين وفاته سنة ١٠١٠هـ ١٦٠١م (٤٢) . حيث خلفه في منصبه ابنه أحمد الذي لعب دورا بارزا في تاريخ بلاد الشام الجنوبية .

لقد اتسم العقد الأخير من القرن السادس عشر والثلث الأول من القرن السابع عشر بظاهرة التمرد والعصيان في بلاد الاناضول التي اكتسحتها الحركة الجلالية . كما أن الزعامات المحلية في بلاد الشام بدأت تغتنم فرصة فقدان الضبط والربط بين القوة العسكرية العثمانية المقيمة في القلاع أو من قبل أصحاب التيمارات ، فأخذت توسع من دائرة نفوذها على حساب السلطة العثمانية ولكن ضمن اطار هذه الدولة . ومما زاد الطين بلة أن قسما من أفراد القوات العسكرية العثمانية بدأت تهرب من الخدمة لتؤجر نفسها كمرتزقة وهو ما يعبر عنه عادة بأسم حركة السكبان . والجدير بالذكر ان قسما من القوى المحلية وعلى رأسها الأمير الدرزي فخرالدين المعني أسس جيشا نظاميا محترفاً قوامه هؤلاء السكبان وبذلك لم يعد يعتمد على قوة طائفته ، وتوسع في بناء القلاع وشحنها بالجنود والمؤن والذخائر . كل هذه الأسباب كانت وراء القرار الذي اتخذته الدولة العثمانية بانهاء حربها مع امبراطورية النمسا وتوقيع معاهدة ستفاتاروك معها سنة ١٦٠٦ sitvatarok لتتفرغ لمعالجة مشاكلها الداخلية (٤٣) .

أما فيما يتعلق ببلاد الشام عموما وجنوبيها على وجه الخصوص فان السكان كانوا على قسمين : قيسيه برئاسة فخرالدين المعني ويمانيه برئاسة يوسف باشا سيفا (ت ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م) (٤٤) . كما أن ظاهرة التحزب بدت تدب بين أفراد القوة العسكرية العثمانية في بلاد الشام وبدأت تتدخل في القضايا المحلية وأصبح هناك جناح بين العسكر برئاسة شخص يعرف باسم كيوان (٤٥) يؤيد القيسية ، وجناح آخر برئاسة كورد حمزة يؤيد اليمانيه. فمن أجل فهم ابعاد هذا الصراع يجدر بنا أن نذكر ولو بشكل مقتضب القوى العشائرية في المنطقة وموقفها من الصراع لنرى الدور الذي لعبته الأسرة الحارثية إزاء ذلك . ففي حوران كانت هنالك قوتان عشا ئريتان متصارعتان : عشائر المفارجة برئاسة عمرو بن جبر ومن بعده ابنه حسين وكانت مواليه لفخر الدين المعني ؛ وعشائر السردية برئاسة رشيد بن سلامه بن نعيم وكانت عنصراً بارزاً في الجناح اليمني (٤٦) وكان موضوع الصراع في حوران يدور على المشيخة إذ أن الحصول عليها كان يقتضي حكماً سلطانياً شريفاً. وتذكر المصادر أنه كان في حوران أيضاً عشائر زبيد (٤٧) الذى كما يبدو لم تلعب دورا بارزاً . أما منطقة عجلون فكانت تحت زعامة الاسرة الغزاوية من الجناح القيسي وكانت تأخذ جانب فخر الدين المعني الا انها بسبب انقسامها وخلافاتها الداخلية تمكن حليفها فخر الدين من الحصول على سنجقها لابنه حسين الذي كان يبلغ من العمر سنتين (٤٨) . ويشار إلى قوة أخرى في ناحية بني كنانة بزعامة أحمد الكناني (٤٩) الموالي لفخر الدين . ويذكر أحمد الخالدي الصفدي عادة « رجال بني عبيد » (٥٠) ولكن لانجد زعامة بارزة لهم ويبدو أنهم كانوا من شيعة الأسرة الغزاوية ، أما في منطقة البلقاء فتذكر عشائر الجحاوشه والدعجة (٥١) . وتذكر المصادر عشائر بني عطية ، وبني عطا ، والسوالمه، والعايد (٥٢) في كل من جنوبي الاردن وفلسطين . أما في منطقة ريف حماه فكانت عشائر آل فضل والمشيخه للاسرة الحيارية (٥٣). ومما يلفت النظر أنه مع مطلع القرن السابع عشر بدأ شيعه

جبل عامل بالهجرة إلى منطقة صفد وأصبحت المصادر تشير اليهم بإسم « بنو متوالي» ومن ابرز زعامتهم بيت منكروبيت على الصغير وبيت شكر ويشار للبيتين الاخيرين كمشاريع بلاد بشاره (٥٤).

اذا نظرنا إلى المرحلة التي تولّى فيها الأمير أحمد بن طراباى الزعامة والحكم في سنجق اللجون نجد أنها فيما يتعلق بالدولة العثمانية كانت دائماً وأبداً تتصف بالولاء المطلق ، وأن المصادر التي بين ايدينا لاتشير إلى استخدامه أو أعتماده على الجنود الهاربين من السكبان. أما فيما يتعلق بعلاقاته مع الأسرة المعنية بزعامة فخر الدين المعني ، كرئيس للجناح القيسي أيضاً ، فاننا نجدها تمر في ثلاثة أدوار :

١. دور المسالمة مع القيام بالتزاماته نحو الدولة العثمانية .

٢. دور الاصطدام مع المعنيين والحاق الهزيمة العسكرية بهم .

٣. دور المصالحة .

دور المسالمة

ان هذا الدور اتسم بالحياد تجاه القوى المتصارعة في المنطقة . فمثلا عندما ثار الزعيم الكردي علي باشا جانبلاط انتقاما لمقتل عمه حسين باشا جانبلاط وكانت الدولة العثمانية مشغولة في حروبها مع بلاد فارس والحركة الجلالية تكتسح الاناضول ، نجد أن يوسف باشا سيفا الزعيم السّني في عكا وطرابلس يعرض خدماته على الدولة ليكون قائداً لقواتها لاخضاع علي باشا هذا . ولقد وافقت الدولة على طلبه الا أن علي جانبلاط تمكن من الحاق هزيمة بيوسف باشا سيفا وبمن معه من القوات في معركة قرب حماه سنة ١٠٢١هـ / ١٦١٢ م اضطر على أثرها أن يهرب إلى طرابلس الشام ومنها في البحر إلى حيفا . ويصف البوريني وصوله والمعاملة التي لقيها من أحمد الحارثي كما يلي : « فكان خروجه من ساحل حيفا وهي داخلة في ولاية الأمير أحمد ابن الأمير طرباى من عرب حارثة . وخرج إلى حيفا

بسبعة رجال ولو أراد ابن طرباى لملكه وقتله واخذ جميع ما معه لأنه كان معه من قسم النقد ما يزيد على مئة كرة من الدنانير كل كرة مئة الف (هذا المبلغ بالطبع مبالغ فيه) ، غير أن الأمير أحمد بن طرباى اخذته اريحية الامارة وقال للأمير يوسف : ياعم والله لو كان عندي مال لساعدتك به . ولكن أنا فقير من المال وعندي خيل عتاق . فأعطاه من الخيل خمسة ليس لها ثمن لكمال جنسها وأصالتها ، وقام في ضيافته ومساعدته وعفّ عن ماله وكثرته بل أرسل اليه ابن جانبلاط ان يمسكه وماله له وما يريد منه الا رأسه وأن يرسله اليه حيا فأعرض عن ذلك كلّه ، وقال دخل في جوارى وثبت بدخوله إلى دارى . والمال يزول والثروة تحول ولا يبقى سوى الثناء الجميل وأما الدنيا فانها ذاهبة عما قليل (٥٥) » .

وكان مبدأه الرئيسي أنه اذا ما قرر والي الشام محاربة فخر الدين فان أحمد بن طرباى لم يكن ليتردد في تغليب مبدأ الولاء للدولة على المسالمة مع المعنيين . لذا نجده يشارك سنة ١٠٢٢ هـ / ١١٦١٣ م في محاصرة فخر الدين خشية أن يهرب إلى البرية (٥٦) .

بل زيادة على ذلك يشارك في محاصرة الشوف من جانب نهر صيدا (٥٧)، وعندما يجرد والي الشام حافظ احمد باشا،حملة للمرة الثانية سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م ضد القلاع المشحونة بالسكمانية والعتاد ،نجد ان الأمير أحمد الحارثي كان من ضمن الزعامات المحلية التي شاركت في تلك الحملة (٥٨). الاان الملاحظ أنه لم يتماد في معاداة المعنيين بمقدار ماكان يساير الوالي .لذا نجد الأمير المعني بعد عودته من ايطاليا سنة ١٦١٧ يستقبله الزعماء المحليون .« والأمير أحمد بن طراباى ارسل كتنخداه بتقدمه الخيل أيضا التي ترتضيها الغواة » (٥٩). ا

في هذه المرحلة نجد أن الأمير الحارثي يصبح ملجأ للزعامات المشردة . وليس الأمير يوسف باشا سيفا هو المثال الوحيد ،فالأمير حمدان بن قانصوه الغزاوى امير سنجق عجلون بعد عزله سنة ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م اصبح مطلوباً

لوالي الشام فينقل أهله «لعند الأمير أحمد بن طرباى لحارثه وراعاهم (٦٠) وعندما يباشر فخر الدين بعيد عودته بجمع الضرائب المتبقية ويشتط في ذلك ،نجد بعض الزعامات كأولاد شكر وابن منكر تهجر بلادها الى بعلبك فيهدم فخر الدين بيوتها ويضبط غلالها . كذلك يهدم فخر الدين حارة أحمد قريطم الكائنة في قرية كفر ياسيف من ساحل عكا بعد هروبه الى بلاد أحمد الحارثي (٦١) . وعندما طرد أحمد بن حمدان بن قانصوه الغزاوى عن سنجق عجلون ليعطى الى عمه بشير وعزل عمرو بن جبر عن مشيخة حوران لتعطى الى الشيخ رشيد بن سلامة ابن نعيم ، قصدا فخر الدين المعني يطلبان مساعدته ،الا ان فخرالدين اعتذر عن ذلك لأن فروخ باشا (٦٢) أمير سنجق نابلس والأمير بشير والشيخ رشيد تعهدوا ببناء قلعة في المنطم واذا تدخل فربما يتأخر العمل ويلام على ذلك ، لان الأعراب كانت تعترض الحجاج في ذلك الموقع . ازاء ذلك نجدهما يقصدان بلاد الأمير أحمد الحارثي حيث توفي عمرو هناك ليدفن في جنين .وأما أحمد فانه قصد اسطنبول ليسعى في الحصول على حكم شريف بسنجق عجلون ، وعندما عاد في العام التالي سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢١م بمثل هذا الحكم فان والي دمشق لم يعطه السنجق بسبب طلوع الحجاج ولم ينل ما كان يتوقعه من مساعدة من جانب فخر الدين لأنه كان يسعى للحصول على هذا السنجق لأبنه الطفل حسين (٦٣) ،فاضطر أحمد ان يتوجه الى أهله الذين كانوا يقيمون «بتراب الأمير أحمد طرباى (٦٤)». الا ان الأمير بشير قام بكبس ابن أخيه أحمد ونهب بيوته مما كان سببا في تضايق الأمير احمد الحارثي الذى كان متزوجا من اخت الأمير احمد ،فكتب بذلك الى فخر الدين يطلب منه مساعدة أحمد في الحصول على سنجق عجلون «فأعطاه اقراراً بالمساعدة وأن يقوم معه بالجهد والمبادرة » ولقد تسلم أحمد السنجق المذكور فعلا . ويظهر ان احمد الحارثي كان قد اوفد ابنه طراباى إلى فخر الدين بهذا الخصوص حيث يذكر الخالدى الصفدى :«وبعد اتمام ذلك راعى الأمير

فخر الدين الأمير طرباى امل رعاية واعطاه دراهم وخيلا وغير ذلك ووجهه إلى والده الأمير أحمد مجبوراً »(٦٥).

٢ ــ دور الاصطدام

ان المرحلة الثانية من تحول العلاقات من علاقات سلمية اى فاترة ومن ثم اى تصادم كانت قد بدأت في عام ١٠٣٢هـ /١٦٢٢م وخلاصة الأمر ان أحد وكلاء فخر الدين المعني المعروف باسم مصطفى كتخدا كان قد وقع بينه وبين أحد مشايخ نابلس الذى كان يعرف بأسم الشيخ عاصي منافرة ادت الى تصادم نتج عنه انهزام كتخدا مصطفى والقوات التي كان يعرف قد ارسلها فخر الدين له على سبيل التقوية من عجلون بقيادة أحمد الكناني. وكان أحمد طراباى متزوجا من أخت الشيخ عاصي ،وبالرغم من ان احمد نفسه كان على علاقة فاترة مع مصطفى كتخدا بسبب الخلاف على قرية قباطية وبعض مزارع ،فانه تدخل للصلح » وتكفل أنه يمشي على خاطر مصطفى كتخدا في مصالح البلاد جميعها »(٦٦). في هذا العام بالذات كان الأمير بشير الغزاوى سنجقا بعجلون ،الا ان فخر الدين تمكن من الحصول عليه لابنه حسين ليواجه بمعارضة أحد اجنحة العسكر في دمشق برئاسة كورد حمزة الذى كان مسيطراً على الوالي وبسبب ذلك اعيد اعطاء السنجق لبشير ،ورغبة في اضعاف مركز فخر الدين اعطي سنجق صفد مصلر قونه للأمير يونس الحرفوش الشيعي من بعلبك (٦٧). وسط خضم هذه التحولات السريعة خلال شهر واحد (ذو القعدة) رحل فخر الدين الى جسر المجامع على نهر الاردن للالتقاء بأعوانه بما فيهم الشيخ أحمد الكناني ،وهناك قام احمد الكناني باطلاعه على مكتوب جاءه من احمد الحارثي » بخطه وختمه مضمونه ان يكون في جانب الأمير بشير مساعداً له .فلما رأى الأمير فخر الدين هذا المكتوب تغير خاطره على الأمير أحمد لأنه ما كفاه إلقاء الفتنة بين مصطفى كتخدا والشيخ عاصي حتى صار يمانع عن سنجق عجلون. فعند ذلك ارسل الأمير فخر الدين للأمير احمد بن طرباى النقا بحضور من كان حاضرا ذلك وأخبره أنه عليه قوماني،

وبادر فخر الدين بمسك برج قرية حيفا (٦٨) وحرق جميع قرايا الكرمل لأن الذين كانوا يتزحون من بلاد صفد كانوا يذهبون اليها، «ورحل غالب أهالي قرايا ابن طرباى في بلاد صفد (٦٩)» . أمام هذه التطورات اضطر الأمير الحارثي ان يأخذ معه حليفة الجديد الأمير بشير الغزاوى وان يهجر بلاده باتجاه نهر العوجا (٧٠)؛ ليقوم فخر الدين على رأس الفين وثمانمائة من السكبان بالاضافة إلى عشائر حسين بن عمرو من المفارجة باحتلال تلك البلاد والتمون منها . ومن جنين جرد فخر الدين ألف وخمسماية فارس ووصل الى نهر العوجا لينهب مواشي وبيوت احمد بن طراباى الذى بتعاونه مع عرب السوالمة استطاع ان يلحق هزيمة بعساكر فخر الدين على نهر العوجا وحقق انتصاراً كبيراً بحيث ان الخالدى الصفدى يذكر ذلك بقوله «وصارت هزيمة من جانب الحق سبحانه وتعالى وليس هذا مما يعيب الأمير فخر الدين لأن الحرب سجال تارة وتارة ، والرجال في الحرب لم تزل غدارة» بعد هذا النصر تمكن الحارثيون والسوالمة من استرجاع ما فقدوه من جهة وبالحاق الأذى بجيش فخر الدين المنسحب الذى ما كاد يصل الى قرى نابلس حتى اصطدم بأهاليها من جهة أخرى، في هذا الوقت بالذات بدأ الجناح العسكرى المعادى لفخر الدين في دمشق بالضغط على الوالي للخروج ضد فخر الدين فاستجاب لطلبهم وكذلك خرج معه آل سيفا وآل الحوفوص . لذا أمر فخر الدين قواته وأنصاره في عجلون والغور وادى اليتم والشرف بملاقاته في البقاع حيث وقعت معركة عنجر التي كسر فيها والي الشام وانتصر المعنيون على منافسيهم ولقد اغتنم الحارثيون فرصة خلو المنطقة من جنود موالية لفخر الدين فهاجموا سواحل عكا، وبلاد كفركنا وأخذوا طرشها وغلالها وصيروها دكّاً «واستمر وا على ذلك الى ان وصل اليهم خبر كسرة عسكر الشام فكفوا ايديهم عن اذى الرعايا وصاروا يكاتبون ويدخلون بالصلح خوفا من ان يحل بهم ما حل بغيرهم» (٧١) وكان من ثمار انتصاره في معركة عنجير ان فخر الدين تمكن من الحصول على سنجق اللّجون، عرين البيت الحارثي، لابنه منصور (٧٢). لقد قابل

احمد الحارثي هذه الضربة بأن جرّد عرب السوالمة وخيالة بلاد نابلس وخيالة بلاد عجلون والغور والأمير بشير الغزاوى ،واغتنم فرصة انشغال فخر الدين بحصار بعلبك ليهاجم حسين بن عمرو بن جبر شيخ المفارجة واحمد حمدان بن قانصوه الغزاوى في الجولان فهرب الأخيران الى فخر الدين الذى وعدهم بالتوجه الى الجنوب (٧٣).وكان ذلك التوجة في شعبان سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣ (٧٤)مما اضطر أحمد الحارثي ان يرحل مرة أخرى الى الرملة وأخذ بمراسلة فخر الدين طالبا الصلح «فصار اتفاق بأمر الأمير فخر الدين برد الجواب ان هذا لايصير الا اذا كنت تطيع وتنقاد وتقابل الأمير فخر الدين فحينئذ يقال لك الماضي لايعاد وجميع ما تومله من جلب النفع والخير وملب الضر والضير ورجوع بلادك اليك وابقاء المودة عليك يحصل لك كما تحب وتختار وراح الجواب اليه بهذا المضمون ينظروا منه الذى يكون » (٧٥) ومن القاقون رحل فخر الدين الى نهر العوجا حين كان احمد الحارثي مخيما على الجهة الغربية حيث بدأت سكمانية فخر الدين باجتياز النهر بدون راية فتظاهرت السوالمة والحوارث بالهزيمة ثم اندارت على عسكر فخر الدين الذين تجاوزوا النهر فهزمتهم فاندفعت الى ورا وجعلوا يمشون القهقرى فتقلقلت الآلاية الكبيرة جميعها وصارت كسيرة وقامت الغبرة واضحت الاقطار مكدره (٧٦) وكما هي في المرة الاولى بدأ أحمد الحارثي وعشرانه والسوالمه وعرب العايد وعرب غزة بملاحقة جيش فخر الدين المنهزم الذي خسر مائة وخمسين رجلا بينما الحارثيون خسروا نحو عشرة ووجد جيش فخر الدين منجاة له في البندق ضد البدو كما ان سفينتين «غلياطتان» (٧٧) مسلحتين كانتا تساهمان في دفع البدو . بجانب ذلك ، تمكن رجال أحمد الحارثي من استرجاع جنين (٧٨) وقوى ساعدهم عندما أقدم والي الشام مصطفى باشا على اعطاء سنجق عجلون للأمير بشير واعادة المشيخة للشيخ رشيد بن نعيم (٧٩) . ولقد اغتنم أحمد الحارثي هذا التحول فاطلق أيدي أخوانه وابنائه في مهاجمة بلاد فخر الدين ونهبها (٨٠) .

٣ – دور المصالحة

واستمرت الامور على هذه الوتيرة إلى ان تم الصلح في العاشر من شوال سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣ م» و صار بين الأمير فخرالدين وبين الأمير أحمد بن طرباى مكاتبات ومراجعة ومراسلات ، وحصل الاتفاق بينهما ان الأمير فخرالدين بن معن يرفع سكمانيته من برج حيفا وان الأمير أحمد بن طرباي يمنع عربانه عن التخريب في بلاد صفد وتصير المصافاة بينهما على بعد ، ففعل كل منهما ذلك غير ان الأمير أحمد بن طرباى ارسل هدم برج حيفا المذكور بعد خروج السكمانية منه ومشت الدروب بين بلادحارثة وبلاد صفد وما عاد احد يتعرض إلى احد » (٨١) . وفي ذى الحجة من العام ذاته سافر فخر الدين إلى المنية وصارت بينه وبين الأمير أحمد مراسلات : ومما تجدر الأشارة اليه ان الأمير بشير العزاوي يعود إلى سنجق عجلون ولكن وكيلا لحسين بن فخرالدين (٨٢).الا ان هذه المصالحة لم تدم طويلا اذ انه يذكر في اخبار سنة ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٣ م ان الأمير علي بن فخر الدين حرك عرب الوحيدات (٨٣) ضد الحارثين الذين يردون على ذلك بمهاجمة بلاد صفد (٨٤) .

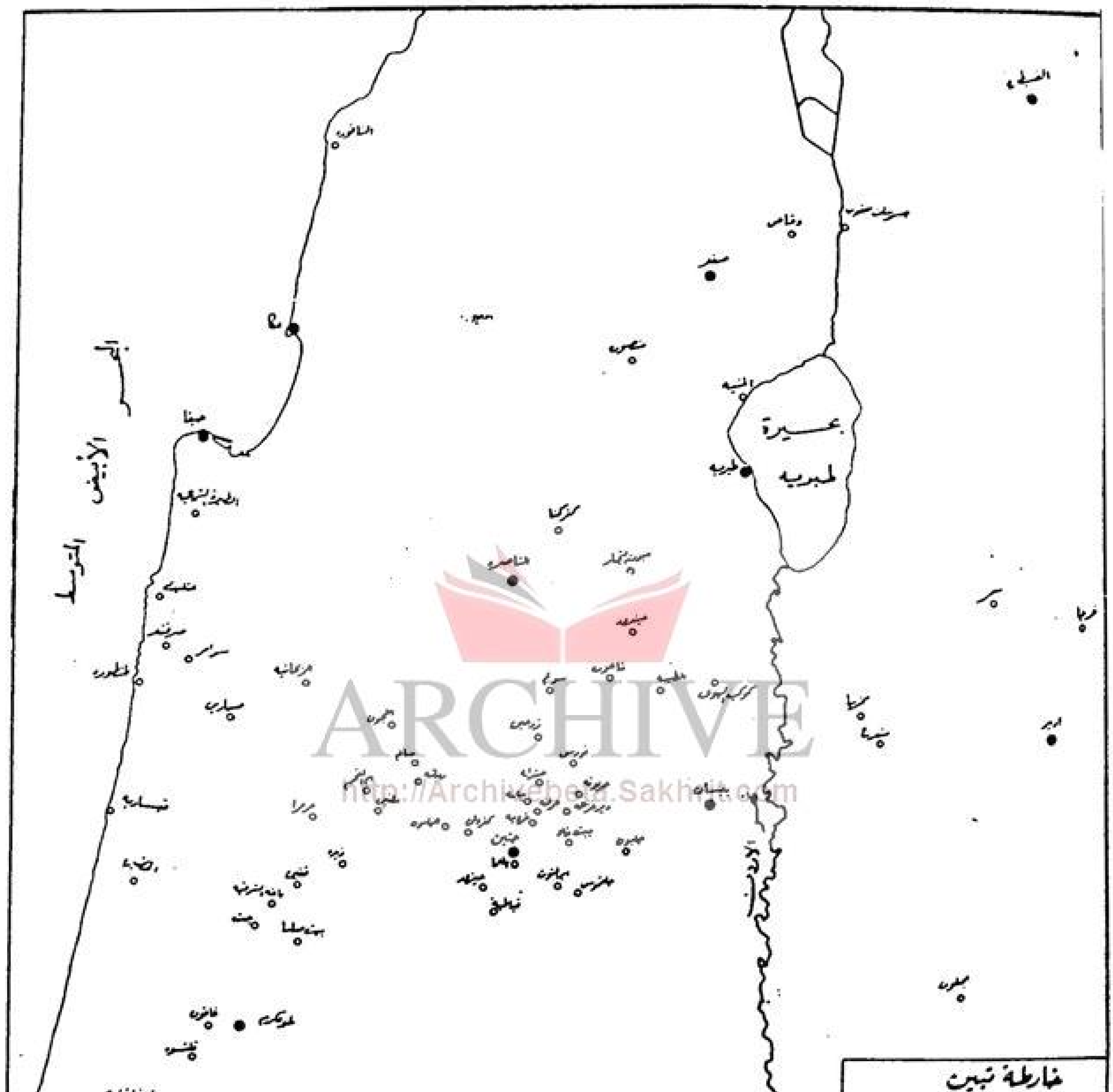
لقد كانت وفاة الأمير أحمد الحارثي سنة ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧ م وقد قارب الثمانين . ولقد وصفه المحبي بقوله : « وأحمد هذا نبغ من بيتهم (البيت الحارثي) وحيدا في المفاخر والشجاعة وكان له الرأي الصائب والطالع المسعود والعهد الوفي ... ووقع بينـــه وبين فخر الدين بن معن حروب كثيرة ، وكان ابن معن توجه إلى بلادهم ثلاث مرات للمحاربة ورحل ابن طرباى إلى الرملة وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ويدحضه (٨٥) » .

يذكر الخالدى الصفدى ، وهو اكبر مصدر عن بني حارثة في القرن السابع عشر ، عددا من ابناء هذه الأسرة ، منهم عرار (٨٦) ومحمد (٨٧) أخوا الأمير أحمد الحارثي ، ويذكر الأمير طرباى بن أحمد الذي اوفد مرتين من قبل والده إلى فخرالدين المعني في سنة ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م و١٠٣١هـ / ١٦٢١ م، وكما ذكر اعلاه فلقد أحسن فخرالدين معاملته (٨٨) .

ويرد اسم ابن له هو الأمير علي بن طراباي بن أحمد الحارثي من الذين اغاروا سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢ م على سواحل عكا واقلق المعنيين (٧٩). الا ان خليفة الأمير أحمد الحارثي بعد وفاته كما يذكره المحبي كان ابنه الذي كان يعرف باسم زين الذي لايرد له ذكر في المصادر قبل ذلك. ولعل المقصود بزين هو الأمير على جريا على عادة اتخاذ الأسماء المركبة. يصفه المحبي بانه كان « شجاعا عاقلا حليما (٩٠) ». وبعد وفاته تولى الحكم اخوه محمد (ت ١٠٨٢هـ / ١٦٧١ م). ومما هو جدير بالذكر ان الرحالة الفرنسي D'Arvieux كان قد زار الأمير محمد هذا حيث عمل كسكرتير عنده، ويصفه بانه كان مولعا بالحشيش الا أنه مع ذلك كان يواظب على القيام بواجباته من حفظ الطرق وحماية التجار والبريد كما ساهم في اخضاع احدى حركات عصيان الفلاحين في نابلس (٩١) وكان أوليا جلبي (٩٢) (١٠٢٠هـ/ ١٦١١م ـــ ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م) الرحالة العثماني قد زار فلسطين مرتين سنة ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م، وثانية سنة ١٠٧١هـ /١٦٧٠م، ويذكر عن بني حارثة: « انهم يتبعون المذهب الشافعي، وانهم يتصفون بالكتمانية. ولديهم نحو عشرين الف فارس وخيولهم من نوع الكحيلان، وعدد بيوتهم مبعماية وهي مبنية من الطين والشيد. ويوجد لديهم مسجد جامع ومساجد اخرى صغيرة وهذا بالاضافة إلى دكاكين صغيرة. ويشير إلى أنه كان ضيفهم ليلة واحدة، وان الشيخ- الأمير كان قد قدم له فرسا وخمسين غرشا (٩٣).

بعد وفاة محمد هذا سنة ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م تحولت الأمارة لابن اخيه زين حيث يذكر المحبي وقام « من بعده ابن اخيه زين المذكور و(على الأغلب الواو هنا زائدة) ثم يوسف بن علي بن عمتهم (على الارجح ابن عمهم) إلى سنة ثمان وثمانين والف (١٦٧٧م) فخرجت الحكومة عنهم. بعد ذلك اصبحت حكومة اللجون بيد وال عثماني يعرف باسم احمد باشا الترزي (٩٤). والجدير بالذكر ان الشيخ القطب الصوفي عبدالغني النابلسي(٩٥)

(ت ١١٤٣هـ / ١٧٣١ م) كان قــد زار بلاد جنين في طريقه إلى القدس سنة(١١٠١هـ / ١٦٨٩م) حيث يسجل لنا ما يلي : — « وزرنا ما حوله (جنين) من مدافن الامراء بيت طرباي الذي كانت بلدة جنين في ايديهم سابقا واجتمعنا بمن بقي من امرائهم هناك وقد صاروا مغاربا للإمارة بعدما كانوا لها مشارقا (٩٦)» . ان هذه الأسرة لم تكن لتمضي دون ان تترك قرية منسوبة اليها هي سيلة الحارثية ، وان الفراغ الذي تركته لم يستمر طويلا ، اذ مع اطلالة القرن الثامن عشر الميلادي تحل محلها الأسرة الزيدانية.


البحر الأبيض المتوسط
بحيرة طبرية
حيفا
عكا
صفد
طبرية
الناصرة
نابلس
الأردن
خارطة تبين
القرى التي كانت في عهدة طرباي بن قراجه

الهوامش والمصادر

١ ـ ان هذا الأسم الذي يرد بعدة صور : طره باي، طراباى ، كان شائعا في العهد المملوكي . ويوجد إلى الان في لبنان وشمالي فلسطين بعض الأسر التي تحمل مثل هذا الأسم . انظر على سبيل المثال ابن طولون ، شمس الدين محمد الصالحي ،(ت سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٧ م)،اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق، ١٩٦٤م، ص ١٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد كما يلي : ابن طولون ، اعلام ، كذلك انظر لنفس المؤلف . مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ٢م، تحقيق محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢م، ١٩٦٤م، ص ٢٦٣. ٢٦٧، ٢٧٥، ٣٤٦، م٢ ص ٢٩٧. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد كما يلي : ابن طولون، مفاكهة الخلان .

٢ ـ انظر المحبي ، محمد أمين بن فضل الله ، (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ م، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٠م ، م١، ص ٢٢١ ، سيشار لهذا المصدر فيما بعد عند وروده كما يلي : المحبي ، خلاصة .

٣ ـ «اللجون بلد قديم وهو قاعدة المرج (بني عامر) وهو من عشير يمن وكذلك جميع مرج بني عامر ، وبه مقام الخليل ابراهيم عليه السلام من المزارات وبه مصطبة السلطان وخان سبيل يأوى اليه المسافرون وكان في العهد المملوكي يشكل جزءاً من العمل السابع من مملكة صفد ، انظر العثماني، صدر الدين محمد بن عبدالرحمن الدمشقي (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٩)، تاريخ صفد ، قطعة منه نشرها برنادر لويس تحت عنوان

An Arabic Account of the Province of Safad,»*BSOAS*, Vol. XV, (1953), pp. 477–88, p. ,483.

أنظر أيضاً ياقوت الحموي ،(ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) ،معجم البلدان٦م، تحقيق فردناند وستنفلد ، طبعة مصورة ، طهران : ١٩٦٥ م ، م٤ ص

٣٥١ : وسيشار اليه فيما بعد ، ياقوت ، معجم . كما يذكرها شيخ الربوة، شمس الدين محمد الصوفي ، (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م) في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تحقيق م ، مهرن ، ليبزج ، ١٩٢٣ م، ص ٢١٢، سيشار لهذا المصدر فيما بعد باسم شيخ الربوة نخبة ، كما يذكرها بشكل مختصر معاصره ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل ، (ت٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)، في كتابه تقويم البلدان ، تحقيق رينود ، والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس ، ١٨٤٠ م، ص ٢٢٧، انظر كذلك المعلومات المتفرقة عنها في المصادر الجغرافية الاسلامية التي جمعها Guy Le Strange. في كتابه *Palestine Under the Moslems*, Reprint, Khayats, Beirut, 1965, pp. 492–3. انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب ، فلسطين في العهد الاسلامي ، ترجمة محمود عمايرى ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، عمان ، ١٩٧٠ م ، ص ٤٦٣ — ٤٦٤.

٤ — ابن شادبك الجلباني الاستادار في دمشق ، وكان مسؤولا عن سوق جقمق والطواقين في دمشق . ويذكر ان أهالي المدينة قد اشتكوا عليه بسبب ارتفاع اسعار السكر وانه هرب من المدينة سنة ٨٨٧هـ / ١٤٩١ م، انظر ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، م ١ ، ص ٤٠ — ٤٣، ص ٤٤ — ٤٥ ، ص ٥٨ .

٥ — ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، م ١ ، ص ٢٢، في القطعة التي نشرها هارتمان من هذا الكتاب بعنوان

Das Tubinger Fragment des Ibn Tulun, Berlin, 1926

لايوجد ذكر لهذا الخبر .

٦ — يذكر ابن طولون أن شيخ جبل نابلس كان بينه وبين يونس كاشف الرملة خلاف ونزاع ويشير بعد ذلك الى مقتل نائب صفد كما يشير الى تحركات الاعراب في حوران ، من ناحية أخرى يعدد مجير الدين العليمي اشتراك الاعراب في الهجوم على نائب القدس عند اريحا ، ومهاجمة بني زيد

القدس ودخولهم حتى المسجد اذ يصف الحارث كما يلي : — وهجم العشير إلى داخل المسجد والسلاح مشهور بايديهم لقصد قتله (نائب القدس) ... وشرع العرب في قطع الطرق وايذاء الناس وحصل الارجاف في الناس واغلقت الاسواق والمنازل خشية النهب وكانت فتنة فاشية .

كما قامت آل فضل وقتلت نائب حماه ، فلربما كان مقتل ابن طراباي في مثل هذه الظروف من حركة عصيان القبائل . انظر ابن طولون ، مفاكهة الخلان م١ ، ص٦ ، ص١١ — ١٢ ، ص١٨ ، كذلك انظر العليمي ، مجير الدين (ت ٩٢٨ هـ/١٥٢١) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ٢م ، دار الجيل ، بيروت ، مكتبة المحتسب عمان ١٩٧٣ م ، م٢ ، ص٣٢٣ — ٣٢٤ سيشار لهذا المصدر عند وروده كالاتي : العليمي ، الانس الجليل،/ابن أياس ،بدائع ، م٤، ١٦٤ — ١٦٥ .

٧ — العثماني ،المصدر ذاته ، ص٤٨٣ ، شيخ الربوة يذكرها كما يلي : ومن اعمال صفد مدينة اللجون وهي مضافة الى العشير والهوى (واليمن ..) المصدر ذاته ، ص٢١٢.

٨ — ابن طولون ،اعلام الوري ، ص٢٢١ — ٢٢٢ ،مفاكهة الخلان ،م٢ ،

٩ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، م٢

ص٤٣، انظر ايضا محمد بن كنان الصالحي الدمشقي الحنبلي ، (ت١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) ،حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ، نشره الشيخ محمد احمد دهمان كملحق الكتاب ، أعلام الوري ، ص٢٩١.

١٠ — محفوظات ، متحف طوب قبو ، وثيقة رقم (٦٣٤١ ، لقد قام الدكتور Selahattin Tansil بنشر صورة زنكوغرافية لهذه الوثيقة وأشار اليها في كتابه Yavuz Sultan seliın إسطنبول ، ١٩٦٩ ، ص١٨٠ ، حول محتويات مكتبة متحف طوب قبو ، انظر Oz,Tahsin Arsiv *Kilavuzu,* 2 Vols; Istanbul, 1940.

١١ — على الارجح ان المقصود بذلك هو الوزير قر مانلي بيري محمد باشا (ت٩٣٩هـ /١٥٣٢م) الذي عمل كوزير ثالث للسلطان ابن سليم الاول ،

واثناء غياب السلطان سليم في بلاد الشام ومصر كان محافظا لمدينة اسطنبول ثم بعد ذلك عين في الصدارة العظمى ،انظر بجوى ، ابراهيم (ت١٦٥٠م)، *Pecevi Tarihi,* مجلدان ينشر Murad Uras اسطنبول، ١٩٦٨ –١٩٦٩م ، م١ ،ص١٨ – ١٩ ،انظر ايضا Danismend, Ismail Hami, I zahli Osmanli *Tarihi* Karorolojisi, Istanbul, 1971 Cilt 2, p. 46.

كذلك انظر شرف الدين طوزان ،

١٢ انظر «Piri Mehmed Pasa» *I.A.* Vol, ix p. 559-566.

Stephan, St. H. (Translator), Evliya Tashelebis Travels in Palestine, *The Quarterly of the Department of Antiquitics in Palestine,* Vol. Vi (1936) p. 88.

١٣ – ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، م٢ ، ص٨٢ ، الاعلام ، ص٢٢٨ انظر كذلك ابن جمعة المقار ،محمد، (ت حوالي سنة ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م) ، كتاب الباشات والقضاة ، نشر صلاح الدين المنجد مع نصوص أخرى ، باسم ولاة دمشق في العهد العثماني . دمشق ١٩٤٩م، ص١ . الا ان اقامة جان بردي الغزالي كانت سنة(٩٢٤هـ/١٥١٨)م وليس سنة(٩٢٢هـ/١٥١٦)م كما ذكر المقار.

١٤ – ابن طولون ،مفاكهه الخلان ، م ٢ ، ص ٧٧ ،

١٥ – ابن طولون ، مفاكهة الخلان ،م٢، ص٨٢ يذكر ايضا المؤلف ان ابن طربية مع جماعته كانوا قد حضروا على السلطان سليم في دمشق بعد عودته من القاهرة ، المصدر ذاته ،م٢ ،ص ٧٩ .

١٦ – ابن اياس ، محمد بن احمد ، (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣ م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، المجلد الخامس ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦١م ، ص٣٧٥ ، ومما هو جدير بالذكر ان ابن اياس هذا يذكر ان عربان بني عطا وبني عطيه وعربان جبل نابلس كانت بجانب جان بردى الغزالي مما يدل على ان الاسرة الطربية كانت تقريبا بمفردها الموالية للعثمانيين ، المصدر والمكان ذاتهما ، في تعداده للعشائر وادراكها ، يذكر عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن ابراهيم الانصاري الجزيرى (ت حوالي ٩٧٦هـ/١٥٦٨م) عشائر بني عطية بانها كانت حول نخل وايله ، ويشير الى فسادها حول هذه العشيرة وبدناتها ، انظر ، دور الفوائد

المنظمه في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، نشره الشيخ محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ،القاهرة ، ص٤٨١ ٤٨٧، ص٤٨٩، ص٤٩٣ ص٥٠٠، ص٥٠٢، ص٥٠٥، ص٥٠٦،في (سنة ٩٨٥هـ ١٥٧٧م) كان بنو عطا وبنو عطية من ضمن سنجق غزة ،وتدخلا في سنة٩٨٧هـ /١٥٧٩م لاعادة عشائر القوادرية الى موطنها في سنجق نابلس ، وتذكر هاتان العشيرتان على انهما في سنة(١٠٠١هـ/١٥٩٣م) كانا في حالة عصيان وانهما هاجمتا الحجاج

Heyd. Uril, *Ottoman Documents on, Palastine,* 1552– 1615, Clarendon Press, Oxford, 1960, pp. 67, 78, 85, 97.

وسيشار لهذا المصدر عند وروده كما يلي : Heyd. Documents, اما دفتر طابو ١٠١٥ الذي يعود الى عهد السلطان سليمان القانوني فيذكر اسماء اربعة عشر فخذا من عشائر بني عطية ، وكانت تدفع عادت (ضريبة) سنوية لخاص السلطان مايساوى خمسة عشرة الف اقجه ، طابو دفترى ١٠١٥، ص ١٩، اما بنو عطا فكانوا ثمانية افخاذ تدفع عادت ١٢,٥٠٠ الف اقجه المصدر ذاته ص٢٠

١٧ — حول اصل هذا المصطلح الاداري في العهد العثماني انظر :

Lewis, B., «Daftar» *E.I.* 2 Vol. 11, pp. 77–81,

كذلك حول هذا الموضوع انظر Barkan, O , «Daftar–I Khakani» E.I. 2 Vol. II, PP. 81–83.

حول قيمة دفاتر الطابو بالنسبة للولايات العربية في العهد العثماني انظر دراسات

Lawis, B., The Ottoman Archives .as a Source for the History of the Arab Lands, *JRAS,* (1951), pp. 139–55.

Notes and Documents from the ·Turkish Archises, Jerusalem 1952, ‘Studies in the ottoman Archives, *DSOAS,* Vol. XVi, (1954) pp. 469–501.

حول محتويات محفوظات مديرية الوقائق في اسطنبول انظر

Sertoglu Midhat, *Mutheva Bakiminden Basvekalet Arsivi,* Ankara, 1955.

١٨ – ان دفاتر الطابو تصنف المتزوجين تحت اسم خانة اى الاسرة او العائلة

١٩ – المجرد هو الشاب البالغ الراشد غير المتزوج . والجدير بالذكر ان دفاتر الطابو تذكر اسماء الاشراف والسادة ومن يؤدي وظائف دينية كالمؤذنين والقراء لانهم كانوا يعفون من الضرائب . كما انها كانت تبين اسماء وعدد اصحاب العاهات كالعميان والمجانين وما الى ذلك لاعفائهم من الضرائب . اما اليهود والنصارى فكانوا يحصون على اساس الخانة والمجرد من اجل استيفاء الجزية.

٢٠ – كانت الدولة العثمانية في جمعها للضرائب من ولايات بلاد الشام تتبع احدى اسلوبين الاول يطلق عليه مصطلح الديموس (كلمة يونانية الاصل) وهو يقابل المصطلح العالي العربي مقاطعة اي مبلغ محدد من المال بغض النظر عن طبيعة الموسم . والاسلوب الثاني المقاسمة وهو الحصول على جزء من الموسم يتفق عليه اما على شكل النصف او الثلث او الربع . انظر

Bakhit M.A. *The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century*, Ph. D. thesis 1972 University of London, pp. 166–7.

٢١ – اقجه: وحدة نقد عثمانية كانت تضرب من الفضة ، وتشير اليها المصادر الاوربية عادة باسم أسيير حول تاريخ هذه الوحدة النقدية واوزانها في مختلف العهود انظر .

Bowen, H .«AKce »*E.I.*2 Vol.i, pp .317–318.

٢٢ – لم تكن بلاد الشام تشكل في العهد العثماني في الأول وحدة جمركية واحدة ، بل كانت تلك البلاد ينقطها عدد من محطات الباج حيث كانت الدولة تستوفي رسوماً معينة على اساس الحمل. كما انها كانت تستوفي رسوما على العبيد السود والرقيق الابيض، وكذلك على المواشي . انظر .

Bakhit, ,M.A.*Ottoman Province*, pp. 182–3.

انظر ايضاً المصادر المذكورة هناك فيما يتعلق بهذا الموضوع .

٢٣ ـ كانت الدولة العثمانية تتقاضى رسوماً على اساس الحجر. فمثلا كانت هناك طاحونة في قرية نظير في عهدة طرباي مؤلفة من ثلاثة احجار تتقاضى الدولة عنها مبلغ (٢٧٠٠) اقجه، طابو دفتري ١٩٢، ص ٠١٠. في بعض الاحيان يكون المبلغ دون ذلك بكثير، حيث يرد بمقدار ١٢٠ في السنة ، المصدر والمكان ذاتهما.

٢٤ ـ حول هذه الناحية في القرن السادس عشر، انظر، Bakhit *Ibid*, p. 90

٢٥ ـ حول هذه الناحية في القرن السادس عشر، انظر ، المرجع والمكان ذاتهما.

٢٦ ـ فيما يتعلق بناحية بني جهة في القرن السادس عشر ، انظر المرجع ذاته، ص ٩١.

٢٧ ـ الضريبة التي كانت تجبى من العشائر كانت تسمى «عادت» ويلاحظ ان الدفاتر العثمانية تشير دائما الى ان هذه الضريبة «من قديم الزمان» اي ان العثمانيين لم يفرضوها. حول توزيع العشائر في بلاد الشام ومقدار ما كانت تدفعه من الضرائب انظر المرجع ذاته، ص ٢٢٣ ٢٦٨.

٢٨ ـ طابو دفتري رقم ٤٠١، من مخطوطات رئاسة الوزراء، اسطنبول، حيث يورد القرى التالية:

١ ـ مندح حاصلها ٤٠٠٠ اقجه.

٢ ـ خرجا حاصلها ١٠٠٠٠ اقجه.

٣ ـ محربا ٢٠٠٠ اقجه.

٤ ـ المارحة(البارحة؟) ٢٠٠٠ اقجه.

٥ ـ سمر ١١٣٣ اقجه.

٦ ـ ار بع مزارع ٥٤٠٠ اقجه.

انظر ص ٦١١، ص ٦١٤، ص ٦٣٠، ص ٦٣٧.

٢٩ ـ مالية مدوره رقم ١٥٥٤٣، محفوظات رئاسة الوزراء ، اسطنبول ص ٤٨ ـ ٤٩.

٣٠ ـ انظر ترجمة التقرير و حكم السلطان في

Heyd, U. *Ottoman Documents*, pp. 95-96

٣١ ـ المصدر ذاته، ص٤٥، ص٦٥ ـ ٦٧، والهوامش هناك.

٣٢ ـ المصدر ذاته، ص١٠٤ ـ ١٠٥.

٣٣ ـ رضوان ابن قره مصطفى باشا المشهور بابي شاهين، كان مصطفى قد ولي سنجق غزه اهم سناجق فلسطين الخمسة حيث كانت عائداته تقدر بنصف مليون اقجه. وتوارث ابناؤه من بعده هذا المنصب، الذي اصبح طريقا لولاية اليمن إذ يلاحظ ان اكثر من فرد من ابناء هذا البيت قد ولي اليمن كما ان سنجق القدس ونابلس قد اوكلا لهم في بعض الاحيان، واستمروا كأسرة متنفذة في سنجق غزه حتى قبيل نهاية النصف الاول من القرن السابع عشر الميلادي، ومما هو جدير بالذكر ايضا ان منصب امارة الحاج الشامي في اكثر من سنة قد اوكلت لابناء هذا البيت. انظر، المصدر ذاته، ص٤٢، ص١٠٥ ـ ١٠٧. النهر والي، قطب الدين محمد بن احمد، (ت٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م)، البرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٧م، ص٨٦، ص٩٣، ص١٢٣،

ص ١٣٧ ، راجع ما ذكره البوريني حسن بن محمد (ت ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م)، تراجم الاعيان من ابناء الزمان، ٢م، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ، ١٩٥٩م ١٩٦٣ ، ص ١٩١ — ١٩٢، انظر ايضا، المحبي ، خلاصه الأثر، م١، ص١٨٧، حول موقف هذه الاسرة من المعنيين انظر الخالدي الصفدي، احمد بن محمد، (ت١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م)، تاريخ الأمير فخر الدين المعني :تحقيق أسد رستم فؤاد افرام البستاني، بيروت، ١٩٦٩م، ص١٢١، ص١٦٠، عند ورود هذا المصدر فيما بعد سيشار اليه كما يلي: الخالدي الصفدي ، تاريخ .

٣٤ — انظر صورة هذا الحكم في Heyb ، المصدر ذاته، ص٥٠ — ٥٢ ، وصورة رقم ٤.

٣٥ — حول مدلول مصطلح «دفتر دار» انظر

Lewis, B., (Daftardar) E.L 2. Vol i, p.83.

والجدير بالملاحظة ان مالية دمشق كانت تابعة لدفتر دارية حلب إلا أنها فصلت عنها سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م أنظر Bakhit ,M.A. *Ibid*, p. 163

٣٦ — Heyd ، المصدر ذاته ، ص١٠٩ — ١١٠.

٣٧ — المصدر ذاته، ص١١ — ١١٤.

٣٨ — المصدر ذاته، ص٧٧ — ٨٨، أما فيما يتعلق بالشيخ أحمد الكناني ، فإنه كان في البداية تابعاً للأسرة الغزاوية ولكن بعد وفاة الأمير حمدان وانقسام تلك الأسرة نلاحظ انه يبدأ بتجاوزها والتعامل مباشرة مع فخر الدين المعني ، ونلاحظ انه كان يقف مع المعنيين ضد بني حارثة لذا يعينه فخر الدين قائمقام لسنجق عجلون ، بلاد الامرة الغزاوية، بعد أخذه ذلك السنجق سنة ١٦٢٣م لابنه حسين ، وكان فخر الدين يجله ويقبل وساطاته . انظر ، الخالدي ، الصفدي المصدر ذاته ، ص ١١، ص٨٤ — ٨٥، ١٢٩ — ١٣٠، ١٣٩، ص٢٠٣ — ٢٠٥.

٣٩ - انظر Heyd ،المصدر ذاته ، ص٥٢ - ٥٣، حول حياة مراد باشا والي الشام (ت،١٠٢٠هـ/١٦١١م) انظر المحبي ، خلاصة، م٤ ، ص٣٥٥ - ٣٥٨، حول خنق علي الحرفوش انظر : الغزي ، نجم الدين ،(ت،١٠٦١هـ/١٦٥٠م) ، لطف السمر وقطف الثمر ،الظاهرية ، رقم ٤١، ورقة ٣٩ب، حيث يذكر ان علي بن موسى الحرفوش كان قد خنق في سنة احدى او اثنين بعد الألف ، ١٥٩٢ - ١٥٩٣م،ولا يذكر ان عساف كان قد خنق معه في تلك السنة مما يرجح ماجاء عند Heyd انه خنق سنة٩٩٨هـ/١٥٨٩م ، أما ماذكره محمد كرد علي أن الوالي قتل علي الحرفوش وشخصاً آخر يسميه «عسافا الكذاب الذي ادعى انه ابن طراباي أمير اللجون» خطط الشام، م١، ص٢٣٠، فبحاجة لاعادة النظر فبعد مراجعة النص لدى البوريني نلاحظ ان البوريني ليس متأكداً من الخبر كذلك فإن محمد كرد علي لم يكن دقيقاً في ايراد الخبر ونظراً لاهمية نص البوريني فإننا زيادة في الفائدة نورده .

«... نزل (أي الأمير علي الحرفوش) في الكرك (كرك - نوح) ثم إلى دمشق الشام في زمن محمد باشا ابن الوزير الاعظم سنان باشا فأعطاه الامان وحلف له على القرآن ثم خانه ، وغدر امانه وحبسه في قلعة الشام ثلاثاً واربعين يوماً ثم قتله في القلعة وقتل معه على ماقيل عسافا الكذاب الذي ادعى انه ابن الأمير طرباي أمير بلاد اللجون ولم يكن ابنه وأرسل الرأسين إلى دار السلطنة قسطنطينية انظر البوريني ، حسن ، تراجم الاعيان ، الجزء المخطوط الذي لم ينشد، نسخة فينا رقم Cod Arab. 1190 Mixt. 346 ورقة ١٤٨ب، ١٤٩أ ، اشكر الصديق الدكتور عبد الكريم رافق لتفضله باطلاعي على هذا المخطوط. عن منصور بن الفريخ انظر المحبي ، خلاصة ، م٤، ص٤٢٦ - ٤٢٨.

٤٠ - المحبي، خلاصة ، م١، ص٢٢١ ، ترد هذه المعلومات في الترجمة التي أوردها عن أحمد ابن طرباي بن علي الحارثي أمير اللجون...»

٤١ - انظر Heyd ، المصدر ذاته، ص٧٨.

٤٢ – المحبي، خلاصة ، م١، ص٢٢١ .

٤٣ – انظر Bakhit M.A. *Ibid*, pp- 187-208

٤٤ – حول ترجمة يوسف باشا سيف ، انظر البوريني ، تراجم ، الجزء المخطوط ، ورقة ١٤٩ب – ١٥٣ب ، المحبي، خلاصة ، م٤، ص ٥٠١،

٤٥ – حول الدور الذي قام به كيوان انظر الغزي ، لطف السمر ، ورقة ٤٣ب – ٤٤أ،ب المحبي ، خلاصة ، م٣، ص٢٩٩ – ٣٠٣.

٤٦ – انظر البوريني، المصدر ذاته، م١، ص ٢٢٤، ص ٢٥٠،الخالدى ، المصدر ذاته، ص ٨٤.

٤٧ – الخلدى، المصدر ذاته، ص ٣٠.

٤٨ – الاسرة الغزاوية كانت متنفذة في منطقة عجلون في اواخر العهد المملوكي وتذكر المصادر اسم ناصر الدين محمد بن ابي سيف مدلل المعروف بابن ساعد الغزاوي كزعيم لهذه الاسرة. ولم تكن علاقاته مع المماليك جيدة فأرسلوا ضده حملتين الاولى سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، والثانية سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م مما ادى الى تدمير قسم كبير من منطقة عجلون الا انه بعد سنتين وبناء على توسط احدى اقطاب الصوفية محمد بن خليل الصمادى (ت، ٩٤٨هـ / ١٥٤١م) قدم على دمشق واعتبر قدومه علامة خير للوالي وللسلطان نظراً لموقع بلاده على طريق قافلة الحج ومن ابرز شخصيات هذا البيت في العهد العثماني قانصوه الغزاوي الذي ولي سنجق عجلون وسنجق الكرك وامارة الحج مدة تزيد على ربع قرن وانه كان ابرز زعيم للجناح القيسي وبعد وفاته انتقلت زعامة هذا الجناح للامير فخر الدين المعني البرزى بسبب الخلاف الذي نشب بين احفاده. انظر ابن طولون، اعلام، ص ٩٠: ١٩٤ ص ١٩٦ – ١٩٨، مفاكهة الخلان، م١، ص ٣٣٥، ص ٣٤٣، ص ٣٥٥ ص ٣٦٠، ص ٣٦٢، ص ٣٦٥، م٢، ص ٣٦، ص ٣٨، ابن اياس، بدائع الزهور، م٤ ، ص ٢٤٦، البوريني تراجم م١، ص ١٨٦ – ١٨٧ ،

الخالدى ، المصدر ذاته، ص ١٢٤، الغزى، الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة، ٣م، تحقيق جبرائيل جبور ، المطبعة الاميركانية، بيروت ١٩٤٥م م٣ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، سيشار له عند وروده كما يلي: الغزى، الكواكب.

٤٩ ـ انظر اعلاه هامش ،رقم ٣٨.

٥٠ ـ الخالد الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١ .

٥١ ـ المصدر ذاته ،ص ١١٩ كذلك عن عشائر الجحاوشه التي يذكرها كحالة على انها احدى بطون بني صخر انظر كحالة ،عمر رضا ، معجم قبائل العرب ،٣م ،المكتبة الهاشمية ،دمشق ،١٩٤٩م ،م١ ،ص١٦٨ .

٥٢ ـ كانت عشائر العايد في بلاد غزه تقوم بحراسة قافلة الحاج المصري مقابل مبالغ من المال .وكانت عشائر بني عطية تنازعها الدرك . انظر الجزيرى المصدر ذاته ،ص٤٨١، ص٤٩٦ ـ ٤٩٧ ،ص٥٠٠، كذلك الخالدى الصفدى ،المصدر ذاته ،ص ٢٧.

٥٣ ـ حول دور هذه الاسرة في تاريخ ريف بلاد الشام انظر دراسة مصطفى الحيارى ،الامارة الطائية في بلاد الشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ،رسالة ماجستير ،الجامعة الامريكية ، بيروت ١٩٦٩ كذلك مقالتـــه.

(The Origins and development of the amirate of the Arabs during the seventh/ thirteenth and eighth/fourteenth centuries) *BSOAS*, Vol. XXXViii, part 3, 1975, pp. 509–524.

٥٤ ـ الخالدى الصفدى ،المصدر ذاته ، ص١٦ ،ص ٦٠ ،ص ٧١ انظر ايضا الشديان طنوس ،كتاب اخبار الأعيان في جبل لبنان ،٢م ،حققه فؤاد افرام البستاني ،بيروت ،١٩٥٠ ،م١ ،ص ٢٥٤ ،ص٢٥٧ ، ص٣١٢ ٣١٣. سيشار لهذا المصدر عنه وررده كالآتي : الشديان ،اخبار الاعيان.

٥٥ ـ البوريني ، المصدر ذاته ، م٢، ص٢٧١ ـ ٢٧٣، انظر نفس المصدر ترجمة حياة علي باشا جانبلاط ومصير حركته، م٢ ،ص٢٧٠ ـ ٢٩٦ ، انظر كذلك المحبي، خلاصة، م١، ص٢٢١ ـ ٢٢٢، م٣، ص١٣٥ ـ ١٤٠، م٤، ص٥٠٣، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص٦.

٥٦ ـ الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص١٥ ـ ١٦.

٥٧ ـ المصدر ذاته، ص ٢٢ ـ ٢٣.

٥٨ ـ المصدر ذاته ، ص٣٥.

٥٩ ـ المصدر ذاته، ص٦٩، الشدياق، المصدر ذاته، م١، ص٢٥٦.

٦٠ ـ المصدر ذاته ، ص٢٧.

٦١ ـ المصدر ذاته ، ص٧١ ـ ٧٢، الشدياق ، المصدر ذاته، م١، ص٢٥٧.

٦٢ ـ حول حياة فروخ باشا (ت ١٠٣٠هـ /١٦٢٠م)، انظر المحبي، خلاصة م٣، ص٢٧١.

٦٣ ـ كان ابنا لفخر الدين من زوجته ابنة يوسف باشا سيف ، وبعد التخلص من فخر الدين كان حسين الابن الوحيد الذي بقي على قيد الحياة ، حيث عاش في البلاط السلطاني ، وانتدب مرة لبلاد الهند كسفير ، وضع كتاب التمييز الذي يكلف كاتب هذه السطور على نشره .

٦٤ ـ الخالدي ، الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ٩٥، ص١٠٥، ص١١٢ .

٦٥ ـ المصدر ذاته، ص١١٣، ص١١٥ ـ ؟١١٦. من باب العلاقات الطيبة نجد أن فخر الدين سنة ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م يفلح عشرين فداناً على حدود ناحية ساحل عكا يجعل نصفها للأمير أحمد بن طراباي لأن الموسم كان شحيحاً، المصدر ذاته ، ص٨٧.

٦٦ ـ المصدر ذاته، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

٦٧ ـ المصدر ذاته، ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

٦٨ - يذكر بيرى ريس في وصفه لساحل فلسطين وجود قلعة مدمرة في حيفا ، الا ان مينائها كان يصلح للرسو، لمزيد من التفاصيل حول حيفا انظر:

Heyd, U. (A Turkish Descripition of the Coast of Palestine in the Early Sxteenth Century) Israel Exploration Joural, Vol Vi, (1956) pp 201–216.

انظر ايضاً Hayfa E.I.2, Vol. iii pp. 324–26.

٦٩ - الخالدى الصفدي، المصدر ذاته، ص ١٣٩.

٧٠ - نهر العوجا او نهر ابو فطرس يصب جنوبي غابة ارسوف في البحر الابيض المتوسط، وهو قريب من الرملة . تذكر المصادر الجغرافية الاسلامية ان مامن جيشين التقيا عليه الا كان النصر للجيش الذي كان على الضفة الغربية للنهر. منبعه من جبال الجليل . انظر ياقوت ، معجم، م٣، ص ٧٤٤ ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٨.

Le Strange, *Palestine Under the Moslems* pp. 55–

والترجمة العربية فلسطين في العهد الاسلامي، ص ٧١ - ٧٢ ، حول روافد هذا النهر انظر

Palest ne and Transjordan Geographical Handbook Series, London 1943–p 27.

٧١ - الخالدى الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٣٩ - ١٤٢، ص ١٩ ١٥٠.

٧٢ - المصدر ذاته، ص ١٥٥.

٧٣ - المصدر ذاته، ص ١٧٧.

٧٤ - المصدر ذاته، ص ١٨٣.

٧٥ - المصدر ذاته، ص ١٨٥ - ١٨٦.

٧٦ - المصدر ذاته، ص ١٨٧.

٧٧ ــ المصدر ذاته، ص ١٨٨ ــ ١٩٠.

٧٨ ــ المصدر ذاته، ص ١٩١ ــ ١٩٣.

٧٩ ــ المصدر ذاته، ص ١٩٦.

٨٠ ــ المصدر ذاته، ص ١٩٦ ــ ١٩٧.

٨١ ــ المصدر ذاته، ص ١٩٧ ــ ١٩٨.

٨٢ ــ المصدر ذاته، ص ٢٠٥.

٨٣ ــ الارجح ان اصلهم من جبال الشراه بالاردن رحلوا فيما بعد الى منطقة بير السبع انظر العارف، عارف، تاريخ بير السبع وقبائلها، مطبعة بيت المقدس. سنة ١٩٣٤ م، ص ٩٠، ان الاب جورج سابا وروكس ابن زائد العزيزي يذكر ان الوحيديين من سكان الطفيلية والكرك وانهم لجأوا الى غزة والارجح انهم من سكان ريف الكرك. انظر،مادبا وضواحيها؛ القدس ١٩٦١م، ص ١٣٩.

٨٤ ــ الخالدى الصفدي، المصدر ذاته، ص ٢٠٦.

٨٥ ــ المحبي خلاصة، م١، ص ٢٢١. ان المصادر المتوافرة لدينا لاتشير الى موقف الأمير احمد الحارثي من التجار الاوربيين مقارنة بموقف فخر الدين المعنى المشجع لهم. اللهم الا ما ذكره محمود العابدي من انه كان يضايق الرهبان وانه سجن احدهم ولم يطلقه الا بعد ان دفع قديمة، انظر، صفد في التاريخ، عمان ، ١٩٧٧م، ص ٧٠.

٨٦ ــ كان عرار هذا احد اخوين للأمير احمد ولقد قتل سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م في القتال مع فخر الدين ،الخالدى الصفدى المصدر ذاته ، ص١٨٩

٨٧ ــ احد اخوين للأمير احمد ومن الذين شاركوا في قتال المعنيين سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م ،المصدر ذاته ،ص ١٨٦.

٨٨ ــ المصدر ذاته ،ص ٨٧ ،ص١١٥ .

٨٩ ــ المصدر ذاته ، ص ١٤٢ ، ص ١٩١.

٩٠ ــ المحبي ، خلاصة ، م١ ، ص ٢٢٢.

٩١ ــ انظر

Sharon, M., «The Political Role of the Bedouins in Palestine in the 16th and 17th Centuries

مقالة غير منشورة ، القدس ١٩٧٠م ، ص ٠١٧ لسوء الحظ ان مذكرات هذا الرحالة غير متوافرة في عمان لذا لم اتمكن من الاستفادة منها .

لقد دفن محمد هذا في جنين .انظر المحبي ، المصدر ذاته ، م١ ، ص٢٢٢.

٩٢ ــ حول حياة ورحلات اوليا جلبي انظر

Mordtmann, J.H- (H.W. Duda), «Ewliya Celbi» E.I.2, Vol. ii, pp 717-720.

٩٣ ــ لقد قام حنا اسطفان بترجمة الاجزاء المتعلقة برحلة اوليا جلبي الى فلسطين الى اللغة الانجليزية ، انظر:

Stephan, St. H., «Ewliya Tshelebis Travels in Palestine Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine» Vol. iii, (1934)pp. 103-108, 154-164);
Vol. V (1935) pp. 69-73, Vol. Vi, (1936) pp. 84-93,
Vol. Viii (1938) pp. 137-156.

فيما يتعلق بوصفه للاسرة الطرابية انظر م٦ ، ص ٠٦٦

٩٤ ــ المحبي ، خلاصة ، م١ ، ص ٢٢٢.

٩٥ ــ حول حياة الشيخ النابلسي انظر ،

Khalidi, W.«Abdal- Ghani Al-Nabulsi» E. I. 2 Vo.i, P.60.

٩٦ ــ النابلسي ، عبد الغني ، الحضرة الانسية في الرحلة القدسية ، عاطف افندي، اسطنبول رقم ١٨٨٠ ورقة ٢٠ب، كذلك مخطوط الخزانة العامة الرباط ٢٣٢٠ ك، رقم ٥٩٧ مركز الوثائق والتوثيق ، الجامعة الاردنية ، ورقة ٢١ب .

دراسة في السيرة النبوية لابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤هـ والمسماة «عيون الاثر في فنون المغازى والشمائل والسير» (١)

الدكتور ناطق صالح مطلوب
كلية الآداب – جامعة الموصل

تمهيد :

كانت سيرة الرسول (ص) اول مادونت بابا من ابواب علم الحديث (٢) وان اقدم مادون منها نجده عند قدامى التابعين حيث ظهرت سيرة الرسول (ص) بالمعنى الدقيق للكلمة في كتب تحمل عنوان « المغازى » و«السيرة»، وربما يكون الامام الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ اول من استخدم هذه الكلمة (٣).

ولو تتبعنا تاريخ التدوين في السيرة النبوية لوجدنا انفسنا امام طائفة من العلماء كرسوا جهودهم لهذا الغرض غاب عليهم علم الحديث وعدوا من رواته ومنهم :

عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى سنة ٦٣هـ صاحب الصحيفة المعروفة بـ (بالصادقة) (٤) وعبد الله بن العباس المتوفى سنة ٦٨هـ والذي كان يدرس المغازى في مجالس تدريسه ، والبراء لابن عازب المتوفى سنة ٧٤هـ (٥)، وسعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٤هـ ، وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ، وعبيد الله بن كعب المتوفى سنة ٩٥هـ ، وعامر بن شر حبيل الشعبي المتوفى سنة ١٠٣هـ ، وابان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥هـ ، والقاسم بن محمد بن

---

(١) اعتمدنا طبعة القدسي لسنة ١٣٥٦ هـ: وهي في جزئين.

(٢) التراجم والسير : ٣١

(٣) تاريخ التراث العربي: ٤٤٣/١

(٤) وقد رواها عنه حفيده عمرو بن شعيب.

(٥) نقل عن البراء بن عازب شيئا كثيراً من مغازى الرسول (ص) ينظر: مغازى رسول الله لعروة بن الزبير: مقدمة المحقق ص ٢٥.

ابي بكر الصديق المتوفى سنة ١٠٧هـ ، وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠هـ وشرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣هـ ، والزهـــري محمد ابن مسلم ، وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ ومحمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥٢هـ ،ويحيى بن سعيد الاموي المتوفى سنة١٩٤هـ واخرون غيرهم (١).

قد بدأ المؤرخون بعد ذلك يؤرخون للسيرة النبوية من جوانبها العديدة فمنهم من يحصر الحديث في غزوات الرسول (ص) ومنهم من يطيل القول في الشمائل النبوية ، ومنهم من يتحدث عن اولاده وحفدته ، ومنهم من يتحدث عن اخلاقه ومنهم من جعل من السيرة محورا تدور حوله احداث التاريخ العربي الاسلامي ، وهناك من افرد سيرة الرسول بكتاب خاص قائم بذاته كما صنع القاضي عياض المتوفي سنة ٥٤٤هـ في كتابه ، الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ، وكما صنع ابن سيد الناس في عيون الاثر ، وكما صنع المؤرخ مغلطاي المتوفى سنة٧٦٢هـ في الزهر الباسم في سيرة ابي القاسم ، وكما فعل المقريزى في كتابه ، امتاع الاسماع ، وشهاب الدين القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ في : المواهب اللدنية في المنح المحمدية ، ونور الدين الحلبي المتوفى سنة ١٠٤٤هـ في كتابه :إنسان العيون في سيرة الامين والمأمون.

كذلك وقد افرد البعض جزءا من كتبهم التاريخية لسيرة الرسول (ص) كما فعل الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ وابن كثير المتوفي سنة ٧٤٧هـ، والديار بكري المتوفى سنة ٩٨٢هـ (٢).

ومجموع هذه التآليف بالرغم من الاختلاف الظاهر بينها من ناحيتي الموضوع والمنهجية تلتقي في نقطة اصيلة تدخل ضمن سلسلة متواصلة من حلقات التطور والكمال، شملت المنهج والاسلوب والدقة في رواية الاخبار وتحقيق النصوص والتثبت من صحتها وان هذا التطور بدأ مبكراً وعلى

---

(١) ينظر: تاريخ التراث العربي ٣١/١ وما بعدها.

(٢)التراجم والسير: ٣٤ و٣٥

وجه التحديد منـــــــذ ان اهتم ابن هشام بتهذيب سيرة ابن اسحاق لتصل الينا بالصورة التي ارتضاها لنفسه ، وارتضاها من بعده المهتمون بهذا العلم بحيث عدت المنهل والمرجع الذي منه يمتح المؤلفون في السيرة النبوية ، واذا كان تهذيب ابن هشام اول حلقات التطور الذي بدأ ببداية نقد النصوص فاننا نستطيع ان نقول بان سيرة ابن سيد الناس تعد قمة هذا التطور . وقد نهجت في دراسة هذه السيرة نهجا ابتدأته بحياة المؤلف وسبب التأليف ومنهجه ، والمصادر التي اعتمد عليها المؤلف وكان جزء من هذه الدراسة منصبا على متن السيرة مقرونة ببعض الامثلة وموثقة باهم المصادر التي وقفت عليها: وختمت الدراسة بالكلام عن القيمة العلمية لسيرة ابن سيد الناس.

١-ترجمة المؤلف :

هو محمد بن محمد بن احمد بن عبدالله بن محمد الشافعي اليعمري الأندلسي ، يكنى :ابا الفتح ويعرف بابن سيد الناس (٥) .

ولد في القاهرة في الرابع من ذى القعدة سنة ٦٧١هـ (١) ونشأ في بيت علم ورئاسة (٢)، فقد كان جده احمد (٣) يتمتع بسمعة علمية واسعة في بلاد المغرب مع اشتهاره بعلم الحديث، وكان والده (٤) من العلماء المعروفين في عصره ،رحل إلى المشرق ولقي علماء جله ، ودخل مصر ومعه امهات الكتب والمصنفات العلمية النادرة (٥).

---

(٥) ترجمته في: الوافي بالوفيات: ١٩٦/١ ، تذكرة الحفاظ : ٣٣٣/٤، الدرر الكامنة: ٣٣١/٤ ، طبقات الشافعية للاسنوي : ٥١٠/٢، طبقات الشافعية للسبكي : ٢٩/٦، فوات الوفيات : ٣٤٤/٢، البداية والنهاية: ١٤: ١٦٩،ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني: ١٦، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي : ٣٥٠، طبقات الحفاظ :٥١٩، مرآة الجنان: ٢٩١/٤، شذرات الذهب: ١٠٨/٨ .

(١) كذا في جميع المصادر، وفي فوات الوفيات ٢٤٩/٢ (سنة ٦٦١هـ)

(٢) الوافي بالوفيات : ١٩٦/١ .

(٣) توفي سنة ٦٥٩ هـ وكان مولده سنة ٥٥٧هـ. تذكرة الحفاظ : ١٤٥٠/٤ .

(٤) توفي سنة ٧٠٥هـ ومولده سنة ٦٤٥هـ. الدرر الكامنة: ٢٧٩/٤ .

(٥) الدرر الكامنة: ٣٣١/٤ .

ولابي الفتح ابن سيد الناس صاحب الكتاب اخوة اخذوا قسطا وافرا من العلوم والمعرفة ذكر المترجمون منهم: ابو سعيد (١)، وابو سعد (٢) وفي هذا الوسط العلمي بدأ ابن سيد الناس حياته العلمية، فأخذ عن والده معظم علومه وقرأ عليه وسمع منه الكثير من المؤلفات وفي فنون العلم المختلفة، فكان بحق اول معلميه واول اساتذته .

وفي سنة ٦٩٠هـ (٣)رحل ابن سيد الناس إلى دمشق فاخذ عن ابن عساكر، والصورى وابن المجاور واخرين غيرهم (٤) وعاد إلى مصر فلازم ابن دقيق العبد (٥) وتخرج عليه في اصول الفقه، والبهاء بن النحاس (٦) ودرس عليه علم النحو، وتردد على مجالس الشيوخ هناك كمجلس الفاروثي والدمياطي (٧) وبلغ الذين اخذ عنهم زهاء الف شيخ او يزيدون (٨).

وقد اثنى المترجمون على ابن سيد الناس، اثنواعليهعالمامتخصصافي علم الحديث ورجاله، مع اطلاعه ومعرفته الواسعة بعلم البلاغة، وتمكنه من النظم والنثر (٩)، واثنوا عليه رجلا كسب مودة الخاصة من الحكام والامراء لمكانته العلمية التي عرف بها مع اخلاصه وصدقه، واحبه العامة من الرعية لطيب خلقه وحسن دعابته (١٠)

(١) اسمه محمد توفي سنة ٧٤٩هـ. الدرر الكامنه: ٣٣٥/٤
(٢) اسمه محمد توفي سنة ٧٢٨هـ ومولده سنة ٦٧٠ هـ. الدرر الكامنة : ٣٣٥/٤.
(٣) الوافي بالوفيات: ٢٩٠/١
(٤) الدرر الكامنة : ٣٣١/٤
(٥) احمد بن علي بن وهب ، من علماء عصره المشهورين مات سنة ٧٠٢ هـ. ومولده سنة ٦٢٥هـ الطالع السعيد: ٥٦٧.
(٦) محمد بن ابراهيم الحلبي مات سنة ٦٩٨هـ . بغية الوعاة : ١٣/١.
(٧) عبد المؤمن بن خلف شرف الدين مات سنة ٧٠٥هـ ومولوده سنة ٦١٣هـ. تذكرة الحفاظ ١٤٤٧/٤
(٨) الدرر الكامنة: ٣٣١/٤.
(٩) قال الاسنوي في طبقاته :«حافظ الديار المصرية، شيخ البلاغة والبراءة وصاحب النظم الرائق والنثر الفائق». وقال السيوطي في طبقات الحفاظ:« كان اماما في الحديث ناقداً في الفن خبيراً بالرجال والعلل والاسانيد عالما بالصحيح والسقيم».
(١٠) الوافي بالوفيات: ٢٩٢/١.

ولي التدريس في اماكن كثيرة ذكروا منها: دار الحديث الظاهرية(١) وجامع الصالح (٢) والمهذبية (٣) الكائنة على بركة الفيل (٤) ومسجد الرصد (٥)، وتولى خطابة جامع الخندق (٦) وكان له راتب في مصر وراتب بصفد (٧).

اشتهرت لابن سيد الناس جملة مؤلفات منها: تأليفه في السيرة النبوية الذي سماه (عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير)، وكتاب (النفح الشذى في شرح الترمذى) اكمله بعده الزين العراقي، (تحصيل الصحابة في تفضيل الصحابة)، (بشرى اللبيب بذكرى الحبيب) وهي منظومةفي مدح الرسول (ص)، و (منح المدح)، واختصر عيون الاثر في مجلد سماه: (نور العيون) وهو مايطلق عليه اسم: (السيرة الصغرى).

واما تلامذته فاشهرهم شمس الدين الذهبي ،والزين العراقي (٨) والصفدي وآخرين غيرهم.

توفي ابن سيد الناس بالقاهرة بمنزله الكائن في الظاهرية يوم السبت الحادي عشر / شعبان سنة ٧٣٤ هـ (٩).

٢ ـ أسباب التأليف :

بين ابن سيد الناس في مقدمته الغاية من تأليف هذا الكتاب على كثرة المؤلفين في السيرة النبوية من خلال نقده لتلك المؤلفات بقوله :

---

(١) ينظر: خطط المقريزي: ٣٧٨/٢

(٢) ينظر: خطط المقريزي: ٢٩٣/٢

(٣) ينظر: خطط المقريزي: ٣٦٩/٢، ٣٩٧

(٤) ينظر خطط المقريزي : ١٦١/٢

(٥) ينظر: خطط المقريزي : ٤٤٥/٢

(٦) ينظر: خطط المقريزي: ٣٢٥

(٧) الدرر الكامنة: ٣٣٥/٤

(٨) عبد الرحيم بن الحسين مات سنة ٨٠٦هـ. ابناء الغمر: ٢٧٥/٢

(٩) الوافي بالوفيات: ٣٠٠/١، طبقات الاسنوي: ٥١١/٢

« فلما وقفت على ماجمعه الناس قديما وحديثا من المجاميع في سير النبي (ص) ومغازيه وايامه الى غير ذلك مما يتصل به ، لم ار الا مطيلا مملا او مقصراً باكثر المقاصد مخلا » (١) ، فالمؤلفات في السيرة حسب النص الانف الذكر تتحدد في نمطين من التأليف ، فاما ان يكون المؤلف مطيلا مملا ، والمطيل حسب رأى ابن سيد الناس« اما معتن الاسماء والانساب والاشعار والاداب، او اخر يأخذ كل مأخذ في جمع الطرق والروايات ويصرف الى ذلك ما تصل اليه القدرة من العنايات » (٢).

واما ان يكون مقصرا ، والمقصر عنده « لايعدو المنهج الواحد» (٣).

واذا كانت هذه دواعي تأليفه في السيرة النبوية كما قررها من خلال مقدمته : فاننا نستطيع ان نضيف سببا اخر نابعا من مجال اهتمامه واختصاصه بعلم الحديث والتأليف فيه حتى وصف به ، ولما كان علم الحديث يعنى باقوال الرسول (ص) وسنته فإن ذلك يقود بالتالي الى معرفة حياته ، وهو اهتمام طبيعي لدى المحدثين لاينقصه الا الاهتمام بترجمة ذلك حسب منهج مختار ليوضع بعد ذلك ضمن مؤلفات كتب السيرة النبوية ، وهكذا فعل ابن سيد الناس العالم والاستاذ في علم الحديث فنقل اهتمامه بالسيرة من مجال العمل الى ميدان العلم بعد ان شعر بان التأليف في علم السيرة النبوية حاجة مازالت قائمة.

فاقوال الرسول (ص) واعماله لها اهمية كبرى ابان حياته واهمية اكبر بعد وفاته (٤) «وقد اوجبت هذه الاهمية العناية الشاملة بتلوين تفاصيل حياته بجمع الاحاديث والاخبار عنه. ولم يكن الدافع لهذه العناية والاهتمام التقوى فحسب ، ولكن حاجة المجتمع الاسلامي وتثبيت القواعد الدينية والاحكام التشريعية هي الحافز الاساسي لها» (٥) .

---

(١) عيون الاثر: ٥/١

(٢) عيون الاثر: ٥/١

(٣) عيون الاثر: ٥/١

(٤) مغازى الواقدي: ١٩ «مقدمة مارسدن جونس».

(٥) نفسه: ٢٠

٣ - منهجه :

واذا كان ابن سيد الناس قد انتقد السابقين، او بالاحرى فريقاً ممن عرض للتأليف في السيرة النبوية، فلا بد والحال هذه من ان يختار طريقاً وسطا بين الاثنين ، يتجنب الاطالة من ناحية ، ويتجنب الاختصار المخل من ناحية اخرى، وان يجعل كتابه متميزاً وجامعاً للسيرة النبوية، واذا كان هذا الاختيار مبنيا على اساس الضرورة المكتسبة من نقد المؤلفات السابقة له، فان ذلك ايضا لايتأتى الا لمن عرف مواطن الخلل ،في كلا المنهجين والحدود الفاصلة بينهما وفي ضوء هذه الاعتبارات قامت سيرة ابن سيد الناس لتشتمل على قسمين رئيسين وملحق تناولت جميع مايتعلق بحياة الرسول (ص) من عام ولادته حتى وفاته.

القسم الاول: تضمن نسب الرسول (ص) ومولده، ورضاعته، وفصاله، واقامته في بني سعد، وما عرف له هنالك من قصة شق الصدر وغيره، ومنشئه وكفالة جده عبد المطلب اياه الى ان مات، وانتقاله الى كفالة عمه ابي طالب بعد ذلك، وسفره الى الشام ورجوعه منه، وما وقع له في ذلك السفر من اظلال الغمامة اياه ، واخبار الكهان والرهبان عن نبوته وتزويجه خديجه عليها السلام، ومبدأ البعث والنبوة ، ونزول الوحي وذكر قوم من السابقين الاولين في الدخول في الاسلام وما كان من الهجرتين الى ارض الحبشة، وانشقاق القمر ، وما عرض له بمكة من الحصار بالشعب وامر الصحيفة، وخروجه الى الطائف، ورجوعه بعد ذلك الى مكة ، وذكر العقبة وبدأ اسلام الانصار والاسراء والمعراج، وفرض الصلاة ، واخبار الهجرة الى المدينة ودخوله عليه السلام المدينة، ونزوله حيث نزل، وبناء المسجد، واتخاذ المنبر، وحنين الجذع ، ومغازيه، وسيره، وبعوثه ، وما نزل من الوحي في ذلك، وعمره، وكتبه الى الملوك، واسلام الوفود وحجة الوداع ، ووفاته (ص) وغير ذلك (١).

---

(١) عيون الاثر: ٦/١

وشمل هذا القسم الجزء الاول من عيون الاثر باكمله ومعظم الجزء الثاني من (ص ٢ – ٢٨٣) واتبعه الملحقين، الاول الذي لخص فيه جميع الحوادث المهمة والخاصة بهذا القسم وجعل له فصلا خاصا تحت عنوان: «ذكر الحوادث جملة بعد قدوم رسول الله (ص) المدينة» مبتدئا بالسنة الاولى للهجرة، ومنتهيا بنهاية السنة العاشرة للهجرة (١).

واما الملحق الثاني فكان تحت عنوان: «ذكر نبذة من معجزاته عليه السلام»(٢) خصه لجمع معجزات الرسول (ص) بعد ان اوردها مفرقة في اماكن عدة.

واما القسم الثاني، فقد تضمن ذكر اولاده (ص) واعمامه وعماته وازواجه وشمائله وعبيده وامائه ومواليه وخيله وسلاحه، وما يتصل بذلك معتمدا على ماذكره العلماء في ذلك، ومختصراً في اكثر من موضع ومرتبا معلوماته بما يقتضيه التاريخ وسياقه من ايراد واقعة بعد اخرى لا ما اقتضاه الترتيب من ضم الشيء الى شكله ومثله، ما عدا ذكر ازواجه واولاده فانه الحقهم بباب المغازي والسير من باب الحلى والشمائل، باستثناء ذكر زواجه من خديجة، لما وقع في امرها من اعلام النبوة، وشمل هذا القسم الصفحات (٢٨٨ – ٣٤٢) من متن الجزء الثاني من السيرة.

واذا كان هذا هيكل منهجه العام فان ثمة اشياء لاحقة لما ذكرنا التزم بها المؤلف وعدت من صميم منهجه تتلخص في اصول ثلاثة افصح عنها بقوله: «وقد اتحفت الناظر في هذا الكتاب، من طرف الاشعار بما يقف الاختيار عنده ومن نتف الانساب بما لايعدو التعريف حده، ومن عوالي الاسانيد(٣) بما يستعذب الناهل ورده» (٤).

واساس طريقته تقديم الخبر المسند ترجيحا لمحل الاسناد ولكنه لم يهمل الخبر المرسل ان وجد فيه زيادة حيث كان يلحقه بعد الخبر المسند وهكذا شأنه في جميع سيرته.

---

(١) عيون الاثر: ٢٨٣/٢ – ٢٨٥

(٢) عيون الاثر: ٢٨٦/٢ – ٢٨٨

(٣) معرفة علوم الحديث: ٥ وما بعدها، ايضاً: علوم الحديث «صبحي الصالح» ٢٣٦

(٤) عيون الاثر: ٧/٢

٤ ـ مصادره :

تقع المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في مجاميع ثلاثة:

أ ـ مؤلفات في السيرة النبوية.

ب ـ كتب حديثية.

جـ ـ كتب التواريخ العامة والانساب ومايشابه ذلك.

وطبيعي ان يكون شيوخه مصدر معظم علومه ، ومصادره في هذا الكتاب وغيره من المؤلفات الاخرى ، وان دور هؤلاء الشيوخ تحدد في تحديثهم اياه وبالصيغ المختلفة في تلقي العلم ، في نوعين من المعلومات احداها ان تكون المعلومات مدونة بشكل كتاب قائم بذاته ، وبذا اكتفى ابن سيد الناس بالحاق السند الذي يربطه ومؤلف الكتاب عن طريق شيوخه عقب كل كتاب من هذه الكتب (١) والاخر : ان تكون معلوماته مستقاة مباشرة من أفواه شيوخه عن طريق السماع او القراءة ، وهي لاتعدو في مواضيعها الاحاديث النبوية او الاخبار المشهورة والمتداولة عند المحدثين او المهتمين بالسيرة النبوية كما سيأتي توضيح ذلك.

وابن سيد الناس من الافراد القلائل الذين تعرضوا لمصادرهم الاولية (الاصلية) بالنقد والتحليل ،وأعني بالمصادر الاولية هنا المؤلفات التي وصفها بقوله: (وعمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن اسحاق اذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا ... وكثيراً ما أنقل عن الواقدى من طريق محمد بن سعد وغيره اخبارا ،ولعل كثيرا منها لا يوجد عند غيره فالى محمد بن عمر انتهى علم ذلك ايضا في زمانه ...) (٢) وهذان المؤلفان ـ ابن اسحاق والواقدى ـ كانا موضع اهتمام زائد من المؤلف دون غيرهما من المؤلفين الاخرين والسبب هو كثرة ما تعرض اليه ابن اسحاق والواقدى من النقد والتجريح من ناحية ،واعتماد ابن سيد الناس الاصيل عليهما في كثير من الموضوعات.

---

(١) عيون الاثر: ٣٤٢/٢ - ٣٤٧

(٢) عيون الاثر: ٧/١

فالنقد الذي تعرض له ابن اسحاق والواقدي كان مدار مناقشة من قبل ابن سيد الناس الذي اتخذ من طريقة المحدثين اسلوبا للتقويم فقدسرد اقوال العلماء فيهما مبتدئا بابن اسحاق (١)، ثم عمد الى الاجابة عن تلك الاقوال مستعينا باقوال المحدثين والمؤرخين واصحاب المعرفة تارة ؛ وملتزما الاجتهاد من خلال ترجيح بعض الاقوال على غيرها تارة اخرى، ومن خلال الموازنة بين الاراء المختلفة خلص ابن سيدالناس الى ترجيح ميزان التعديل على ميزان التجريح اللهم الا في جوانب جزئية لا تحطط من قدر الرجلين ولا تنقص من قيمة مؤلفاتهما ومروياتهما وهذا ماكان يهدف اليه ابن سيد الناس منذ البداية تحصينا للاخبار والمرويات المستقاة عن طريقهما .

ومصادره حسب اهميتها تتدرج على الوجه الآتي :

أ- مؤلفات في السيرة النبوية .

١- سيرة ابن اسحاق المتوفى ١٥٢هـ بتهذيب ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ

تعتبر سيرة ابن اسحاق بتهذيب ابن هشام العمود الفقري لسيرة ابن سيد الناس فقد نقل عنها مائة واربعة عشر موضوعا ،اربع وستون موضوعا منها في الجزء الاول من الكتاب (٢) وخمسون موضوعا في الجزء الثاني منه(٣)، واذا اشرت الى المواضيع دون النصوص اكثر من ذلك بكثير ،ووقع النقل عنه حرفياوقد كان المؤلف يختار من النصوص في الموضوع الواحد ويهمل اخرى ،اضافة الى ذلك فسيرة ابن اسحاق مقدمة في اغلب المواضيع على بقية المصادر التي اعتمدها باستثناء مواضيع محددة وقليلة سنشير اليها .

(١) عيون الاثر: ١/٨ و١٧

(٢)ينظر مثلا : ٢٥/١، ٣٠،٣٧، ٤٤، ٤٧، ٥٤، ٥٨، ٦٠، ٨٣، ٩٠، ٩٨، ١٠٤ ،١١٢، ١١٩، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٤، ١٣٦، ١٥٥، ١٥٩، ١٦١، ١٧٢، ١٧٧، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٤١، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٩٤ ،٣٠١، ٣٠٤.

(٣) ينظر مثلا: ٢/٢، ٢٥، ٣٦، ٣٧، ٤١، ٤٣، ٤٨، ٥٢، ٥٤، ٦٨، ٨١، ٨٣ ،٩١، ٩٣، ١٠٦، ١٠٨، ١١٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٩، ١٤٤، ١٥٦، ١٦٢، ١٨٥ ،٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٥، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٦٤.

٢ – كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ

قال ابن سيد الناس : «وكثيرا ما انقل عن الواقدى من طريق محمدبن سعد وغيره اخبارا ولعل كثيرا منها لا يوجد عند غيره ...» (١) وجاءت نقوله عن هذا الكتاب بصيغتين ، صيغة النقل عن الواقدى بسنده عن شيوخه ،ويبدأ بقوله :

«قال الواقدي....» (٢) وصيغة النقل عن ابن سعد والتي يبدأها بقوله: «قال ابن سعد ....» (٣) فان بدأ بالواقدي فذلك مايشير اليه ويوضحه القول السابق، وإن بدأ بابن سعد فانه يعني اسناده (اسناد ابن سعد) عن شيوخه الاخرين دون الواقدي.

٣ – الروض الانف والشرع الروى، للسهلي المتوفى سنة ٥٨١هـ

الروض الانف شرح من شروح سيرة ابن هشام، ولذا فله خصوصية تميز بها من دون المصادر الاخرى، فقد عني السهيلي بايضاح ماوقع في سيرة ابن اسحاق بتهذيب ابن هشام «من لفظ غريب او اعراب غامض او كلام مستغلق، او نسب عويص، او موضع فقه ينبغي التنبيه عليه، او خبر ناقص يوجد السبيل الى تتمته» (٤).

وابن سيد الناس اقتبس حرفيا كثيرا من النصوص المتعلقة بشرح غريب القول او توضيح ما قد ابهم في بعض الاخبار (٥)، وليس هذا فحسب فهذا

---

(١) عيون الاثر: ٧/١

(٢) ينظر مثلا: ٤٠/١، ٤٥، ٥٨، ١١٢، ١٢١، ١٣٠، ١٩٢، ١٩٦، ٢٠٩، ٢٣١، ٢٣٨، ٢٧١، وينظر: ٤٦/٢، ١٠٦، ١٠٩، ١٢٥، ١٤٣، ١٨٥، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٧٠، ٢٩٣، ٢٩٦.

(٣) ينظر مثلا: ٣٠/١، ٣٨٢، ٤٥، ٤٩ ، ١٣٤، ١٤٦، ٢٢٣، ٢٣٠، ٣٣٢، ٢٩٣ ، ٢٩٧، ٣٠٥، وينظر: ٢/٢، ٣٨/، ٤٠، ٤٨، ٥١، ٦٨، ٧٩، ٨٣، ٩١، ١٠٦، ١٠٨، ١٢١، و١٤٣، ٤٩٢، ١٥٠، ١٥٧، ١٨٤.

(٤) الروض الانف: ٣/١ و٤

(٥) ينظر مثلا: ٣٥/١، ٤٢، ٤٦، ٦٥، ١٢١، ١٣٣، ١٧١، وينظر: ٢٥/٢، ٣٦، ٧٦، ٨٣، ٨٨، ١٢٤، ١٢٧، ١٥٧، ١٨٣، ٢١٣، ٢٣٦.

الكتاب يعتبر مصدرا اوليا لمعظم الاخبار الواردة في الفصول التي تحمل عنوان (الفوائد) والتي تعقب المواضيع المهمة في السيرة النبوية.

٤ـ كتاب المغازى، لموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ

من المؤلفات المفقودة (١)، اعتمده ابن سيد الناس في عدة اماكن من سيرته (٢).

٥ ــ كتاب المغازى، لابن عائذ القرشي المتوفى سنة ٢٣٣هـ.

وهو من المؤلفات التي لم تصل الينا، افاد منه ابن سيد الناس في عدة مواضع (٣).

٦ ــ كتاب الدرر في اختصار المغازى والسير لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٥٦هـ

نقل عنه في مواضع (٤).

٧ـ كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض

برغم شهرة هذا الكتاب وسعة انتشاره في ارجاء الوطن العربي فان ابن سيد الناس لم ينل منه بما يوازي قيمته وشهرته، واكتفى بالاشارة اليه في مواضيع قليلة لاتتعدى الثلاثة او الاربعة (٥).

---

(١) هناك قطعة من نص منه هذبه يوسف بن محمد بن قاضي شهبه المتوفى سنة ٧٨٩ هـ موجودة في برلين تحت رقم ١٥٥٤ (الاوراق ٧٤–٧٧) وقد حقق ماهو هذه القطعة ومترجمها الى الالمانية ، ينظر: سركين: ٤٥٨/١ ، حسين نصار : التدوين التاريخي : ٦٦.

(٢) ينظر ٥١/١، ١٣٤، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٤٩، ٣٠١، وينظر ٣٩/٢، ٨١، ٨٨، ٩١، ١٠٥، ١١٣، ١٢١ ، ١٢٨، ١٥٥.

(٣) ينظر: ٤٦/٢، ٧٩، ١٠٥، ١٠٧، ١٢٦، ١٦٤، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٢١، ٢٣١، ٢٧١، ٢٨٨ .

(٤) ينظر: ٤٧/١، ٥٥، ٦٤، ٢١٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٧٣، ٢٩٢، وينظر: ٤٦/٢، ٢٩٩، ٣١٠.

(٥) ينظر: ٥٦/١، ٩٨، ١١٤.

ب – كتب الحديث.

مصادره الحديثية قسمان: – كتب حديثية معروفة ومشهورة، واخرى تقع في عداد المجاميع والمرويات والفوائد المتعلقة بعلم الحديث، وعلى رأس القائمة الأولى تقع المؤلفات الاتية: –

١ – صحيح الامام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ

٢ – صحيح الامام مسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٢٦١هـ

٣ – سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٧٣هـ

٤ – سنن أبي دارد المتوفى سنة ٢٧٥هـ

٥ – سنن النسائي، احمد بن شعيب المتوفى سنة ٣٠٣هـ

٦ – الجامع، للترمذى، محمد بن عيس المتوفى سنة ٣٧٩هـ

ومما لاشك فيه ان هذه الكتب هي كتب الامة في السنة النبوية، ثم هي كتب لابد من دراستها وتدريسها، وما من عالم او طالب الاوله نصيب من هذه المؤلفات، وقد افاد ابن سيد الناس من مجموع هذه المؤلفات، فائدة تتراوح ومقدار قيمة وشهرة الكتاب والمؤلف، وان كانت هذه الفائدة تتحدد في رواية بعض الاحاديث النبوية، او الاخبار التي يتناقلها معظم مؤلفي كتب السيرة.

وفي القسم الثاني نجد المؤلفات الاتية: –

٧ – مارواه عن ابي يعلي الموصلي، احمد بن علي المتوفى سنة ٣٠٧هـ (١).

٨ – مارواه عن ابن ابي بشر اللولابي، محمد بن احمد المتوفى سنة ٣١٠ هـ(٢).

٩ – مارواه عن ابي عروبة الحسين بن ابي معشر الحراني المتوفى سنة ٣١٨هـ.

---

(١) من اثارة (المسند) مخطوط.

(٢) عن اثارة ينظر: سزكين: ٢٧٤/١.

١٠ ـ الفوائد المعروفة بالغيلانيات (١) ، لابي بكر محمد بن عبدالله المتوفى سنة ٣٥٤هـ.

١١ ـ مارواه عن الطبراني، سليمان بن احمد المتوفى سنة ٣٦٠هـ.

١٢ ـ معجم (٢) ابي الحسين بن جميع الغساني، محمد بن احمد المتوفى سنة ٤٠٢هـ.

جـ ـ واما كتب التواريخ والانساب ومايتعلق بها، فابن سيد الناس لم يذكرها ضمن قائمة مصادره كما فعل مع المصادر المذكورة انفاً، ولم يروها كما روى المؤلفات السابقة ولعل السبب يعود إلى ان مثل هذه المؤلفات ليس لها مكان رسمي في الحلقات العامة للدرس، ولايحتاج الطالب معها إلى تقرير شيخ من الشيوخ، لذا كانت طريقة تحمل معظم هذه المؤلفات يتم بالاجازة العلمية في اغلب الاحيان ، اضافة إلى انها تعد من الكتب المساعدة والثانوية بالنسبة لمؤلفي السيرة النبوية قياسا على المصادر السابقة، وقد ورد ضمن سياق السيرة اشارات إلى نصوص منقولة من كتاب فتوح البلدان (٣)، للبلاذري ، ومن تاريخ الطبري (٤) ، واشارات اخرى عن مؤلفات الخشني (٥) وابن حزم (٦) والكلاعي صاحب كتاب الاكتفاء (٧) ، عن الرشاطي في كتابه الخاص بالانساب (٨)، وعن عبد المؤمن الدمياطي في رسالته الخاصة بنسب الاوس (٩).

---

(١) الغيلانيات: فوائد منتخبة من عوالي الاحاديث رواها عنه ابو طالب محمد بن غيلان المتوفى سنة ٤٤٠هـ.

(٢) وهو معجم شيوخ ابن جميع خرج عن كل شيخ حديثا. وله المعجم الكبير والوسيط والصغير وهي مخطوط.

(٣) ينظر: ١/١٩٥، ٢/١٤٠، ١٤٣

(٤) ينظر: ٢/٧٦، ١٠٠

(٥) ينظر: ١/١٩٩، ٢/٢١٣.

(٦) ينظر: ٢/٢٧٢

(٧) ينظر: ٢/٢٤٩

(٨) ينظر: ٢/٢٧٥

(٩) ينظر: ٢/٦٧

٥- ملاحظات عامة في متن السيرة :

لكي نقف على مدى باع ابن سيد الناس في عرض ماتوفر له من معلومات، وكيف استطاع ان يوفق بين الروايات المختلفة ،ويميز بين الغث من الاخبار والسمين منها، لابد من الاستئثار بجملة ملاحظات شاملة لعموم متن السيرة مقرونة ببعض الامثلة المنتقاة من شبيه الخبر او الحادث ومثله واهمال مادون ذلك.

١ - أول مانلاحظه أن ابن سيد الناس اعتمد على شيوخه في رواية جانب واحد من المعلومات، وهذه المعلومات لاتتعدى رواية المشهور من الاحاديث النبوية، او المشهور من الاخبار نراها تتكرر دائما في جميع المؤلفات المهتمة بهذا الفن من التأليف وعلى سبيل المثال فقد روى بسنده أن الرسول «ص» قال: «ان الله اختار العرب على الناس، واختارني على من انا منه، ثم انا محمدبن عبدالله حتى بلغ النضر بن كنانة، ثم قال، فمن قال غير هذا فقد كذب» (١). وروى حديث مولد الرسول (ص) وحديث: «ماهممت بقبيح مما يهم به اهل الجاهلية الامرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله عز وجل منها ....»(٢) وحديث البعثة ، وحديث الاسراء ، وحديث الغار (٣) إلى غير ذلك من الاحاديث التي تقع في باب المشهور والمعروف لدى عامة اهل الحديث وغيرهم (٤).

---

(١) عيون الاثر: ٢٢/١، سيرة ابن اسحاق: ١/١، وينظر: التنبيه والاشراف ١٩٥، زاد المعاد: ١٥/١، البخاري: ٥٦/٤، سيرة ابن كثير: ١٨٣/١ تاريخ الطبري: ٢٣٩/٢، المعارف: ١١٧ .

(٢) عيون الاثر: ٤٤/١، الطبري: ٢٧٩/٢، ابن كثير: ٢٥٢/١ .

(٣)عيون الاثر: ٨٠/١، ١٤٠، ١٨٢، وينظر: ابن اسحاق: ١٥٢/١، ٢ ٢٦٨، ٣٣٥ البخاري: ٦٦/٥، الطبري: ٢٩٠/٢، تاريخ اليعقوبي: ٢٢/٢، ٢٦، زاد المعاد: ١٨/١، الروض الانف: ١٤٨/٢، ٢٣١.

(٤) ينظر مثلا: ٢٦/١، ١٣٦، ١٥٢، ١٨١، ٢/٢ من عيون الاثر.

ومن الاخبار المتواترة روى اخبار قس بن ساعدة الايادي (١) ، وخبر سواد ابن قارب وتكهنه في الجاهلية (٢)، وايذاء ابي جهل للرسول (ص) (٣) ثم خبر اسلام عمر بن الخطاب (٤) وغيرها.

٢ - استوعب ابن سيد الناس مصادره استيعابا يدل على معرفة تامة بقيمة كل مصدر من هذه المصادر، ووفق إلى حد كبير في استخدامها واستخلاص المعلومات والاخبار من الكتب المتخصصة، وألحق هذه المعلومات والاخبار بتعقيبات منافية لشرح غريب الالفاظ أو توضيح جملة مبهمة، او التعريف بدلالة بعض أسماء الرجال والاماكن ومثل هذه التعقيبات كانت ملحقة آخر كل موضوع من المواضيع، او ضمن فصل خاص سماه «ذكر فوائد تتعلق بهذا الفصل ...» فبالنسبة لشرح الالفاظ، قال نقلا عن الرشاطي: «العرن حكة تصيب الفرس والبعير في قوائمها »(٥) وعن ابن دريد : «عكل الشيء اذا جمعته» وقيل «عكل يعكل قال برأيه مثل حدس، ورجل عكلي اي احمق» (٦) .

وقد ساق المؤلف هذه التوضيحات اثناء تعرضه لسرية سعيد بن مزيدالى العرنيين في سنة ٦هـ، واضاف بانهم حي من بجيلة وينسبون إلى عرينة بن نذير بن قسر، واما عكل: فهي امراة حضنت بني عوف بن وائل بن قيس(٧)

وتعرض ابن سيد الناس إلى ضبط ألفاظ الاماكن والبقاع مع التعريف

---

(١) عيون الاثر: ٦٨/١

(٢)عيون الاثر: ٧٢/١، ابن اسحاق: ١٣٦/١، ابن كثير: ٣٤٢/١، تاريخ الطبري: ٩٦/٢

(٣)عيون الاثر: ١٠٢/١، البخاري: ٥٦/٤ ، ابن اسحاق: ١٩٤/١، الطبري: ٤٧٢/٢، وابن كثير: ٤٦١/١ .

(٤) عيون الاثر: ١٢٢/١، ابن اسحاق : ٢٨٨/١. الروض الانف: ٩٨/٢.

(٥) عيون الاثر: ٩٠/٢، وينظر: معجم مقايس اللغة: ٣٣/٤.

(٦) عيون الاثر: ٩٠/٢، وينظر المعجم : ٩٩/٤

(٧) عيون الاثر: ٩٠/٢، البخارى: ١٦٤/٥

الذي يفي بالمقصد، ،وان كان همه التركيز على الاماكن التي ارتبط تاريخها بحوادث السيرة النبوية كقباء، والمدينة، والحديبية، ومؤتة، وحنين (١). ومثل ماعرف بالاماكن والبقاع فقد عرف بعض الشخصيات الواردة ضمن سياق الحوادث التاريخية كتعريفه بالبراء بن معرور (٢). وام معبد (٣)، وحبان بن العرقة (٤)، والاقرع بن حابس (٥) وغيرهم.

٣ـ تحرى ابن سيد الناس الحقيقة التاريخية من خلال النصوص المنقولة عن مصادره المختلفة في الحدث او الموضوع الواحد عن طريق الموازنة بين دقة الخبر وسلامة السند، ومن ثم فله رأي يلحقه آخر كل موضوع. والامثلة على ذلك كثيرة اخترنا منها مثالين فقط: الاول: في ذكر الهجرة إلى ارض الحبشة، والاسباب التي دعت بالمهاجرين الاولين الى العودة، فقد سرد ابن سيد الناس الخبر كاملا ثم تتبع اقوال مؤرخي السيرة في ذلك ثم عمد الى اقوال شيوخه وآرائهم واستخلص رأيا خاصا جعله خاتمة المبحث، فاما الخبر فنصه: «وكان سبب رجوع الاولين الاثني عشر رجلا من ذكر معهم من النساء فيما روى ان الرسول (ص) قرأ يوما على المشركين «والنجم اذا هوى» (٦). حتى بلغ «افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى» (٧) القى الشيطان كلمتين على لسانه «تلك الغرانيق العلى وان

---

(١) عيون الاثر: ١/١٨٠، ٢/١٢٤، ٢/١٥٣، و ١٥٦ و ٢/١٩٩.

(٢) عيون الاثر: ١/١٧١.

(٣) قال ابن سيد الناس: «ام معبد: عاتكة بنت خالد أحدى بني كعب من خزاعة وهي اخت حبيش ابن خالد... وكان منزلها بقديد» ينظر ١/١٩١.

(٤) قال ابن سيد الناس: «حبان بن العرقة: هو حبان بن عبد مناف بن منقذ بن عمر والعرقة امه هي: قلابة بنت سعيد بن سعد ... سميت العرقة لطيب ريحها كذا ذكر السهيلي...» ينظر ٢/٧٧

(٥) قال ابن سيد الناس: «والاقرع بن حابس لقب واسمه فراس وكان في رأسه قرع فلقب بذلك ذكر ذلك ابن دريد» ينظر: ٢/٢٠٥.

(٦) النجم اية: ١

(٧) النجم: اية ١٩

شفاعتهن لترجى» فتكلم رسول الله (ص) بهما ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد وسجد القوم جميعا ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً لايقدر على السجود، ويقال ان ابا اميمة سعيد ابن العاص اخذ ترابا فسجد عليه، ويقال كلاهما فعل ذلك فرضوا بما تكلم به رسول الله (ص)، وقالوا: قد عرفنا ان الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فاما اذا جعلت لها نصيبا فنحن معك، فكبر ذلك على رسول الله (ص) من قولهم حتى جلس في البيت فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة فقال جبريل ما جئتك بهاتين الكلمتين .... قالوا: ففشت تلك السجدة في الناس حتى بلغت ارض الحبشة .... فخرجوا راجعين حتى اذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبانا من كنانة فسألوهم عن قريش فقال الركب، ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملائكة، ثم ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشر ....» (١).

فاما اقوال مؤرخي السيرة، فقد قال الواقدي: خرجوا في رجب سنة خمس فأقاموا شهري شعبان ورمضان وكانت السجدة في رمضان فقدموا في شوال من نفس السنة. وقال السهيلي، ذكر خبر السجدة موسى بن عقبة وابن اسحاق، وأهل الاصول يرفعون هذا الحديث بالحجة ومن صححه قال فيه اقوالا عديدة منها: «ان الشيطان قال ذلك واشاعه والرسول لم ينطق به»، وهذا جيد لولا ان في حديثهم ان جبريل قال لمحمد ما اتيتك بهذا؛ ومنها ان النبي (ص) قالها من قبل نفسه وعني بها الملائكة ... ومنها ان النبي (ص) قالها حاكيا عن الكفرة وانهم يقولون ذلك فقالها متعجبا من كفرهم، قال السهيلي والحديث غير مقطوع بصحته.

اما آراء شيوخه، فقد تحدد برأى رواه عن شيخه عبد العظيم المنذرى والذي كان يرد هذا الحديث من جهة الرواة، وان شيخه الدمياطي كان يخالفه الرأى (٢).قال ابن سيد الناس: «انه جار مجرى ما يذكر من اخبار

---

(١) عيون الاثر : ١/١٢٠و ١٢١، ايضا : مغازى رسول الله، لعروة بن الزبير: ١٠٦ ،

(٢) عيون الاثر : ١/١٢١

هذا الباب من المغازى والسير، والذي ذهب اليه كثير من اهل العلم الترخص في الرقائق ومالاحكم فيه من اخبار المغازى وما يجرى مجرى ذلك وانه يقبل فيها من لايقبل في الحلال والحرام لعدم تعلق الاحكام بها، واما هذا الخبر فينبغي بهذا الاعتبار ان يرد الى مايتعلق به الا أن يثبت بسند لا مطعن فيه بوجه ولا سبيل الى ذلك فيرجع الى تأويله» (١).

ورأيه من خلال النص الانف الذكر مبني على اساس النظر دون التطبيق اذ وجه معظم المحدثين جهودهم لنقد الاخبار الدينية الشرعية التي تتضمن حلالاً او حراما ولم يهتموا كثيراً بالاخبار التي تدخل في عداد الامتاع والتسلية وتزجية الفراغ (٢). وقد انكر هذا الخبر غير واحد من الائمة(٣) والباحثيـــن (٤) .

ومثل ما عرض موضوع عودة المهاجرين، تعرض لموضوع تحويل القبلة من بيت المقدس الى مكة المكرمة، فذكر اقوال ابن اسحاق والواقدى وابن سعد وموسى بن عقبة وابن عبدالبر ، وروى احاديث عديدة عن البخارى وعن شيوخه ، واذا كان دوره يعد بعد هذا محدوداً امام هذه المرويات ، فانه عمد الى حديث من الاحاديث، وحقق فيه شخصية رجل أبهمه الراوي ومن هنا وجد له مكانا للمساهمة بين هـذه الروايـات (٥).

واستطاع ابن سيد الناس ان يفاضل بين الروايات من خلال السند، فمثلا يعتمد الواقدى في مكان دون اخر ويقدمه على بقية الرواة كما في المثال التالي : «كتاب رسول الله (ص) الى المنذربن ساوى العبدى مع العلاء الحضرمي ...ذكر الواقدى باسناد له عن عكرمة قال: وجدت هذا الكتاب

---

(١) عيون الاثر : ١٢١/١

(٢) منهج النقد التأريخي : ١٩٥

(٣) ينظر : السيرة الحلبية : ٩٢٨/١ فقد سرد المؤلف جملة الاراء الخاصة بهذا الحديث .

(٤) ينظر مثلا : ما ذكره الدكتور محمد مصطفى الاعظمي - محقق كتاب (مغازي رسول‌الله لعروة) في الهامش رقم ٢ من الصفحات ١٠٦-١٠٨ .

(٥) عيون الاثر : ٢٣٨/١، وينظر : البخارى : ١٦/١، اخبار مكة : ١٩/٢

في كتب ابن عباس بعد موته فنسخته فاذا فيه بعث رسول الله (ص) ، العلاء بن الحضرمي الى المنذر ......»(١). فالفاعل الاصيل في تقديم رواية الواقدى كما يبدو هو سند الرواية مع وجود الاثبات المادى «وجدت هذا في كتب ابن عباس ....» . وقد يفاضل بين الروايات في الخبر الواحد معتمداً على دقة وتفصيل الرواية كما هو الحال في ذكر الخبر عن ابي صبر وابي جندل حيث بدأ بذكر رواية ابن اسحاق ثم انتقل إلى رواية ابن عقبة ويبدو من خلال السياق ان الضرورة قد دعته إلى اعتمادها فهي اكثر تفصيلا ومن ثم فهي تختلف بشأن اسم الرجل الذي بعثته قريش في طلب ابي الصير (٢).

٤ ـ التزم ابن سيد الناس طريقا وسطا فيما يخص انساب الرجال وحاول قدر الامكان تجنب التكرار وغايته من ذلك التعريف بالرجال بحسب مايقتضيه الحال فقد يستوعب نسب الرجل ويصل إلى فخذه او بطنه المشهور او ابعد من ذلك من شعبه او قبيله .

٥ ـ استشهد ابن سيد الناس بالابيات الشعرية وبما يناسب الموضوع او الخبر ولاتتعدى هذه الابيات في الغالب الاربعة او الستة فيما عدا الشعر المقول في معركة بدر (٣)،وقصيدة البردة،(٤) والتي كما يبدو نقلت بتمامهما

٦ ـ استعمل المؤلف صيغ اهل الحديث في تحمل العلم كقوله حدثني، وسمعت، ووجدت بخط ....واذا كانت الصيغتان الاوليتان تدل على القراءة او السماع من افواه الشيوخ فان الصيغة الثالثة تعني الوجادة (٥). وهي اضعف صور التحمل وان قصر ابن سيد الناس ذلك على ماوجده بخط والده او وجده فقط دون غيرهما من العلماء.

---

(١) عيون الاثر : ٢٦٦/٢، وينظر : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ١١٩،١١٣.
(٤) عيون الاثر : ١٢٧/٢
(٣) عيون الاثر : ٢٨٨/١
(٤) عيون الاثر : ٢٠٨/٢
(٥) الالماع : ١١٦، مقدمة ابن الصلاح : ٦٩

٦ ـ القيمة العلمية لسيرة ابن سيد الناس:

اذا قصدنا بيان اهمية هذه السيرة ومكانتها بين المؤلفات الخاصة بهذا العلم فلابد من مناقشة عدة جوانب منها مايتعلق بالمنهج ، ومنها مايتعلق بالمصادر فضلا عما تميزت به سيرته عن بقية السير التي ألفت في عصره او بعده بقليل .وسأكتفي بنقاط مركزية أشير اليها تجنبا للتكرار .

فأما المنهج فالصيغة التي تغلب على ابن سيد الناس كونه من أعلام المحدثين العارفين بطرق الرواية ومنهجه مكتسب من صفته هذه لذا اعتمد السند كأساس لرواية الاخبار وقدمه على غيره وان كان مقصوراً او منقوصا وتبعه بالخبر المرسل وان كان اكثر استيفاء وفائدة وعده في درجة ادنى من سابقه وعندما يميز ابن سيد الناس بين درجات الاسانيد فانه يميز ذلك من خلال نقد تلك الاسانيد وتحليل المتن الذي هو غاية الاسناد ، وبذا جمع بين علمي الرواية والدراية وفاضل بين الاسانيد واختار اوثقها وربط بين الاسناد والخبر ربطا وثيقا ومال إلى الرأي والاجتهاد في نواحي اعتقد انها تحتاج إلى الاجتهاد، وعلى هذه الاسس قامت سيرته محكومة بمنهج رصين لايحتمل الاضطراب.

واذا عدنا إلى مصادره فان المؤلف استوعب اغلب المصادر المهمة الباحثة في سيرة الرسول (ص) واضاف اليها اشهر مصادر الحديث المتداولة لدى الامة وليس في ذلك ميزة وانما ضرورة وعاها ابن سيد الناس وغيره ممن سبقوه في هذا المضمار واضاف اليها كتبا اخرى مساعدة كشرح السهيلي واخرى ثانوية جمعت بين مواضيع التاريخ العام والانساب واللغة.

واستطاع المؤلف ان يأتي بجديد او بميزة امتازت بها سيرته من خلال الفصول التي تحمل اسم (الفوائد) هذه الفصول هي فوائد مضافة إلى اصل الموضوع فهولم يترك خبراً او شخصا او مكانا او لفظا غامضا الا واتى بتوضيح او تعريف مناسب له، ليصبح الخبر والموضوع بعد ذلك مكتمل الاركان والاغراض، وتبلغ فصوله المسماة بالفوائد واحداً وعشرين فصلا اعقبت معظم المفردات المهمة في السيرة.

اضافة إلى ذلك فان لسيرة ابن سيد الناس اهمية تاريخية تتحدد باحيائه لمثل هذا الاتجاه في التأليف بعد انقطاع دام عدة قرون باستثناء ماالفه بعض العلماء كالقاضى عياض مثلاً.

وبعد فقد اثنى على تأليفه هذا كل من ترجم له من العلماء وعلق عليها ابراهيم بن محمد الحلبي المتوفى سنة ٨٤١هـ حاشية سماها (نور النبراس في شرح سيرة ابن سيد الناس) واعتنى محمد بن يونس الشافعي المتوفى سنة ٨٤٥ (١) . ينظم هذه الحاشية وقد اهتم علماء المغرب بدراسة هذه السيرة وعدت من ضمن المقررات في هذا العلم وقد اورد ابن غازي المتوفى سنة ٩١٩هـ عدة اشارات تخص قيمة واهمية هذه السيرة (٢).

ان كتاب ابن سيد الناس هذا يعد من أمثل الكتب المؤلفة في السيرة النبوية خلال هذه الفترة قياسا الى المؤلفات الاخرى التى ألفت،فالامام الذهبي وابن كثير كلاهما الف في هذا المجال وكلاهما استقى من هذه السيرة بشكل او بآخر وان اهملا الافصاح عن ذلك،وما الف بعد هذا التاريخ من كتب في السيرة فلا تعدو الاكونها عيالا على ما ذكره وحققه ابن سيد الناس.

ومهما يكن من امر فان جهود العلماء ومنهم ابن سيد الناس يعد جهداً مضافا الى جهود العلماء القليلين الذين برزوا ليعطوا القرن الثامن الهجرى سماته العلمية الواضحة من خلال عدد من المؤلفات التى ألفوها وفي فنون العلوم المختلفة في وقت قلّ به الطلب ونزر الابداع واهملت الرواية او درست وقد عبر الذهبي عن ذلك بقوله :«وقد قل من يعتني بالاثار ومعرفتها في هذا الوقت في مشارق الارض ومغاربها على رأس السبعمائة ، اما المشرق واقاليمه فغلق الباب وانقطع الخطاب واما المغرب وما بقي من جزيرة الاندلس فيندر من يعتني بالرواية كما ينبغي فضلا عن الدراية» (٣) ، ولا

(١) كشف الظنون : ١١٨٥/٢ .

(١) فهرسة ابن غازي المكناسي : ورقة ٤٣ و

(٣) طبقات الحفاظ ٤: ١٤٨٥/

خلاف فالذهبي من علماء العصر الافذاذ في بلاد المشرق وقوله فيه دلالة على صدق الواقع يزيده وثوقا ما حكاه الواداياشي ايضا عـن قلة المعتنين بالرواية حيث ذكر انه لم يجد في الديار المصرية من يحمل مصنف النسائي رواية ابي بكر محمد بن معاوية بن الاحمر سند المغاربة حتى رواه عن شيخـه ابي العباس احمد بن الغماز بأسانيده (١) .

فرحم اللـه ابن سيد الناس وعلماء هذه الامة الذين رفدوا ينابيع العلـم الثر بالكتاب المفيد والقـول السديـد.

---

(١) برنامج الواداياشي، ورقة ٦٧

المصادر والمراجع

- اخبار مكة، لابي الوليد محمد بن احمد الازرقي
  تحقيق رشدي الصالح ،ط: مكة المكرمة ١٩٦٥م
- الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ،للقاضي عياض ت ٥٤٤هـ
  تحقيق احمد صقر، مطبعة السنة المحمدية ،١٩٧٠م
- انباء الغمر بابناء العمر، لابن حجر ت٨٥٢هـ
  تحقيق د. حسن حبشي ،القاهرة، ١٩٦٩م
- برنامج الواديا شي المتوفى سنة ٧٤٩هـ
  مخطوط الاسكوريال تحت رقم ١٢١٤.
- تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين
  ترجمة د. محمود فهمي، القاهرة ١٩٧٧.
- تاريخ الطبري، المتوفى سنة ١٣٠هـ
  تحقيق ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف مصر.
- تاريخ اليعقوبي: احمد ابن جعفر
  بيروت ١٩٦٠.
- تذكرة الحفاظ، الذهبي محمد بن احمد المتوفى ٧٤٨
  حيدر اباد ط٣، ١٩٥٨.
- التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ط٢، دار المعارف مصر.
- التنبيه والاشراف، للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٥هـ، القاهرة ،١٩٣٨م.
- الدرر الكامنة، لابن حجر.
  تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦.
- ذيل تذكرة الحفاظ ،للسيوطي ت ٩١١هـ، مطبعة التوفيق، دمشق ١٣٤٧هـ.

- ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني الدمشقي - دمشق ١٣٤٧هـ.
- الروض الانف، للسهيلي ت ٥٨١، مطبعة مصر.
- زاد المعاد في بد هدى خير العباد ،ابن قيم الجوزية، طبعة بيروت.
- سيرة ابن اسحاق، تهذيب ابن هشام ،مطبعة المدني، مصر.
- سيرة ابن كثير الدمشقي ت ٧٤٧هـ، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة ١٩٦٤م.
- السيرة الحلبية، برهان الدين الحلبي ت ٢٠٤٤هـ ط١، مصر ١٩٩٤.
- شذرات الذهب، لابن العماد، طبعة القدس، مصر ١٣٥٠هـ.
- صحيح الامام البخاري ،دار احياء التراث العربي، بيروت.
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، للادفوي ٧٤٨هـ.
تحقيق سعد محمد، القاهرة ١٩٦٦م.
- طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ت٧٧١هـ ، الحسينية ، ١٣٢٤هـ.
- طبقات الشافعية للاسنوي ت ٧٧٢،
تحقيق عبدالله الجبوري، بغداد ١٣٩١هـ.
- طبقات الحفاظ، للسيوطي، مطبعة الاستقلال، ١٩٧٣.
- الطبقات الكبير، لابن سعد، ليدن ١٣٢٢هـ.
- علوم الحديث، صبحي الصالح ط ١٠ - بيروت ١٩٧٨م
- فوات الوفيات، لابن شاكر ت ٧٦٤هـ- مصر ١٩٥١م.
- كشف الظنون، حاجي خليفة ت ١٠٦٧هـ طبعة بالاوفسيت - مكتبة بغداد
- فهرست ابن غازى المكناسي ت ٩١٩، مخطوط الاسكوريال تحت رقم (١٧٢٥)٢
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي ت ٧٦٨هـ، حيدر اباد - ١٣١٩هـ

- المعارف لابن قتيبة ت ٢٧٦
تحقيق ثروة عكاشة: ط ٢ دار المعارف مصر.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ت ٣٩٥هـ
تحقيق عبد السلام هارون ط٢، مصر ١٩٧٠م
- معرفة علوم الحديث، للحاكم أبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥هـ
تحقيق معظم حسين، بيروت، ط٢٠ ١٩٧٧
- مغازى رسول الله، لعروة بن الزبير، برواية أبي الاسود عنه جمع وتحقيق د. محمد مصطفى الاعظمي - الرياض ١٩٨١.
- المغازى للواقدي: حمد بن عمر المتوفى سنة ٢٠٧هـ
تحقيق د. مارسدن جونس، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦م
- مقدمة ابن صلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ مطبعة السعادة، ط١، ١٣٢٦هـ
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، جمع د. محمد حميد الله. ط٣، ١٩٦٩م، بيروت
- منهج النقد التاريخي د. عثمان موافي ط٢، الاسكندرية ١٩٧٦.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (الخطط)، للمقريزي، تقي الدين احمد بن علي المتوفى سنة ٨٤٥هـ - مصر، بولاق - ١٢٩٤هـ
- الوافي بالوفيات، للصفدي، نشر المستشرقين الالمان ١٩٣١ - ١٩٧٠.

قياس الاهمية النسبيـة

لمصادر الطاقة الحديثة في العالم الاسلامي وآفاقها المستقبلية

د. محمد ازهر السماك

استاذ مساعد

كلية التربية – جامعة الموصل

حظيت موضوعات مصادر الطاقة اهتماما كبيراً من لدن المعنيين في الابحاث الاقتصادية والتقنية بسواء. وقد تم نشر العديد من الابحاث والدراسات في هذا المجال. غير ان معظم تلك الكتابات تنصب على الاطارين القومي والتنظيمي. اي انها تتخذ من الوطن العربي نموذجا لمعالجاتها تارة، ومن اقطار منظمتي اوابيك O.A.P.E.C واوبك O.P.E.C مسرحا للدراسة تارة اخرى.

وهذا يعني ان النظرة المكانية الفاحصة على مستوى العالم الاسلامي لم تكن واضحة فيما كتب ونشر. فان تحديد الأهمية النسبية لمصادر الطاقة الحديثة ضمن الاطار المكاني وحساب تجاهات نموها وتطورها امر يستحق الدراسة. مساهمة في تحديد الوزن الستراتيجي لهذه القوة الاقتصادية في عالمنا المعاصر لذا فاننا سنتناول هذه المشكلة من وجهة نظر اقتصاديات المكان المقارنة. الموارد الاقتصادية معتمدين في ذلك على ماتيسره البيانات والاحصاءات المنشورة في مصادرها الاصلية الاجنبية والعربية.

وعليه فان هذا البحث يعالج النقاط الرئيسية الاتية:

توطئة — تحديد مسرح الدراسة اقليميا ونوعيا.

اولا — تباين الاهمية النسبية لمصادر الطاقة الحديثة في العالم الاسلامي: جغرافيا ونوعيا.

ثانيا — الافاق المستقبلية لمصادر الطاقة في العالم الاسلامي.

توطئة – التركيب الاقليمي والنوعي لمسرح الدراسة : –

ليس من الميسور ان نحدد العالم الاسلامي باقليم جغرافي موحد. ذلك لترامي اطراف هذا الاقليم في معظم قارات العالم. بالاضافة الى انه ليس سهلا ان نحصوا عدد المسلمين بدقة. ناهيك عن سيادتهم في بقاع اخرى. ومهما يكن فان حوالي سبع سكان المعمورة يعتنقون الدين الاسلامي الحنيف. والاسلام بعد هذا توسع دينامي مضطرد وبعيد المدى (١). ومع ذلك فقد امكن تحديد العالم الاسلامي بنحو ١٨ دولة افريقية و١٦ دولة اسيوية ودولة واحدة (البانيا) اوربية (٢) .

ولما كانت مصادر الطاقة الحديثة تكاد تكون احتكاراً لبعض تلك الدول دون سواها من هذا الاقليم، لذلك فان هذه الدول ستكون محور الدراسة هنا فقط. وهي تتضمن كافة الاقطار العربية المنتجة للنفط الخام والغاز الطبيعي بالاضافة الى ايران وافغانستان وبنغلادش واندونسيا واتحاد ماليزيا وبوني ونيجيريا وغينيا وتشاد ومالي والسنغال والبانيا.

ولعل المقصود بمصادر الطاقة الحديثة: مصادر الطاقة الاولية الرئيسية: النفط الخام والغاز الطبيعي والفحم الحجري والقوى المائية والطاقة النووية مستبعدين بذلك طاقة الانسان والحيوان باعتبارهما من اقدم مصادر الطاقة اما الطاقة الكهربائية فعلى الرغم من كونها من مصادر الطاقة الحديثة الا انها ليس من المصادر الاولية لان انتاجها يستلزم اعتماد مصدر اولي للطاقة. هذا وقد استبعدنا الحديث قدر الامكان عن مصادر الطاقة غير المستغلة بمستوى المصادر الانفة الذكر . كالطاقة الشمسية وحرارة جوف الارض وغاز الهيدروجين والاتحاد النووي وغيرها.

اولا – تباين الاهمية النسبية لمصادر الطاقة في العالم الاسلامي جغرافيا ونوعيا :

يتفرع هذا المبحث لدراسة مايلي:

١ – التغيرات الهيكلية في موازنة مصادر الطاقة عالميا.

٢ – الاهمية النسبية للعالم الاسلامي في هيكل استهلاك مصادر الطاقة.

١ – التغيرات الهيكلية في موازنة مصادر الطاقة عالميا:

من دراسة هيكل استهلاك الطاقة عالميا للسنوات ٦٥ / ١٩٧٨ والمبين في جدول رقم (١) تتضح اهمية مصدر الطاقة الاول: النفط الخام. اذ يستأثر بنحو ٤٤,١ ٪ من اجمالي مصادر الطاقة عالميا .

وللنفط مزايا هامة وعديدة . فهو سلعة ستراتيجية لها خطورتها وقت السلم والحرب بسواء .

وتنبع اهمية النفط الستراتيجية من حقيقتين : اولاهما كونه مصدر للطاقة وثانيتهما لانه مادة خام اساسية لفروع الصناعات الكيمياوية والبتروكيماوية المختلفة . فالنفط كمصدر للطاقة يحظى بمكانة متميزة بين مجموعة هذه المصادر ناجمة عن اسباب فنية واقتصادية عديدة وتتمثل في درجة الاحتراق الحالي وارتفاع معامله الحراري فالطن الواحد من الديزل – احد المنتجات النفطية – يعطي حرارة تتراوح بين ١,٥ – ٧ اطنان ما يعادل بالوزن من الفحم الحجري (٢) ، ونظافة استخدامه وسهولة نقله . فتكلفة نقل الطن الواحد من النفط تبلغ ٤٠ سنتا مقابل دولاراً بالنسبة للوزن ذاته من الفحم الحجري علما بان وسائل شحنها تستهلك كميات من الوقود متساوية (٤) ، زد على ذلك امكانية تخزينه وانخفاض نفقات انتاجه بالاضافة الى ما تتيحه من مزايا اخرى تعتبر ضرورية لوسائل النفط الحديثة كالسرعة وغيرها .

وتظهر اهمية النفط كمادة خام اساسية في العديد من فروع الصناعات الكيمياوية والبتروكيمياوية حتى ان الاخيرة قد اشتقت اسمها منه والتي اضحت منتجاتها بحكم التقدم التقني تستخدم في كافة مقومات الحياة لرخص مواد الخام – النفط والغاز الطبيعي – وتنوع منتجاتها ورخص اثمانها وشيوع استعمالها وسرعة انتشارها ولارتفاع قيمتها المضافة بالتالي .

جدول رقم (١)

الاهمية النسبية لهيكل استهلاك الطاقة عالميا

مصادر الطاقة	نسبة مساهمة المصدر من اجمالي مصادر الطاقة ٪			
	١٩٦٥	١٩٧٣	١٩٧٥	١٩٧٨*
النفط الخام	٣٧,٣	٤٥,٨	٤٣,٩	٤٤,١
الغاز الطبيعي	١٥,٨	١٧,٨	١٨	١٨,٩
الفحم الحجري	٤١,٣	٣٠,٤	٣٠,٧	٢٧,٨
الطاقة الكهربائية	٥,٤	٥,٢	٥,٩	٦,٤
النووية	٠,٢	٠,٨	١,٥	٢,٨
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

* عن BP. sbatistical Review 1979

وتتمثل هذه الصناعات القائمة على النفط في صناعات زيوت التشحيم ومواد اللدائن والعقاقير الطبية والمنظفات الصناعية ومواد التجميل والورق والمنتجات والمنسوجات والمطاط الصناعي والالياف والمبيدات الحشرية والمفرقعات بالاضافة الى بعض فروع الصناعات الغذائية ايضا (٥) . وهي جميعا مما يمكن اعتباره عن الصناعات الستراتيجية ذات الأهمية الخاصة لشؤون الدفاع والاعمار في وقت واسع لما يمكن ان تقدمه من مواد بديلة ووسيطة لفروع الصناعات الاخرى (٦) .

ولا تقف أهمية النفط كمصدر للطاقة او كمادة خام إلى حد ما ذكر بل تتعداها إلى ابعد مما تقدم اذ ان الابحاث الصناعية والتقدم التقني وغيره كفيلة بتطورها في المستقبل (٧) .

ولعل تزايد الاهمية النسبية للنفط الخام وتطورها بين مصادر الطاقة المستهلكة في العالم يؤكد أهمية هذا المورد ومكانتــــه . اذ ان زيادة استهلاك النفط تفوق الزيـادة فياستـــهلاك مصادر الطاقـة الاخرى . مما يجـعل هيكـــل استهلاك الطاقة في العالم يعاني من تغييرات أساسية منذ مطلع القرن الحالي. فالنفط لم يكن يساهم عام ١٩٢٩ أكثر من ١٦ ٪ من اجمالي استهلاك مصادر الطاقة عالميا بينما حظي الفحم الحجري بنحو ٧٩ ٪ من اجماليها. بيد أن الأهمية النسبية للنفط تضاعفت نحو ثلاث مرات خلال العقود الاربعة التالية تقريبا. في حين هبطت الاهمية النسبية للفحم الحجري إلى اقل من نصف ما كانت عليه تقريبا. ومن المؤمل ان تزداد اهمية هذا المورد (النفط) لاحقاً بالرغم من وجود العديد من العوامل التي تعوق استهلاكه.

ولو أضفنا الغاز الطبيعي إلى النفط لاضحت الاهمية النسبية للاثنين معا نحو ٦٢ ٪ من اجمالي استهلاك مصادرالطاقة عالميا. اما الطاقة الكهربائية فلا تساهم سوى بنحو ٦,٤ ٪ من اجمالي مصادر الطاقة. بينما لا تحظى الطاقة النووية سوى بنسبة ضئيلة جداً من اجمالي استهلاك مصادر للطاقة لا تتجاوز ٢,٨ ٪ فقط مقابل ٠,٢ ٪ عام ١٩٦٥ .

تلك هي صورة استهلاك مصادر الطاقة عالميا. والان لو استثنينا الدول الاشتراكية لاتضح لنا ان النفط يشكل نصف اجمالي استهلاك مصادر الطاقة عالميا (٥١,٧٪) ويساهم الغاز بنحو خمس اجماليها (١٩٪) بينما تهبط الاهمية النسبية للفحم الحجري إلى زهاء ٢٠,٣ ٪ فقط. وهذا يعني مدى اهمية النفط والغاز في هيكل استهلاك الطاقة في العالم عامة والعالم الصناعي الغربي على وجه الخصوص .

من ذلك ينبغي ان ندرك الابعاد الحقيقية للتهويل للمصادر البديلة لطاقة ولنتفهم بعمق المقصود من التهوين من النفط والغاز حتى يمكن ان نعتمد الاساليب العلمية الصحيحة في انتاج النفط الخام والغاز الطبيعي ومن خلال منظمة الاقطار المصدرة للنفط – O.P.E.C. – وتزداد الصورة وضوحا عندما نتعرف على امكانيات العالم الاسلامي في هذا المجال .

جدول رقم (٢)(٧)

تطور الاهمية النسبية لاستهلاك الطاقة عالميا بدون الدول الاشتراكيـــة

مصادر الطاقـــة	نسبة مساهمة المصدر من اجمالي مصادر الطاقة٪		
	١٩٧٣	١٩٧٥	١٩٧٨
النفط الخام	٥٢,٨٩	٥٠,٦	٥١,٧
الغاز الطبيعي	١٨,٨	١٨,٩	١٩,٠
الفحم	٢١,١٣	٢١,٥	٢٠,٣
الكهربائية	٦,١٣	٧,١	٧,٠١
النووية	١,٠٥	١,٩	٢,٠
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

٢ ــ الاهمية النسبية للعالم الاسلامي في هيكل استهلاك الطاقة العالمي : ــ
يعتبر النفط والغاز الطبيعي أهم مصادر الطاقة الحديثة في العالم الاسلامي بوجه خاص . وعليه ، فان هذا المبحث يتضمن دراسة : ــ

أ ــ العلاقة بين الاحتياطات المؤكدة للغاز الطبيعي والانتاج في العالم الاسلامي

ب ــ العلاقة بين الاحتياطات المؤكدة للنفط الخام والانتاج في العالم الاسلامي .

أ ــ العلاقة بين احتياطيات المؤكدة للنفط الخام والانتاج في العالم الاسلامي

ترمي دراسة العلاقة بين الاحتياطات المؤكدة ومعدلات وانتاج النفط السنوية الى معرفة الافق الزمني لهذه الاحتياطات وكيفية اطالة اعمارها . فاطالة عمر الاحتياطات النفطية المؤكدة اما بزيادة حجم الاحتياطات بشكل يفوق زيادة الانتاج أوبتثبيت معدلات الانتاج السنوية عند حد معين ثم تخفيضها بعد ذلك عندما تنعدم امكانية زيادة حجم الاحتياطات المؤكدة .

ويتم زيادة حجم الاحتياطات المعلنة عن طريق كل أو واحد من العوامل الاتية : —

(١) تحقيق استكشافات جديدة .

(٢) استكشاف أراض جديدة في حقول قديمة .

(٣) تحسين معامل الاستخلاص .

ومن دراسة الجداول المرقمة ٣و٤ يتضح مايلي : —

(١) يحظى العالم الاسلامي بمركز الصدارة في انتاج واحتياطي النفط الخام في العالم . فهو يستأثر بنصف اجمالي الانتاج العالمي وا كثر من نصف الاحتياطي المؤكد للنفط في العالم .

(٢) تعد المملكة العربية السعودية مركز الثقل في خريطة النفط في العالم الاسلامي . اذ تسيطر على نحو ٣٠ ٪ من اجمالي النفط في هذا العالم ، وتليها اهمية كل من ايران والعراق ونيجريا وليبيا والكويت واندونيسيا وابو ظبي .

(٣) ولاتقف اهمية الدول المشار اليها آنفاً عند حدود الانتاج فحسب بل تتعداها الى الاحتياطي المؤكد ايضا .

فالعالم الاسلامي يستأثر بنحو ثلثي الاحتياطي النفط الخام المؤكد في العالم وتأتي المملكة العربية السعودية في المرتبة الاولى .اذ تظفر بزعامة ٣٠ ٪ من احتياطي النفط في العالم الاسلامي تقريبا تليها كل من الكويت وايران والعراق وابو ظبي وليبيا ونيجريا ، من هذا يتضح اهمية العالم الاسلامي بالنسبة للنفط الخام انتاجا واحتياطا مؤكدا .

ب— العلاقة بين الاحتياطي المؤكد للغاز الطبيعي وإنتاجه في العالم الاسلامي

يعتبر العالم الاسلامي من مصادر العاز الطبيعي في العالم احتياطياً مؤكدا وانتاجا حاليا . وان كان ذلك دون اهميته النسبية بالنسبة لاحتياطي النفط الخام وانتاجه . اذ يستأثر بنحو ١٠٪ وزهاء ٣٤٪ من انتاج الغاز واحتياطيه العالمي على الترتيب عام ١٩٧٧ .

جدول رقم (٣)
توزيع انتاج النفط الخام في العالم الاسلامي خلال عامي ١٩٧٧/٧٦
(الاف الاطنان)

الدول	١٩٧٦	١٩٧٧	التغير المئوي ١٩٧٧ / ٧٦	النسبة المئوية من المجموع الكلي لسنة ١٩٧٧٪
المملكة العربية السعودية	٤٢٨٨٠٠	٤٥٣١٦٠	٥,٧+	١٥,–
ايران	٢٩٣٩٥١	٢٧٦٤١٠	٦,٠	٩,١
العراق	١١٢٠١٠	١١٠٩٥٠	٠,٩–	٣,٧
الكويت	١٠٩١٣٤	٩٤٣٢٠	١٣,٦,–	٣,١
ابوظبي	٧٦٥٣٤	٧٩٧٠٠	٤,١+	٢,٦
قطر	٢٣٥٢٠	٢١٤١٠	٩,٠,–	٠,٧
عمان	١٨١٠٥	١٩٨٨٠	٩,٨–	–
دبي	١٥٢٩١	١٥٥٥٠	١,٧+	٠,٥
مصر	١٦٦٠٠	٢٢٠٠٠	٢٢١٥+	–
سوريا	٩٩٧٦	٨٨٩٠	١٠,٩–	–
تركيا	٢٥٩٨	٢٥٩٠	٠,٣–	–
البحرين	٢٨٨٠	٢٧٨٠	٣,٥–	–
الشارقة	١٨٠٧	١٣٧٠	٢٤,٣–	–
نيجيريا	٢٠٢٣٠٢	٢٠٤٢٨٠	١,٩+	٣,٤
ليبيا	٩١٨٥٩	١٠٠١١٠	٩,٠+	٣,٣
الجزائر	٥٠١٠٠	٤٧٢٩٠	٥,٦–	١,٦
الغابون	١١٢٥١	١١٢٢٠	٠,٣–	٠,٤
تونس	٣٧١٢	٤٢٣٠	١٤,٠+	–
اندلوسيا	٧٤٨٢٢	٨٢٢٠٠	١٠,١+	٢,٨
بروين	١١٠٣٣	١٠٣٠٠	٦,٩–	
ماليزيا	٨٠٢٤	٩١٥٠	١٤,٠+	
باكستان	٣٤١	٥٠٠	٤٦,٦+	
البانيا	١٨٦٠	١٩٠٠	٢,٢+	
اجمالي العالم الاسلامي	١,٤٦٩,٠٨٠	١,٤٧٧,١٦٠		
الاجمالي العالمي	٢٩٢٥٨١٥	٣٠٢٥٠٧٠	٣,٤+	١٠٠,–
٪	٥٠	٤٨		

عن عالم النفط ٢٨/ كانون الثاني/١٩٧٨

عن وزارة النفط والمعادن / بغداد / غير منشور

جدول رقم (٤)

توزيع احتياطي النفط الخام في العالم الاسلامي لعام ١٩٧٧ — الف برميل —

الدول	الاحتياطي
المملكة العربية السعودية	١١٠,٠٠٠,٠٠٠
الكويت	٦٧,٤٠٠,٠٠٠
ايران	٦٣,٠٠٠,٠٠٠
العراق	٣٤,٠٠٠,٠٠٠
ابوظبي	٢٩,٠٠٠,٠٠٠
البحرين	٢٩٠,٠٠٠
دبي	١,٥٠٠,٠٠٠
فلسطين المحتلة	١٠,٢٢٢
المنطقة المحايدة المقسومة	٦,٣٠٠,٠٠٠
عمان	٥,٨٠٠,٠٠٠
قطر	٥,٧٠٠,٠٠٠
الشارقة	٧٠٠,٠٠٠
سوريا	٢,٢٠٠,٠٠٠
تركيا	٣٩٠,٠٠
الجزائر	٦,٨٠٠,٠٠٠
مصر	١,٩٥٠,٠٠٠
ليبيا	٢٥,٥٠٠,٠٠٠
نيجيريا	١٩,٥٠٠,٠٠٠
تونس	٢,٧٠٠,٠٠٠
افغانستان	٨٥,٠٠٠
بروني	١,٦٢٥,٠٠٠
اندونيسيا	١٠,٥٠٠,٠٠٠
ماليزيا	٢,٤٣٠,٠٠٠
الباكستان	٧٥,٠٠٠
الاجمالي للعالم الاسلامي	٣٩٧٤٤٦٢٢٢
الاجمالي العالمي	٥٩٨٩٨٩٣٢١
٪	٪٦٦

Oil and Gas Jound. 27th December, 1976 .

من وزارة النفط والمعادن، بغداد/ غير منشور

والملاحظ هنا هو التباين الكبير بين نسبة مساهمة العالم الاسلامي كمصدر احتياطي للغاز وبين انتاجه الحالي. ذلك يرجع إلى طبيعة التطور الاقتصادي التي ترزخ تحت نيره العديد من دول العالم الاسلامي الذي يعكس في جملته ضآلة حجم الطلب الواقع على مصادر الطاقة عموما والغاز الطبيعي بوجه خاص. بالاضافة الى وفرة النفط الخام وغزارة انتاجه وطبيعة الطلب على مصادر الطاقة العالمية ايضا.

غير ان هذه الصورة قد تكون مبعث تفاؤل كبير لاسيما اذا تذكرنا بان غني العالم الاسلامي بموارده الغازية الكبيرة يعني امكانية الاستفادة الكبرى منه لاحقا في تطوير اقتصاديات دول هذا العالم مع علمنا بحجم الوفورات الاقتصادية التي ينتجها هذا المورد نظراً لضآلة اسعاره وضآلة نفقات انتاجه تسييله وتصديره وتنوع منتجاته وارتفاع القيمة المضافة من عمليات الانتاج كافة بالتالي. وعليه فان الغاز الطبيعي سيتبوأ مركزا مهما مابين مصادر الطاقة الحديثة في العالم الاسلامي خلال السنوات التالية.

وتقف ايران على راس قائمة المنتجين المسلمين بالنسبة للغاز الطبيعي في العالم الاسلامي اذ تسيطر على نحو ثلث اجماليه تقريبا. تليها اهمية كل من نيجريا وليبيا واندونوسيا والجزائر والكويت والعراق وابو ظبي وهكذا، جدول رقم (٥)

وتحافظ ايران على مركزها الانتاجي الاول حتى في خريطة الاحتياطي جدول رقم (٦). اذ تستحوذ على نحو ٤٠ ٪ من احتياطي الغاز فيالعالم الاسلامي عام ١٩٧٧م. تليها اهمية كل من الجزائر والمملكة العربية السعودية ونيجريا والكويت وهكذا. غير انه يمكن للتطورات التقنية والاعتبارات الاقتصادية ان نغير من هذه الصورة لاحقا لو إتسعت اعمال الاستكشاف والبحث وتطورت وسائلها. كل ذلك بما يكفل اضافة تراكيب جديدة لهذا المورد إلى خريطة الانتاج الحالية.

جـدول رقـم (٥)

توزيع انتاج الغاز في العالم الاسلامي عام ١٩٧٧

بليون قدم مكعب

الـدول	الإنتاج من الغاز
أبو ظبي	١٣٧
البحرين	١٠٩
دبي	٣١
ايـران	١٧٥٦
العـراق	١٤١
الكويت	١٨٦
عمـان	١٣٠
قطر	٧١
المملكة العربية السعودية	١٢١
سـوريا	٦٩
تـركيا	٣٧
افغانستان	١٢٢
بروني - ماليزيا	١٨٧
اندونسيا	٣٥١
الباكستان	٩١
الجزائر	١٨٥
مصر	٩٣
ليبيا	٤٨٩
نيجريا	٧١٧
تونس	٧٦
العالم الاسلامي	٥٢٣٠
الإجمالي العالمي	٥٣٨٨٥

جدول رقم (٦)

توزيع احتياطي الغاز في العالم الاسلامي لعام ١٩٧٧

(١٠⁹ قدم مكعب)

الـدول	الاحتياطي من الغاز
ابوظبي	٢٠,٠٠٠
البحرين	٣,٠٠٠
دبي	١,٥٠٠
ايران	٣٣٠,٠٠٠
العراق	٢٧,٠٠
فلسطين المحتلة	٢٠
الكويت	٣١,٧٠٠
المنطقة المحايدة	٥,٠٠٠
عمان	٢,٠٠٠
قطر	٢٧,٠٠٠
المملكة العربية السعودية	٦٣,٠٠٠
الشارقة	١,٣
سوريا	١,٢٠٠
تركيا	٥٤٠
الجزائر	١٢٥,٨٠٠
مصر	٢,٨٠٠
ليبيا	٢٥,٨٠٠
نايجريا	٤٤,٠٠٠
تونس	٦,٦٠٠
افغانستان	٢,٧٥٠
بنغلاديش	٨,٠٠٠
ميردني	٨,٤٠٠
ميردني	٨,٤٠٠
اندونيسيا	٢٤,٠٠٠
ماليزيا	١٥,٠٠٠
الباكستان	١٥,٨٢٠
الاجمالي للعالم الاسلامي	٧٩١,٩٣٠
الاجمالي العالمي	٢٣٠٥٨٦٧
٪	٣٤٪

Froml Oil and Gas Journal, 27th December, 1976.

ثانيا – الافاق المستقبلية لمصادر الطاقة في العالم الاسلامي : –

في هذا المبحث سنحاول دراسة : –

أ– الأهمية النسبية للتركيب الأقليمي لهيكل استهلاك الطاقة في العالم .

ب– ملامح الصورة المستقبلة لمصادر الطاقة في العالم الأسلامي : انتاجا واحتياطيا مؤكداً

أ– الأهمية النسبية للتركيب الأقليمي لهيكل استهلاك الطاقة في العالم : –

١ – تعد الدول الصناعية الغربية المستهلك الأول لاجمالي مصادر الطاقة اذ تراوحت اهميتها النسبية في هذا المجال بين ٦٠ – ٥٦,٤٪ عامي ١٩٧٥,٦٥ على الترتيب .

وتقف الولايات المتحدة الأمريكية على رأس هذه المجموعة عن الدول بالنسبة لاستهلاك مصادر الطاقة . اذ تنفرد وحدها بنحو نصف اجمالي استهلاك الطاقة في هذه المجموعة . وزهاء ثلث اجمالي استهلاك الطاقة عالميا. تليها أهمية اوربا الغربية فاليابان . من هنا ندرك سبب تزايد اهتمامات منظمة.O.E.C.D وكالة الطاقة الدولية وحكومات هذه الدول فانها بالنسبة لموضوع الطاقة لاسيما في منطقة العالم الاسلامي المنتجة والمصدرة للنفط الخام .

بيد أن مجموعة الدول الأشتراكية لاتستهلك جميعا سوى اقل من ثلث اجمالي مصادر الطاقة عالميا . ويقف الاتحاد السوفيتي في المرتبة الأولى . وهو يستأثر بنحو سدس اجمالي استهلاك الطاقة عالميا . أي زهاء نصف ماتستهلكه الولايات المتحدة تقريبا . اما ماتستهلكه الصين فلا يزيد عن استهلاك اليابان الا قليلا رغم ان الأولى تفول نحو ثمانية امثال سكان الثانية. مما يعكس بوضوح التقدم الأقتصادي الذيتشهده الثانية بالمقارنةمع الأولى لاسيما اذا ما اعتبرنا ان مقدار ما يستهلكه الفرد من منتجات مصادر الطاقة احد مؤشرات التقدم الذي يؤخذ بها عالميا .

اما العالم الأسلامي فلا يحظى سوى بنسبة ضئيلة بالنسبة لهيكل استهلاك الطاقة العالمي . فهي لاتتجاوز ٧٪ من اجماليه .

٢ — ولاتنحصر أهمية الدول الغربية الصناعية في استهلاك مصادر الطاقة عالميا فيما ذكرنا بالنسبة لاجمالي مقدار الطاقة بل تتعداها إلى التركيب النوعي لتلك المصادر مما يفسر لنا حقيقة الصراع السياسي والاقتصادي الدائر في العالم . فهذه المجموعة تستهلك نحو نصف اجمالي النفط الخام عالميا (٥١,٦ ٪ عام ١٩٧٨) .

ويشكل النفط نحو ٤٤٪ من اجمالي استهلاك مصادر الطاقة في الولايات المتحدة وزهاء ٥٦٪ بالنسبة لدول اوربا الغربية ونحو ٧٠٪ بالنسبة لليابان.

من هنا يجب أن نتبين أهمية النفط لديمومة الحياة والتقدم في هذه الاجزاء في العالم . اذ يعتبر النفط مسؤولا عن اكثر من نصف ما تستهلكه من مصادر الطاقة جملة ، بينما لايشكل النفط سوى ثلث مصادر الطاقة المستهلكة من مجموعة الدول الأشتراكية . ولعل هذه الصورة تفسر لنا أبعاد السياسة الغربية في أرجاء الدول النفطية المختلفة .

٣ — والصورة ذاتها تنعكس على واقع توزيع استهلاك الغاز الطبيعي في العالم . فدول اوربا الصناعية الغربية اكثر الدول بالنسبة لمساهمة الغاز الطبيعي في اجمالي استهلاك مصادر الطاقة فيها .

والملاحظ هنا الاهتمام لمتنامي لاوربا الغربية في الغار الطبيعي ومدى الأعتماد عليه كمصدر للطاقة . فقد ارتفعت نسبة مساهمة الغاز هنا من ٢,٣ ٪ عام ١٩٦٥ إلى زهاء ١٣! ٪ عام ١٩٧٥ .

هذا ويعتبر النفط الخام والغاز الطبيعي أهم مصادر الطاقة الحديثة في العالم الأسلامي . اذ يساهمان بنحو اكثر من ٩٠٪ من اجمالي مصادر الطاقة فيهما حاليا .

٤ — ويعتبر الفحم الحجري مصدر الطاقة الرئيسي في مجموعة الدول الأشتراكية وان كان اخذ في التنامي اذ يساهم بنحو اكثر من نصف اجمالي استهلاك مصادر الطاقة فيها أي ٦٥,٩ ٪ و٥٢,٨ عامي ١٩٧٥,٦٥ على الترتيب .

وتحظى الصين في المرتبة الأولى في هذا المجال . اذ يساهم الفحم الحجري بنحو ٨٣ ٪ من استهلاك مصادر الطاقة فيها .

اما مجموعة الدول الصناعية الغربية بما فيه الولايات المتحدة فلا يشكل الفحم الحجري سوى خُمْس اجمالي استهلاك مصادر الطاقة فيها . هذا ولا يسهم الفحم الحجري سوى بنسبة ضئيلة جدا بالنسبة لاستهلاك الطاقة في العالم الاسلامي .

٥ ـ هذا ولا تشكل مصادر الطاقة الاخرى : الكهربائية والنووية سوى بنسب محدودة بين مصادر الطاقة المستهلكة في دول العالم. فتبلغ نحو٧,١٪ في مجموع الدول الغربية الصناعية بما فيه الولايات المتحدة وتهبط إلى النصف في مجموعة الدول الاشتراكية (٣) ٪ بالنسبة للطاقة للكهربائية .

أما الطاقة النووية فلا تسهم سوى نسبة ٢,٣ ٪من اجمالي استهلاك الطاقة في الدول الصناعية الغربية تنخفض الى ٠,٣ ٪ فقط في مجموعة الدول الاشتراكية .

حاصل ما تقدم يعكس لنا عدة امور منها : ـ

ان النفط هو المصدر الأول للطاقة في العالم ويحظى باهمية متميزة في هيكل استهلاك الطاقة في مجموعة الدول الصناعية الغربية بما فيه الولايات المتحدة الأمريكية ، تفوق غيرها في جملة العالم فهو يستاثر بنحو اكثر من نصف اجمالي الاهمية النسبية .

اما النسبة الباقية فهي لصالح الغاز الطبيعي والفحمالحجري تقريبا . من هنا ينبغي ان ندرك جوهر الصراع الدائر في العالم . صراع بين الدولالصناعية المستهلكة والدول النفطية المنتجة ، صراع من أجل السيطرة على مورد رئيسي من مورد الثروة له ابعاد استراتيجية متعددة لها خطورتها وقت السلم والحرب على حد سواء .

وعليه ينبغي على العالم الثالث : الدول المنتجة للنفط الخام ان تتخذ عن هذا المورد اساسا لكل تقدم اقتصادي وبشري هادف . عليها ان تعيد النظر في سياستها النفطية خاصة والاقتصادية عامة ولتضع نصب اعينها ان النفط هو سر التطور الحضاري الانساني الان ، فلماذا لاتجني هي بعضا من ثمار هذا التطور بشكل يحقق نموا حقيقيا في وتائر قطاعاتها الأنتاجية والخدمية المختلفة ولتعمل جاهدة من أجل ايجاد صيغ تعاون بينها وبين اسواق الاستهلاك اكثر عدالة تضمن لشعوبها التقدم والازدهار . ذلك لايتم في اعتقادنا من خلال التفكير التقليدي بسبل صيانة هذا المورد بل بدينامية التفكير وتطوره بما يكفل استخدام هذا المورد استخداما امثل .
كأن يكون اساسا لمقايضة تجاربه وتكنولوجية مبرمجة وموزونة تكفل احداث تنمية هادفة ، ذلك كله من خلال الأسرة النفطية : دول الاوبيك .

ب ــ ملامح الصورة المستقبلية لمصادر الطاقة العالم الاسلامي:

يبدو أن هناك اتفاقا تاما للمعنيين بشؤون موازنة الطاقة في العالم وافاقها المستقبلية على بعض الدلائل والمؤشرات العامة وهذه الموازنة وان تباينت تقديراتهم في هذا المجال ، ولعل من هذه المؤشرات هو : ان حجم ماتبقى من احتياطات نفطية قابلة للاستخراج معرض للنضوب السريع ولذلك فان العالم سيواجه ازمة حقيقة في توفير متطلباته واحتياجاته من النفط .
ان استمرار الزيادات في معدلات الاستهلاك من ناحية ونقص احتمالات الاكتشافات الجديدة للتراكيب النفطية والغازية من ناحية ثانية هي العاملان في تحديد العمر المنتظر لهذين الموردين .

ويمكن الاستشهاد هنا بما ذهب اليه نائب رئيس شركة موبيل ـ بان حجم الاحتياطيات النفطية سيهبط من نحو (٦٠٠) بليون برميل عام ١٩٧٧ الى زهاء (٣٧٥) بليون برميل عام ١٩٩٠ وان اكثر من ثلث الاحتياطات غير المكتشفة تقع في تراكيب جيولوجية تتواجد في بيئات جغرافية غير مرغوب فيها .

وعليه فان الاعتماد على النفط يكون العنصر الأساسي في موازنة الطاقة في العالم سيستمر على الرغم من احتمال انخفاض أهميته النسبية في نهاية هذا القرن بالمقارنة مع ما عليه الحال الان. فبعض الخبراء يتوقع ان استهلاك النفط في العالم سيزداد من نحو ثلاثة الاف مليون طن حاليا الى نحو (٥٢٨٠) مليون طن سنة ١٩٩٠. وان نسبة الزيادة هذه تعادل ٧٩٪ من حجم الطلب عام ١٩٧٥. أما معدل الزيادة السنوية في حجم الطلب خلال هذه الفترة فانها محدود ٤,٢ ٪ وعليه فان الأهمية النسبية للنفط ستهبط من ٤٧٪ عام ١٩٧٥ الى ٤٢ ٪ عام ١٩٩٠.

ان دول العالم الاسلامي تعتبر صمام الامان في الموازنة العالمية لمصادر الطاقة الحديثة. نظراً لأهميتها النسبية الخاصة في هذا المجال. فالعالم الاسلامي يضم تراكيب نفطية وغازية تمده باحتياطيات تفوق نظيراتها في باقي انحاء العالم.. فالعمر المنتظر للنفط الاسلامي يمتد باكثر من عقد ونيف من الزمن بالمقارنة مع عموم النفط العالمي. ولعل الغاز الطبيعي يشابه نظيره النفط بالنسبة للعالم الاسلامي.

وثمة مسألة تضاف وهي ان حجم الاستهلاك الحالي لمصادر الطاقة في العالم الاسلامي لازال محدود جداً يعكس بذلك واقع النمو الاقتصادي الذي تحيا بظله هذه الدول. فاستهلاك الفرد الواحد في نيجريا مثلا لايتجاوز (١من٢٤٧٪) مما يستهلكه الفرد الامريكي. علما بان مايستهلكه الفرد النيجري يبلغ زهاء اربعة امثال مايستهلكه الفرد اليماني. وعليه فان معظم الانتاج ينساب في شرايين التجارة العالمية للدول المتقدمة.

حاصل ماتقدم يعكس لنا الطاقات الانتاجية الفائضة في الوقت الحالي لمصادر الطاقة (النفط والغاز) في العالم الاسلامي. ناهيك عن احتمالات تطورها مستقبلا. وبتعبير آخر فان العالم الاسلامي يعتبر المحدد الاساسي لتوقيت ظاهرة العجز في امدادات الطاقة في اسواق العالم قاطبة.

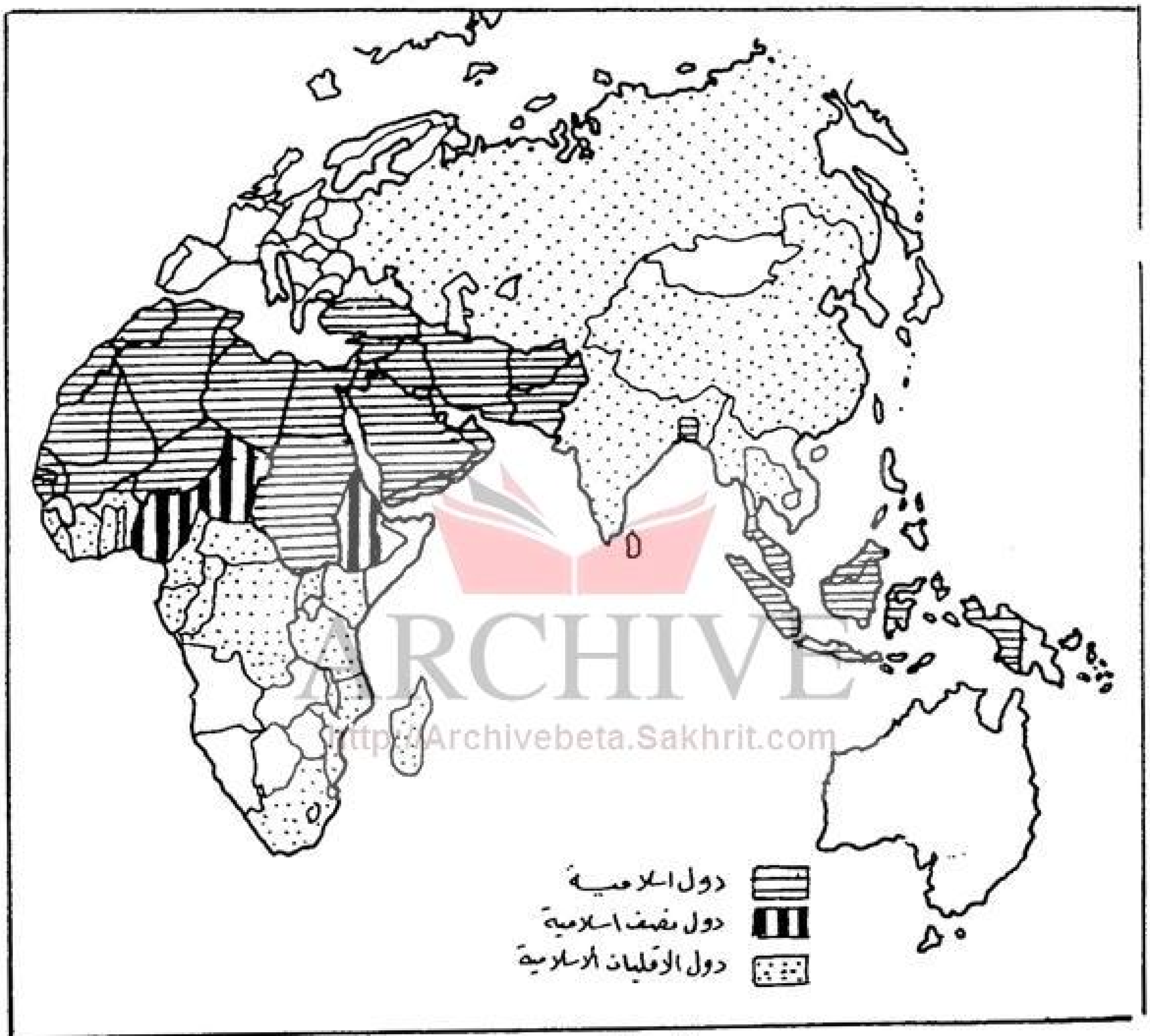
وختاما فان العمل الاقتصادي المشترك بين دول العالم الاسلامي يمكن ان يأتي ثماراً طيبة ذلك من خلال منظمة الاوبيك، على اعتبار ان المنظمة التي تضم الاقطار المنتجة الرئيسية بالنسبة لهذه المصادر من الطاقة. ذلك من خلال استراتيجية موحدة تشمل مايلي :-

أ- تصنيع المواد الهيدروكاربونية : النفط والغاز الطبيعي ضمن رقعة العالم الاسلامي.

ب- برمجة الانتاج وتصنيعه بما ينسجم والخطط التنموية لتلك المجموعة من الدول.

جـ- العمل على تصحيح اسعار النفط الخام والغاز الطبيعي بما يتلاءم ومعدلات نمو اسعار البدائل المختلطة طاقة وخاما ووفق صيغ تعاون عادلة بين المنتجين والمستهلكين .

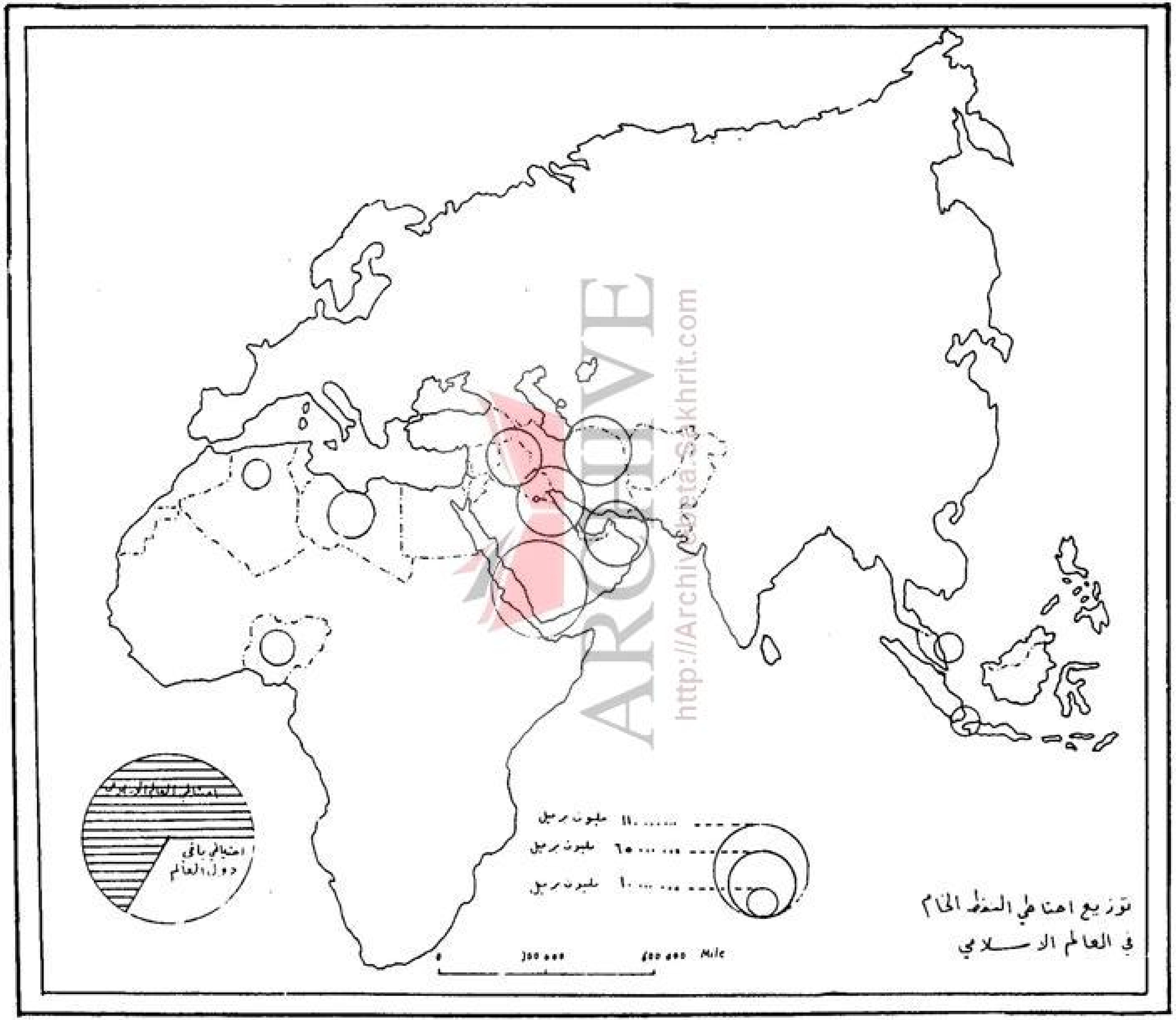
د- العمل على توسيع اعمال الاستكشافات الجديدة وتطورها للكشف عن احتياطيات جديدة تغير من أمد النضوب المنتظر .



خريطة الاسلام السياسية

عن . د . جمال حمدان / العالم الاسلامي المعاصر ، عالم الكتاب . القاهرة ١٩٧١
ص ١٠٣





توزيع احتياطي النفط الخام
في العالم الإسلامي

ثبت الهوامش والمصادر

(١) لعل الدين الاسلامي الحنيف اكثر الاديان نمواً عدديا ، فهو يضيف باستمرار ارضا وقوى جديدة في افريقيا واسيا المدارية بالاضافة إلى العالم الجديد .

د. جمال حمدان : العالم الاسلامي المعاصر ،عالم الكتب ، ط١ القاهرة ١٩٧١ ص ١٢ — ١٥

(٢) وهذه الدول هي :

أ — افريقيا الاسلامية : تشاد غينيا ليبيا مالي موريتانيا المغرب النيجر نيجريا السنغال الصومال السودان تونس مصر غينيا موريتانيا الصومال الجزائر .

ب — آسيا الاسلامية : تركيا الباكستان اندونيسيا شبه جزيرة العرب العراق الاردن سوريا ايران لبنان فلسطين افغانستان اتحاد ماليزيا بروني اقليم سيكياج كشمير الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي .

انظر د. محمود طه ابو العلا : جغرافية العالم الاسلامي ص ٤
دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ص ١٠

(3–) Odell, P.R.: An Econòmic Geography of Oil, London,PP 10–71.

(4–) IBID, PP. 183–187.

(5–) Mercier, c.: Pefroehemical Industry and the Possibilities of its Establishment in the Developing countries, Panis 1966 P.3.

(6–) Shell PIC. 4/Shell intrenational Peirolains co. it: Thr Petroldcrapl Handbook., London 1960 PP. 292–300.

(٧) اخذت البيانات عن :

منظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط (اوابيك) :

النفط ومصادر الطاقة الدلية / الكويت

نيسان ١٩٧٧ - عدة جداول

وزارة النفط والمعادن / بغداد ١٢٧٨ غير منشورة .

BP: Statistical Review London 1979

United Nations. WORLD Energy Supplies 1950–1974: New York 1975.

United Nations: World Energy supplies 1971–i975, NewYork 1977.

العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة والمسجد الاقصي

الدكتور احمد قاسم الجمعة
كليه الاداب – جامعة الموصل

تعد قبة الصخرة والمسجد الاقصى من أهم العمائر العربية الاسلامية قاطبة وذلك لكونهما من أقدم العمائر التي لاتزال تحتفظ بعناصر معمارية وفنية متميزة ترجع الى عهد البناء الاول والتي لعبت دوراً بارزاً في تبلور الطراز العربي الاسلامي.

وسيركز البحث على تلك العناصر من حيث خصائصها وتتبع أصولها وبيان اهميتها ومدى انتشارها وتطورها دون التطرق الى العناصر اللاحقة والادوار المعمارية التي مربها هذان البناءان الا بالقدر الذي تتطلبه طبيعة البحث.

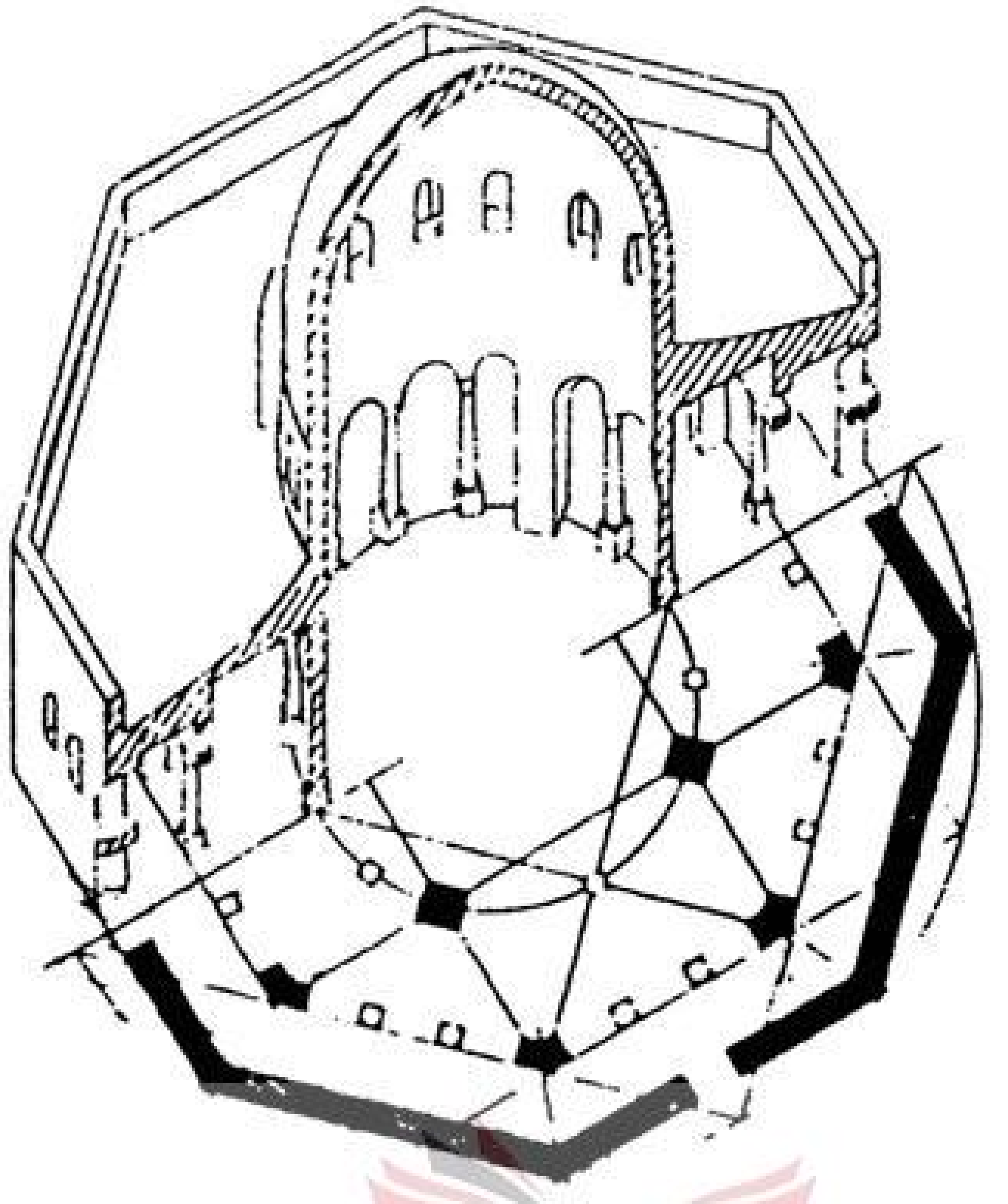
فقبة الصخرة التي بناها الخليفة عبد الملك بن مروان سنة (٧٢هـ/٦٩١م) (١) امتازت بتصميمها الفريد في تاريخ العمارة العربية في العصر الاسلامي وقوامها حائط خارجي مثمن الاضلاع تليه دائرة وسطية من الدعائم والاعمدة تحيط بالصخرة التي تتوسط المبنى وترتكز عليها قبة خشبية ويفصل بين الثمينة الخارجية ودائرة القبة الداخلية ثمينة وسطية من الاعمدة تعلوها عقود دائرية (رسم١، ٢) وقد نجم عن الثمينة الوسطية رواقين خارجي وداخلي غطيا بسقف خشبي.

والتصميم المذكور للمبنى اقتضته الضرورة المعمارية والدينية ، فالتخطيط المضلع المثمن زاد من متانة البناء في حين التخطيط الدائري سهل عملية ارتكاز القبة ذات المسقط الدائري . اما الرواق الخارجي فقد حقق غرض الطواف حول الصخرة للتبرك بها كما ان الرواق الداخلي استخدم لنفس الغرض علاوة على اقامة الصلاة (٢).

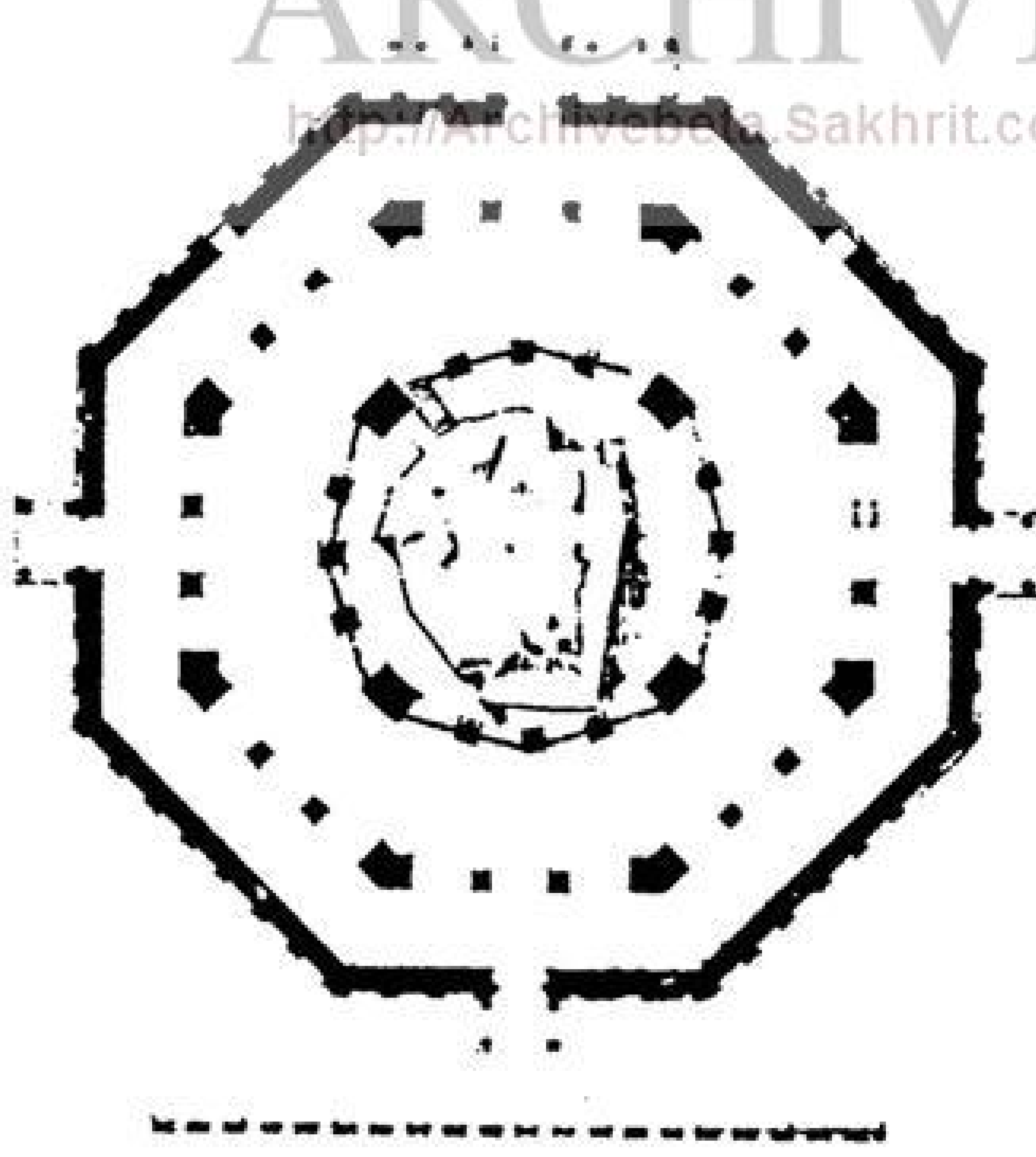
---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، م ٢ ، بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م ، ص ٢٦١ .
Creswell (K.A.C.) Early Muslim Architecture, 2nd. Ed. Vol. I,Part I, Oxford 1969, P. 225

(٢) الدكتور فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الاسلامية، م ١ ، القاهرة ١٩٧٠م ص٧٨.



رسم (١) مقطع طولي لمسجد قبة الصخرة، نقلا عن:
Grube, The World of Islam, P. 13.



رسم (٢) تخطيط لمسجد قبة الصخرة، نقلا عن :
(د. فريد شافعي : العمارة العربية، ش ٨)

ونستبعد بعض الروايات التاريخية (١) وآراء المحدثين التي تدعي بان وراء اختيار عبد الملك بن مروان لهذا التصميم هو رغبته في تشييد مبنى يحيط بالصخرة المقدسة، ليكون مزاراً للمسلمين يحجون اليه ويطوفون حول الصخرة للتبرك بها بدلا من الذهاب الى مكة التي خرجت عن طاعة الامويين ووقعت تحت تأثير ابن الزبير لعدة سنوات (٢) لان ذلك يعتبر خروجا عن احد اركان الاسلام . ويثير تذمر المسلمين ولم يكن لصالح عبد الملك في اي حال من الاحوال، كما ان المعروف عن هذا العاهل تدينه الذي يجعله لايقدم على مثل هذا العمل (٣).

ومن المرجح ان عبد الملك كان يرمي من وراء ذلك تعظيم الصخرة المقدسة والحفاظ عليها، وانشاء بناء يعتز به المسلمون في بلاد الشام (٤).

ويظن ان التصميم المذكور قد تأثر بعض الشيء بتصاميم المساقط المضلعة والدائرية لبعض المباني المحلية التي كانت موجودة في بلاد الشام قبل الاسلام مثل كنيسة بصرى (حوالي سنة ٥١٣م) ذات المسقط الدائري الذي يحف

---

(١) اليعقوبي : المرجع السابق ، ص ٢٦١ .

(٢) الدومنكي : بلدانية فلسطين العربية، بيروت ١٩٤٨ م، ص ٢٤٢، ٢٤٣ ؛ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الاموية، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة ومراجعة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ٢٠٦ ؛ الدكتور كمال الدين سامح: العمارة في صدر الاسلام، القاهرة ١٩٦٤ م ، ص ١٨ ؛ الدكتور عفيف بهنسي: تكوين الفن العربي الاسلامي في ديار الشام، الحوليات الاثرية السورية، م ٢٢ ، سنة ١٩٧٢ ، ص ١٧ ؛ محمود العابدي: الاثار الاسلامية في فلسطين والاردن، عمان ١٩٧٣ ، ص ١٨٧ ؛ نعمت اسماعيل علام: فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية ، مصر ٩٧٤ م ، ص ٢١ .

(٣) الدكتور محمد ضياء الدين الريس : عبدالملك بن مروان والدولة الاموية، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٩ م، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٤) كريستي وزملاؤه : تراث الاسلام، ترجمة الدكتور زكي محمد حسن، القاهرة ١٩٣٦م حـ ٢ ، ص ١٢٢؛ توفيق احمد عبد الجواد : تاريخ العمارة والفنون الاسلامية، القاهرة حـ ٣ ، ١٩٧٠م ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

بمضلع (١)وكنيسة الصعود في جبل الزيتون في الاردن(القرن ٤م)ذات المسقط المضلع الذي يحيط بدائرة (٢)،وكنيسة القيامة القريبة من المسجد (٣) .

ويرى البعض بانه تطور عن تصميم بعض الكنائس البيزنطية في القسطنطينية مثل كنيسة سرجنوس وباخوس (٤) وهذا امر مستبعد لان التأثيرات المحلية تكون عادة اقوى من التأثيرات الاجنبية.

وعلى اي حال فان تصميم مبنى قبة الصخرة لم يكن مشابها تماما لتصاميم الكنائس المحلية والاجنبية المذكورة ، وانما اصابه نوع من التصرف والتجديد ليكون ملائما للغرض الذي شيد المبنى من اجله. وهذا التصرف له اهمية كبيرة في تاريخ العمارة العربية ، اذ يدلل على ان العرب المسلمين انتقلوا في عهد مبكر من مبدأ الاقتباس الى مبدأ التحوير والابتكار. والذي كان يحمل بطياته بذور الطراز العربي الاسلامي.

وظل تصميم قبة الصخرة فريداً في نوعه منذ انبثاق الاسلام حتى الوقت الحاضر ولم يقلده المسلمون في المساجد التي شيدوها بعد ذلك، لان نظام المساجد لايتفق اطلاقاً مع نظام البناء المثمن الذي كان يتقيد بالتخطيط المستطيل ذى الصحن المكشوف طيلة اربعة قرون على الاقل (٥) ولاسيما مساجد العصرين الاموي والعباسي ، كما هو الحال في مسجد الكوفة من عهد تجديد زياد بن ابيه (٥١هـ/٦٧١م) (٦) ، والمسجد الجامع بواسط بالعراق (٨٦هـ/٧٠٥م) (٧) والجامع الاموي بدمشق (٨٧ـ ٩٦هـ / ٧٠٥

(١) Creswell, Op. Cit., Vol. I, P. 102, Fig. 36

(٢) نعمت علام : المرجع السابق ، ص ٢٢، ش ١ .

(٣) كريستي : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٤) Rice (D.T.), Islamic Art, London 1965, P.11

(٥) كريستي : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٦) الدكتور احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، القاهرة ، ص ٢٠٢ ش ٨٤ .

(٧) المرجع نفسه ، ص ٢١٥ ، ش ٨٩.

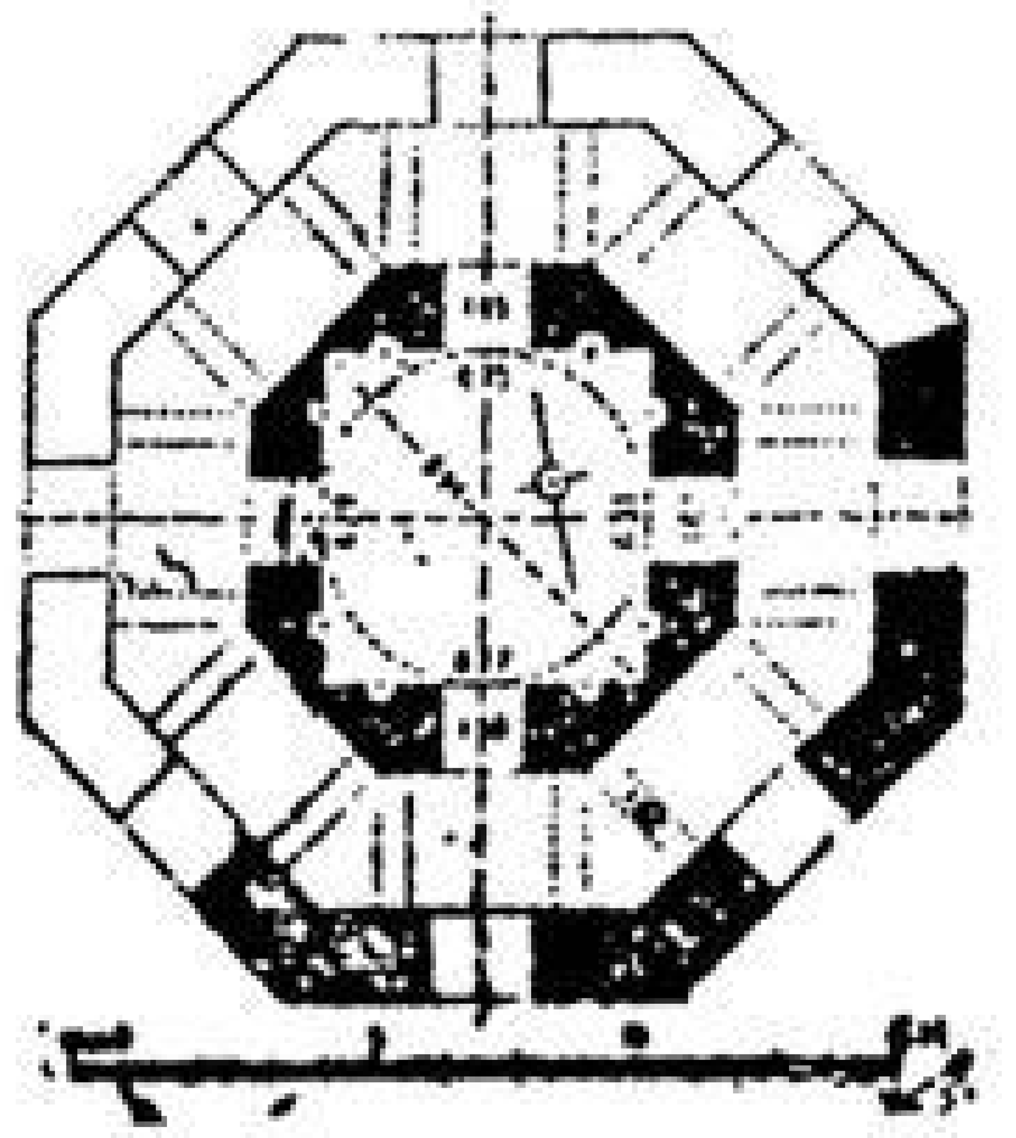
٧١٤م) (١) ، ومسجد بصرى جنوب بلاد الشام (١٠٢هـ/٧٢٠م) (٢). والمسجد الجامع بالقيروان من عهد تجديد هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ / ٧٢٣م) (٣)والمسجد العلوي باسكاف بني جنيد بالعراق (١١٠هـ/٧٢٨م)(٤) ومسجد المنصور ببغداد (١٤٥هـ/٧٦٢م) (٥)ومسجد الرقة (١٥٥هـ/٧٧١م)(٦) ومسجد قرطبة الجامع (١٧٠هـ/٧٨٦م) (٧) والجامع الكبير بسامراء (٢٢١هـ/ ٨٣٦م) (٨) والمسجد الجامع بسوسه في تونس (٢٣٦هـ/٨٥٠م) (٩) وجامع أبي دلف بالقرب من سامراء (٢٤٥هـ/٨٥٩م) (١٠) ومسجد الزيتونة الجامع بتونس (٢٥٠هـ/٨٦٤م) (١١).

وليس معنى هذا أن العرب المسلمين لم يستخدموا الابنية المثمنة ، فقد كانت هناك أبنية ذات تصميم مركزي ولكنها اتخذت لاغراض اخرى وكانت وقفاً على الاضرحة (١٢) كما يلاحظ ذلك في قبة الصليبية بالقرب من سامراء (١٣) (رسم ٣).

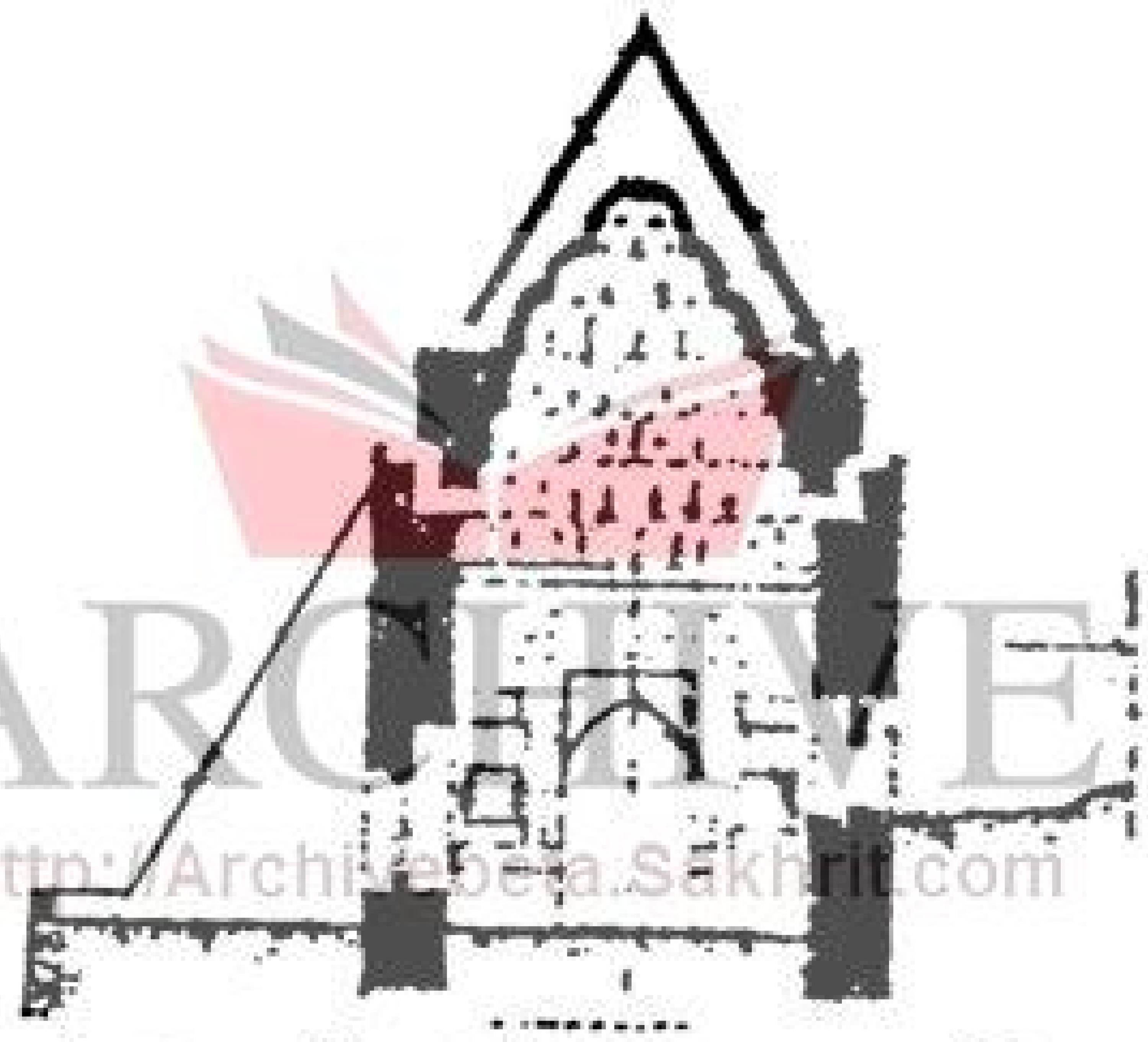
وتعد قبة الصخرة من العناصر المعمارية النادرة من حيث المادة والتصميم.

---

(١) فكري : المرجع السابق ، ص ٢١٩ ، ش ٩٠
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢١، ش ٩١.
(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٠٦ ، ش ٨٦ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٢٣ ، ش ٩٢ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٣٢ ، ش ٩٤ .
(٦) المرجع نفسه ، ص ٢٣٦ ، ش ٩٦ .
(٧) المرجع نفسه ، ص ٢٤٣ ، ش ٩٩ .
(٨) الدكتور مظفر طاهر العميد:العمارة العباسية في سامراء في عهد المعتصم والمتوكل ، بغداد ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ ، ص ١٤٠ ، ش ٢٢ .
(٩) فكري : المرجع السابق ص ٢٥١ ، ش ١٠٢ .
(١٠) المرجع نفسه ، ص ٢٤١ ، ش ٩٨ .
(١١) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ ، ش ١٠٦ .
(١٢) توفيق عبدالجواد : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٩ .
(١٣) سامح : المرجع السابق ، ص ٩٥ ، ش ٤٥ .



رسم (٣) تخطيط قبة الصليب بسامراء. عن :
(د. سامح : العمارة في صدر الاسلام، ش ٤٥)



رسم (٤) قبة يحيى بن القاسم المزدوجة بالموصل. عن :
(Pagliero, Conservation., Fig. 7)

فهي من نـــوع القباب المزدوجة حيث تتكون من طبقتين من الخشب تتركان بينهما فراغا (١) وقد غطيت من الخارج بصفائح من الرصاص فوقها الواح من النحاس البراق (٢) ومن الداخل بطبقة من الجبس المنقوش (٣).

(١) Creswell, Op. Cit., P.93, Fig.33

(٢) سامح : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٣) كريستي : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

وهذا الاسلوب البنائي للقبة ساعد على تخفيف القوى الضاغطة على الاسس والدعائم والاعمدة التي ترتكز عليها، كما ان السقوف المقببة تكون اكثر تماسكا من السقوف المستوية ولها اهمية دينية حيث تضفي على البناء قدسية وتعطيه نوعا من الشموخ والعظمة فالتقعر الحاصل في سقف القبة من الداخل يقود الانسان الى التامل قلما يجده المرء في الابنية المسطحة او القائمة على سلسلة من الاعمدة (١).

ووجود الفراغ في القبة ادى هو الاخر الى تخفيف الثقل وعمل على تلطيف درجات الحرارة صيفاً وشتاءاً، كما ان الغطاء الخارجي الرصاصى والنحاسى للقبة قلل من تأثير العوامل الطبيعية عليها. واعطاها نوعا من التجسيم وساعد على عكس اشعة الشمس. مما ادى الى الحد من الحرارة المتسربة الى المبنى في فصل الصيف.

والجدير بالذكر ان القباب الخشبية نادرة الشيوع في الطراز المعمارى العربي في العصر الاسلامي كندرتها في الطرز السابقة للاسلام. ومن امثلتها في تلك الطرز قبة معبد (مارينون) بغزة في فلسطين (من القرن الثاني الميلادي (٢) وقبة كنيسة القيامة (٣٣٥ م)، وقبة كنيسة القديس سمعان بالقرب من حلب (في حدود القرن الخامس الميلادي) (٣).

وتعد قبة الصخرة من اولى الامثلة للقباب الخشبية (٤) في الاسلام، وربما تأثرت من هذه الناحية بقباب الكنائس المذكورة، ثم وجدت بعد ذلك بمصر بالعهد المملوكي، كما هو الحال في قبة الامام الشافعي الحالية.

---

(١) عطا الحديثي وهناء عبدالخالق: القباب المخروطية في العراق ، بغداد ١٩٧٤ م ، ص ٩، ١٠ .

(٢) Creswell, Op. Cit., P.116.

(٣) صالح لمعي مصطفى : القباب ، بيروت ١٩٧٧ م ، ص ٧ .

(٤) الجدير بالذكر ان القبة الاصلية سقطت سنة (٤٠٧ هـ) ،اما القبة الحالية فيرجع تاريخها إلى سنة (٤١٣هـ) صالح : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

والتي من المعتقد انها ليست القبة الاصلية التي شيدت مع البناء سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) (١) وقبة المسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقاهرة (٧٣٥هـ/١٣٣٥م) (٢).

والقباب المزدوجة هي الاخرى قليلة الشيوع في العمارة العربية الاسلامية، والتي تعد قبة الصخرة من الامثلة الاولى لها. ومع هذا فقد وجدت امثلة لها في الموصل بالعراق في العهد الاتابكي كقبة الجامع النورى (٥٦٦–٥٦٨هـ/ ١١٧٠ – ١١٧٢م) (٣)التي أزيلت مؤخراً وقبة مزار يحيى بن القاسم (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) (٤) (رسم ٤) وقبة مزار الامام عون الدين (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) (٥).

ومن المميزات الاخرى التي تدلل على براعة المعمار في قبة الصخرة هي احداثه نوعا من الانحراف البسيط في دائرة دعائم القبة مما ادى الى تجنب حجب الاعمدة الواقعة امام الرائي للاعمدة الاخرى المقابلة لها في الجهة الاخرى.

وبغية منع تسرب مياه الامطار والثلوج داخل القبة عمد المعمار الى احداث نوع من البروز البسيط نحو الخارج في حلقتها السفلى بحدود (٨٥سم) وقد حوفظ عليها بهذا الشكل بواسطة سلسلة من العضادات (٦).

---

(١) شافعي : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٢) Creswell, Op Cit., P.95

(٣) احمد قاسم الجمعة: محاريب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الاتابكة .، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة سنة ١٩٧١ م ص ٢٨٦ ، صورة ٧٥ .

(٤) Pagliero (R), Conservation of two Islamic Monaments in Mosul, Sumer A Journal of Archaeology and History in Iraq Vol.XXI,1965 Baghdad 1965, Fig.7

(٥) الجمعة / المرجع السابق ص ٢٦٨، صورة ٦٥ .

(٦) Creswell, Ashort Account of Early Muslim Architecture, Ist pub. 1958, Pelican Books, P.205.

وتعد القباب كعناصر معمارية من مبتكرات وادي الرافدين منذ العصر السومري فالقباب المخروطية التي اكتشفت في المقبرة الملكية في اور تعد الامثلة الاولى لهذا العنصر المعماري (١) ثم عرفتها بعد ذلك بعض الطرز القديمة كالطراز الروماني والبيزنطي (٢).

وتتميز تيجان أعمدة القبة باتصالها مع بعضها عند بدء الأقواس بروابط (عوارض) خشبية ضخمة من المحتمل أن تكون قد استخدمت لتقاوم الهزات الأرضية التي تكثر في بقاع الشام (٣) ، كما أدت إلى زيادة قوة احتمال العقود والأقواس وخففت الضغط الناتج من القبة التي ترتكز عليها.

وقد غطيت هذه العوارض بصفائح من البرونز شغلت بزخارف مختلفة(٤) . وتتجلى أهمية هذه الصفائح في الحد من تأثير عوامل الطبيعة على تلك العوارض من جهة ، والاستفادة منها للغرض الزخرفي من جهة أخرى .

ومن المميزات الأخرى في المبنى تعدد مداخله ، إذ يحتوي كل ضلع من الأضلاع المقابلة للجهات الأربعة مدخلا محورياً ، تتقدمه سقيفة على أعمدة(٥) (رسم ٢) وله باب مصفح بالرصاص.

وهذا التعدد بالمداخل يساعد على دخول الزوار والمصلين من عدة جهات نظراً لاتساع المسجد . أما تغطية الأبواب بصفائح الرصاص فيعود إلى حفظ أخشابها من عوامل الطبيعة شأنها في ذلك شأن الصفائح النحاسية والرصاصية التي تغطي أخشاب القبة والعوارض .

ويظهر أنّ بعض عمائر الشام تأثرت بالمداخل المحورية في قبة الصخرة، كما هو موجود في المسجد الأموي بدمشق (٨٧ – ٩٦هـ/٧٠٥ – ٧١٤م) (٦) ،

---

(١) عطا الحديثي وزميله : المرجع السابق ، ص ٩ ، ١١ .
(٢) كريستي : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٥ .
(٤) سامح : المرجع السابق ، ش ٩ ، ١٠ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ١٨ .
(٦) المرجع نفسه ، ص ٢١ .

بحيث أصبحت هذه المداخل إحدى المزايا المعمارية لبلاد الشام . ومع هذا فقد أوجدت أمثلة نادرة لها في العراق ، كما في قصر الجوسق الخاقاني بسامراء من عهد المعتصم (٢٢١هـ/٨٣٥م) (١).

وفكرة تعدد المداخل وجدت مع أول مسجد بني في الاسلام ، وهو المسجد النبوي بالمدينة المنورة (١هـ/٦٢٢م) . حيث كان يحتوي على ثلاثة مداخل (٢) ثم عمت فيما بعد معظم المساجد وأصبحت من مزاياها المهمة.

والجدير بالتنويه أنّ المساجد المبكرة في سوريا امتازت بوجود ثلاثة مداخل محورية ، ماعدا الجانب القبلي (٣). وذلك لوجود المحراب والمنبر. بينما في المساجد العراقية تعددت فتحات مداخلها . وقد أثرت هذه بدورها على أغلب المساجد اللاحقة في مصر . حيث نجد التأثير العراقي واضحاً في تعدد مداخل الجامع الطولوني ، في حين يتضح التأثير السوري في وجود ثلاثة مداخل محورية في كل من مسجد الظاهر بيبرس (٦٦٥ – ٦٦٧هـ/١٢٦٦ – ١٢٦٨م) ، ومسجد الناصر محمد بالقلعة (٧٣٥هـ/١٣٣٤م) . وتعدت التأثيرات العراقية مصر إلى شمال أفريقية والأندلس (٤) .

ويلاحـظ ذلك في تعدد مداخـل مسجد قرطبـة (١٧٠هـ / ٧٨٦م) (٥) وجامع الزيتونـة بتونس (٢٥٠هـ / ٨٦٤م) (٦) . ويعد مبنى قبة الصخرة من المباني المسقوفة ، فقد غطيت دائرة الأعمدة بواسطة القبة في حين غطي الرواقين الخارجي والداخلي بسقف خشبى مزدوج الكسوة ، فصفائح الرصاص تغطيه من الخارج وألواح الخشب المنقوش تغطية من الداخل (٧) . وهذه الميزة نادرة الشيوع في المساجد التى كانت تعد الصحون أو الأفنية المكشوفة من صفاتها الأساسية بصورة

---

(١) سامح : المرجع السابق ، ص ٨٧ ..
(٢) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، ص ١٦٩ .
(٣) الدكتور كمال الدين سامح : العمارة الاسلامية في مصر ، القاهرة ، ص ١٧٥ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٧٥ .
(٥) فكري : المرجع السابق ، ص ٢٤٣، ش ٩٩.
(٦) المرجع نفسه ، ص ٢٥٦ ، ش ١٠٥ .
(٧) نعمت علام : فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية ، ص ٢١ .

عامة كما مر بنا . ومع هذا فيقال أن مسجد عمرو بن العاص(٢٢هـ/٦٤٢م) لم يكن له صحن مكشوف (١) .

والجدير بالذكر ان ظاهرة تغطية سقوف المساجد والمباني وجدت في العمارة العربية المبكرة منذ العصر الراشدي وتعددت امثلتها في العصر الاموي والعباسي كما في مسجد الرسول (ص) الذي سقف بخشب الساج زمن الخليفة عثمان بن عفان (رض) (٢) ومسجد البصرة والكوفة من عهد توسيع زياد ابن أبيه (٣) ومسجد ابي دلف والمسجد الكبير بسامراء من العصر العباسي ، وتمثل ذلك بجامع قرطبة (٤) ثم شاعت الاسقف الخشبية بعد ذلك بكثرة ولا سيما في مصر في العصر المملوكي كما يلاحظ في تغطية اواوين المباني(٥).

ولكي يعالج المعمار مسألة الاضاءة والتهوية في بناء قبة الصخرة المسقف ، استحدث في كرسي القبة (١٦) نافذة ، كمااستحدث في كل ضلع من اضلاع المثمن الخارجي خمس نوافذ تعلو الطاقات الوسطى التى تتخلل الوجه الخارجي لتلك الأضلاع (رسم ١،٥) .

والغاية من استحداث الطاقات الصماء المذكورة هي أحداث نوع من الانسجام الفني بين الأضلاع ، ولتكون نوعا من التجسيم بفعل تفاوت الظلال التى تحدثها ولتزيد من قوة المبنى .

وتعود ظاهرة استحداث الطاقات في الحيطان الخارجية للمباني الى وادي الرافدين منذ العصر السومري ، كما هو الحال في المعبد الرئيسي لمدينة أورك (الوركاء) (٦) .

---

(١) كريستي : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

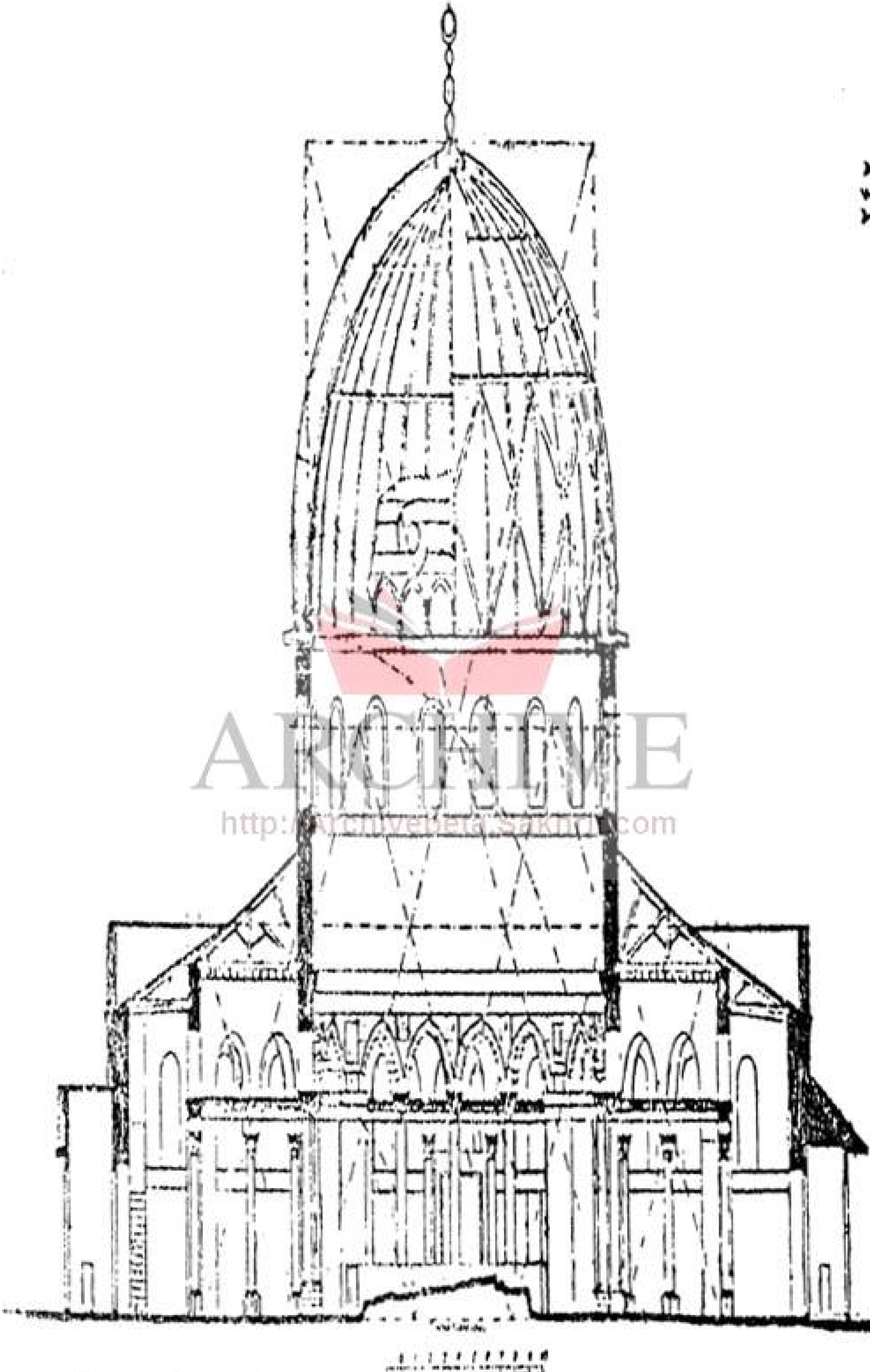
(٢) فكري : المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، القسم الثاني ، نشر الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ٤٢٦ .

(٤) توفيق عبدالجواد : المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٥) الدكتور صالح لمعي مصطفى : التراث المعماري في مصر ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٠٧- ١٠٨ .

(٦) Moortgal (A.), The Art of Ancient Mesopotamia, the Classical Art of the Near East, Ist. pub. London 1969, Pl. 227.



(Creswell, E.M.A., Vol. I, Fig. 20)

رسم (٥) مقطع طولي لواجهة قبة الصخرة

وبالاضافة لما تقدم فان الاجزاء السفلى لتلك الاضلاع في قبة الصخرة مؤزرة بأفريز من الرخام ، لحفظها من التأثيرات الخارجية . اما الأجزاء العليا فكانت مغطاة بطبقة من الفسيفساء أزيلت في العهد العثماني عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م واستبدلت بألواح من القاشاني (١)

ولقد تأثرت بعض المباني الأموية اللاحقة بهذه الميزة مثل الجامع الأموي بدمشق اذ كانت الأجزاء السفلى لحيطانه الخارجية مغطاة بالرخام المجزع ، وما تبقى منها الى السقف غطي بالفسيفساء الملونة والمذهبة (٢) .

وتنوع المواد المستخدمة في تغطية الجدران على الرغم من تأديته غرضا معماريا وجماليا ، فقد كان أكثر تقبلا للنظر فيما لو شغلت بنوع واحد من المواد والزخارف لان العين تمل عادة السطوح الواسعة المشغولة بنوع واحد من المعالم التزيينية .

وللمحراب المجوف المثبت في الضلع الجنوبي للحائط الخارجي من الداخل الذي يرجع الى عهد البناء الأول (٣) ، أهمية كبيرة لأنه دلل على خطأ آراء بعض المستشرقين القائلة بأن الاقباط هم أول من أدخل المحراب المجوف في الاسلام عند استحداث المحراب المجوف في المسجد النبوي لدى تجديده من قبل الوليد بن عبدالملك سنة (٨٨ - ٩١هـ /٧٠٦ - ٧٠٩م) (٤) ، وبعد أن تجاهلوا المحراب المجوف في مسجد القيروان الذي يرجع الى عهد البناء الأول من قبل عقبة بن نافع سنة (٥٠هـ/٦٧٠م) (٥) .

---

(١) نعمت علام : المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩ ، ص ١٥٧

(٣) شافعي : المرجع السابق ، ص ٦٠٤ ، ش ٨ .

(٤) Creswell, Op. Cit., P44.

(٥) الدكتور أحمد فكري : بدعة المحاريب ، مجلة الكاتب المصري ، م ٤ ، العدد ١٤ نوفمبر ١٩٤٦ م ، ص ٣٠٦ - ٣٢٠ .

وتعد الفسيفساء الزخرفية المنقوشة في قبة الصخرة من أقدم الأمثلة الاسلامية لهذا النوع من الصناعات التطبيقية ، وبقيت مستعملة طيلة العصور الوسطى (١) الا أنها كانت أكثر شيوعا في العصر الأموي ، كما في الجامع الأموي بدمشق (٢) والمسجد النبوي لدى تجديده من قبل الوليد (٣) ، وحمام خربة المفجر المنسوب الى هشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/٧٢٣ ـ ٧٤٢م) (٤) ،وقصر المنقوشة في الموصل بالعراق الذي بناه الحر بن يوسف سنة (١٠٦هـ/٧٢٤م) (٥) والي هشام نفسه على الموصل .

وتتميز فسيفساء قبة الصخرة بدقتها المتناهية وتنفيذها المدهش ، وربما تأثر الفنان بمثيلاتها من الفسيفساء المحلية في كنيسة الميلاد في بيت لحم (٦).

وقد صممت فسيفساء قبة الصخرة بحيث توافق المساحات المعمارية ؛ ومن هنا أصبحت تنسجم مع التصميم المعماري وتؤلف وحدة مع البناء ؛ وكانت تتألف من فصوص دقيقة من الزجاج والحجر والصدف وبعضها كان مذهبا ومفضضا . وقد ثبت على طبقة من الجص وروعي في لصقها ان تكون مسطحة وفي وضع أفقي ، وعلاوة على ذلك ، فكان لصق الفصوص المذهبة والمفضضة بصورة مائلة ، لكي تعكس الضوء ويزداد بريقها وكانت الألوان الغالبة للفصوص هي : اللون الأخضر والأزرق ، ويضاف اليها ألوان أخرى هي : الأحمر والفضي والرمادي والبنفسجي والبنى والإسود

---

(١) الدكتور حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، القاهرة ،١٩٥٩م، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) المقدسي : المرجع السابق ، ص ١٥٧؛ عبدالقادر الريحاوي : فسيفساء الجامع الاموي، الحوليات الأثرية السورية ، م ١٠ ، سنة ١٩٥٩، ص ٣٨ .

(٣) الدكتور أحمد فكري : مسجد القيروان ، مصر ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م، ص ٥٥.

(٤) Harding (G.L.), The Antiquities of Jordon,New Ed. London 1979, Pl. 27b.

(٥) الأزدي : تأريخ الموصل ، جـ ٢ ، تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة ١٣٨٧ هـ ؛ ١٩٦٧ م ، ص ٢٥ .

(٦) Creswell, Op. Cit. P.39

والأبيض ، كما استعمل اللون الذهبي للخلفيه، وأحيانا لابراز بعض العناصر الزخرفية كرسوم الفاكهة (١) .

وطريقة صنع الفصوص المذهبة والمفضضة بالغة التعقيد . فكان الفنانون يأخذون نوعا من الزجاج المستعمل في الفصوص السابقة ، ويطلونه بقشرة رقيقة من الذهب الخالص أو الفضة ،ثم تغطى تلك القشرة بطبقة رقيقة من الزجاج الابيض الشفاف غايتها الاحتفاظ باللون الذهبى والفضي براقا على المدى البعيد ، وبعد ذلك يقطع اللوح الى فصوص غالبا ما تكون مستقيمة الحافات خلافا للفصوص الأخرى (٢) .

وعلى أى حال فان فسيفساء قبة الصخرة قد أجريت عليها بعض الاصلاحات في عهود مختلفة، غير أن القسم الأكبر منها يرجع الى عهد الباء الأول، كما ان الاصلاحات المتتالية كانت من غير شك تتبع خطة التنفيذ الأصلية (٣) .

والفسيفساء ليست جديدة في الفن العربي الاسلامي وانما وجدت في الفنون السابقة للاسلام ، كما في العراق ومصر. ففي العراق تمثلت بمعبد الوركاء حوالي (٤٠٠٠ق.م) (٤)، كما ازدهرت في العصر الأغريقي والبيزنطي (٥)، ثم تدهورت في سوريا في أواخر العصر البيزنطي، وعادت إلى الازدهار ثانية في العصر الأموي (٦).

وتميزت زخارف مسجد قبة الصخرة بتعدد أساليب تنفيذها ، وتنوع عناصرها مع الاحتفاظ بانسجامها واتزانها الفني ، ولعبت دوراً كبيراً في تبلور زخرفة التوريق العربية (الأرابسك) التي أصبحت ميزة ملازمة للعرب والمسلمين ورمزاً لتواجدهم أينما حلّوا .

---

(١) الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) الريحاوي : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٣) الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) الهاشا : تأريخ الفن في العراق القديم ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٧ .

(٥) الريحاوي : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٦) نعمت علام : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

فبعض الزخارف نفذ بطريقة الفسيفساء عن طريق لصق الفصوص على طبقة من الملاط حسب المواضيع المطلوبة ، كما مربنا . والبعض الآخر نفذ بواسطة الحفر على الخشب كما هو الحال في زخارف الألواح التي تبطن السقف الخشبي لرواق المبنى من الداخل ، ومنها مانفذ بواسطة الطرق على البرونز ، ومثالها الزخارف الكائنة على الصفائح البرونزية التي تغطي العوارض الخشبية .

وبالنسبة لعناصر الزخرفة فتغلب عليها العناصر النباتية ، كأشجار النخيل والزيتون ، وأوراق الاكانتاس والعنب والأوراق اللوزية المركبة ، وكيزان الصنوبر ، وفاكهة الرمان والعنب ، والوريدات ، علاوة على عناصر أخرى منها الكأسية والحبيبات المجمعة والمزهريات .

فعناصر الشجر تمتاز بحيويتها ، ولكن تلاعب الفنان بجزئياتها أخرجها من هيئاتها الطبيعية ، التي عاشته في كنف معظم الفنون القديمة ، وطبعتها بالطابع الزخرفي . ويتجلى ذلك بزخرفة السيقان بفصوص من الجواهر والأشكال الهندسية الصغيرة ، وتشابك الأغصان تشابكاً زخرفياً (١) (رسم٦) وأحياناً يجمع ساق الشجر بين اللحاء على الجانبين وبين الدوائر وحبات اللؤلؤ على الوجه . والسعف مرسوم رسماً عاماً دون العناية بالتفاصيل. وبهذا أصبح الفنان يجمع بين خاصية تمثيل الطبيعة ، وبين الطابع الزخرفي. وفي حالات أخرى يحف بالنخلة الرئيسية نخلتان صغيرتان من الجانبين لملء الفراغ وتحقيق التوازن . ورسم لحاءهما على هيئة أقواس متوالية ، في حين رسم جذع الشجرة الكبيرة على هيئة مستطيلات متجاورة رأسية يعلو بعضها بعضاً ، في صفوف متتالية وبهذا تحاشى الفنان التكرار الممل ، وأكد على التوازن بين الجانبين (٢) وحقق خاصية التناظر التمثيلي .

---

(١) الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، ص ٢٦ ،
Creswell, Early Muslim Architecture, Vol.I, part I, P.264, Fig. 212.

(٢) الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وظاهرة الابتعاد عن التكرار الممل، وملء الفراغ والتحوير عن الطبيعة، والابتكار والتناظر التمثيلي أصبحت فيما بعد من أهم خصائص الفن العربي الاسلامي.

وربما ترجع ظاهرة التحوير. والبعد عن تصوير الواقع من بعض الوجوه الى التعاليم الدينية التي تنفر من مضاهاة خلق الله (١)، والى ملكات الحس والشعور والخيال التي كانت تنبع من القوى الدفينة في حياة العرب، وكانت تختلف عن نظيراتها عند غيرهم من الدول والشعوب، وأدت الى تشكيل العناصر المعمارية، وابتكار التعبيرات الفنية في الدولة العربية الاسلامية(٢):

وكما كان الفنان في قبة الصخرة موفقاً في تحوير العناصر النباتية، وطبعها بالطابع الزخرفي فانه كان بنفس الوقت موفقاً في تمثيل الطبيعة بكل دقة: ويلاحظ ذلك في احدى مناظر الفيسفساء التي تمثل أجمة من القصب. فالرسم قريب جداً من الطبيعة وعني الفنان بالتعبير عن التكتل، وبتوزيع الضوء والظل، وبتحقيق بعض التفاصيل الطبيعية الدقيقة (٣).

أما اوراق الاكانتاس، فعلى الرغم من شيوعها في الفن البيزنطي، الأ أن هيئاتها في قبة الصخرة غالباً ماتكون محلية أكثر من كونها بيزنطية (٤) بسبب التحوير الذي أصابها. ولاحتضانها مزهريات زخرفية أحيانا (٥) (رسم ٧)، ولاستخدامها كزهريات في حالات أخرى (٦) (رسم ٨):

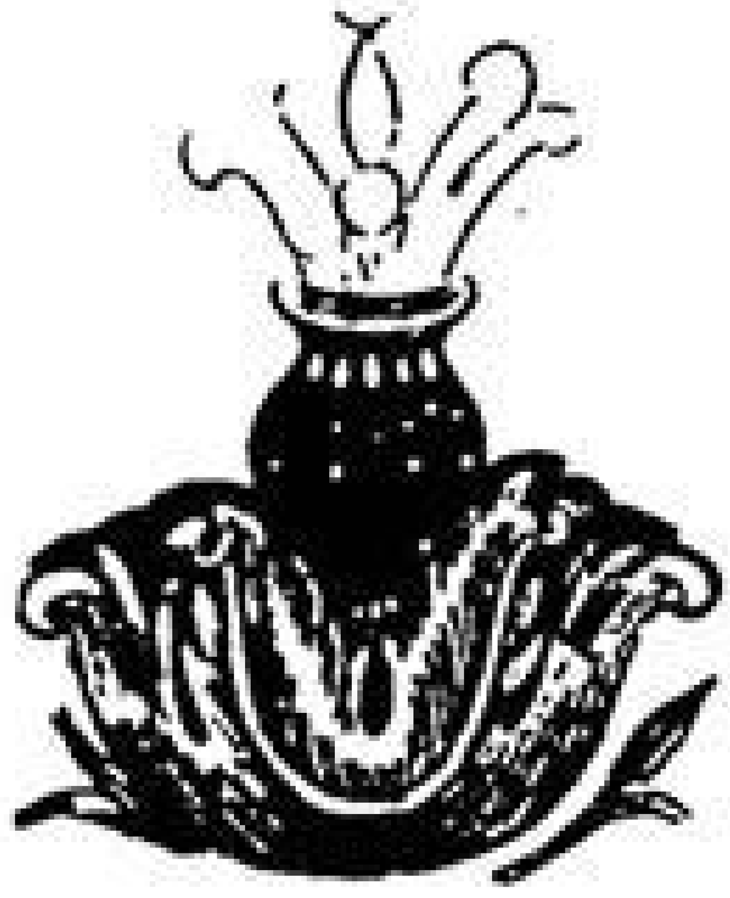
وورقة العنب هي الاخرى وجدت في الفنون السابقة للاسلام كالفن الآشوري (٧) (رسم ٩)، وأجنبية كالفنين البيزنطي (٨) (رسم ١٠)

---

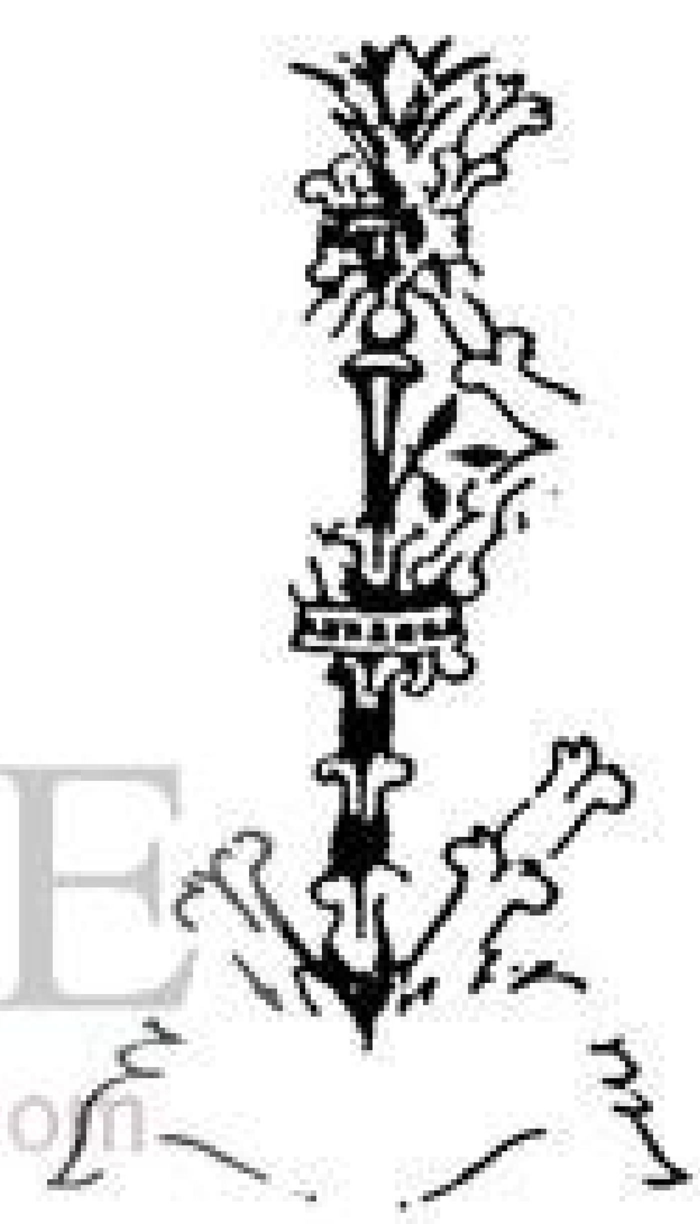
(١) الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٠
(٢) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، ص ٣١ .
(٣) الباشا : المرجع السابق ،ص ٢٩ .
(٤) Rice, Islamic Art, P.11
(٥) Creswell, Op. Cit., Fig. 265.
(٦) Ibid., Fig. 203
(٧) Parrot (A.) Ninavah and Babylon, France 1961, Fig.71
(٨) Lechler (G.), The Tree of life in Indo-European and Islamic Cultures, Art Islamica, Vol.IV, New York 1968, Fig.27c.



رسم (٦) اشجار بقبة الصخرة



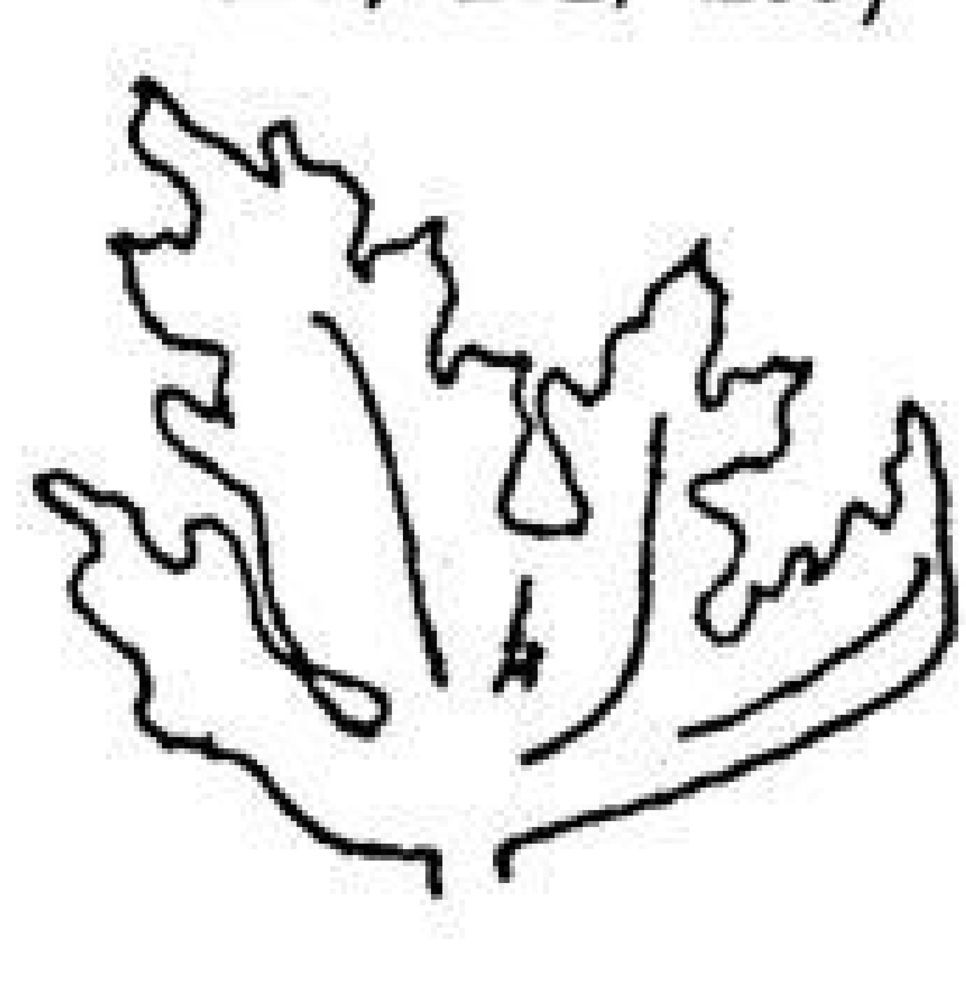
رسم (٧) اكانتس بقبة الصخرة



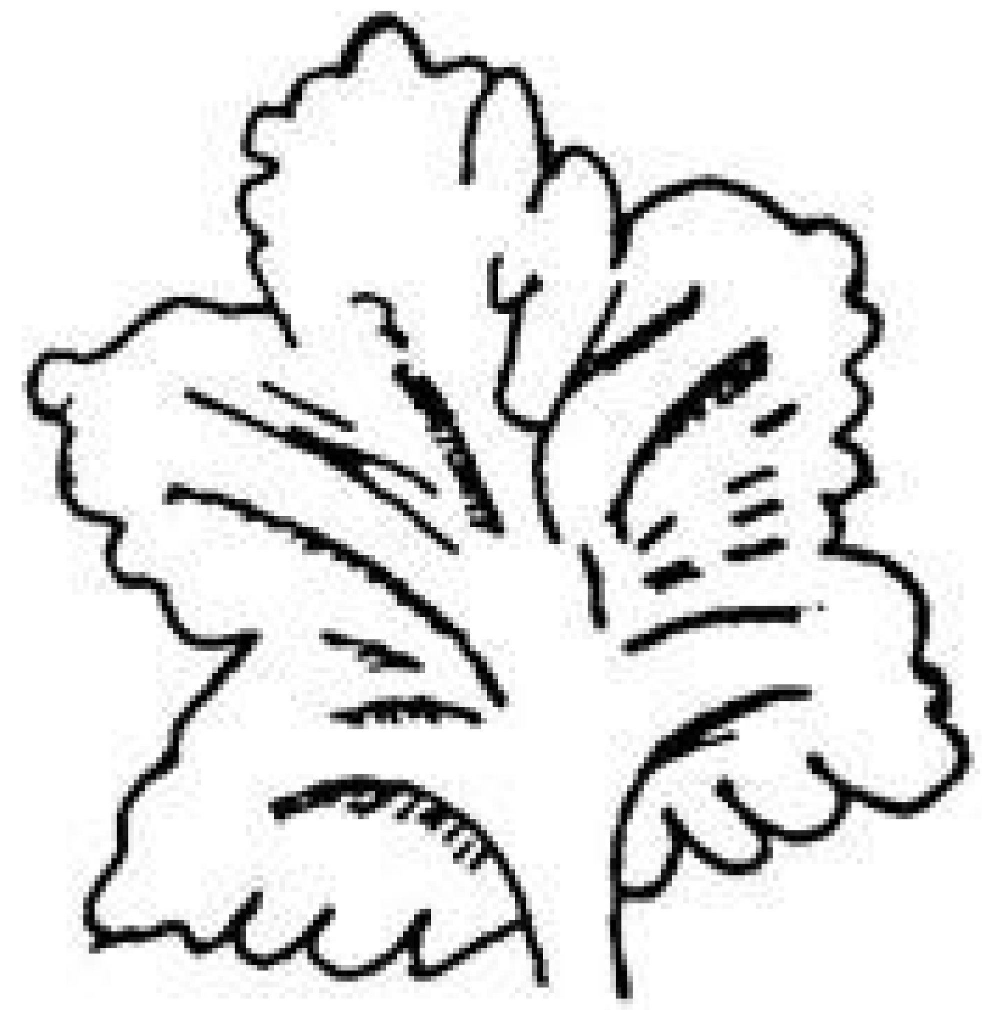
رسم (٨) اكانتس بقبة الصخرة
(Creswell, Op. cit., Figs. 197, 212, 265)



رسم (٩) ورقة عنب آشورية
(Parrot, Ninavah., Fig 71)



رسم (١٠) ورقة عنب بيزنطية
(Lechler, The Tree of Life., Fig. 27c)



رسم (١١) ورقة عنب بقبة الصخرة
(Dimand, Studies in Islamic Ornament, Fig.9)

والساساني، لكنها كانت قريبة من هيئاتها الطبيعية، ثم ظهرت في الفن الاسلامي في عهد مبكر (١) كما في قبة الصخرة مع شيء من التحوير (٢) (رسم ١١)،وازداد ذلك التحوير في الاوراق المثمثلة في المسجد الاقصى (٣) (رسم ١٢،١٣) واتضحت معالمه بصورة جلية في زخارف سامراء عندما دخلت العيون بين فصوصها، واقتضبت العروق التي تتخللها ، وزالت معظم تسنناتها (٤) (رسم ١٤) حتى تحولت في العصور التالية الى عناصر تجريدية بحتة (٥) (رسم ١٥).

والاوراق المركبة رسمت بصورة تجريدية وتخللتها الثمار كالرمان (٦) (رسم ١٦)، والبندق (٧) (رسم ١٧) الذي اتخذ هو الاخر طابعا تجريديا بعيداً عن الطبيعة.

أما كوز الصنوبر فيرجع بأصوله الى الفنون العراقية القديمة (٨) كالفن الآشورى (٩) (رسم ١٨) وطالعتنا أمثلته الاولى بقبة الصخرة في العصر الاسلامي (١٠) (رسم ١٩) ثم شاع بصورة جلية في العصر الاموي،وبداية العصر العباسي (١١).

---

(١) الجمعة : السابق ، ص ١٥٢ ، رسم ١٧٠ .

(٢) Dimand(M.),Studies in Islamic Ornament, Ars Islamica, Vol.IV, New York 1968, Fig.9

(٣) Creswell, Early. Muslim Architecture, Vol.II, Oxford 1932-1940, P.133, Figs. 132,133 (El.)

(٤) Herzfeld (E.), Die Ausgrabungen Von Samarra, Berlin 1923, Band I, P.194.

(٥) فكري : المرجع السابق ، ص ٤١ ، ش ١٠ .

(٦) Creswell, E.M.A., Vol.I, P.267, Fig.222

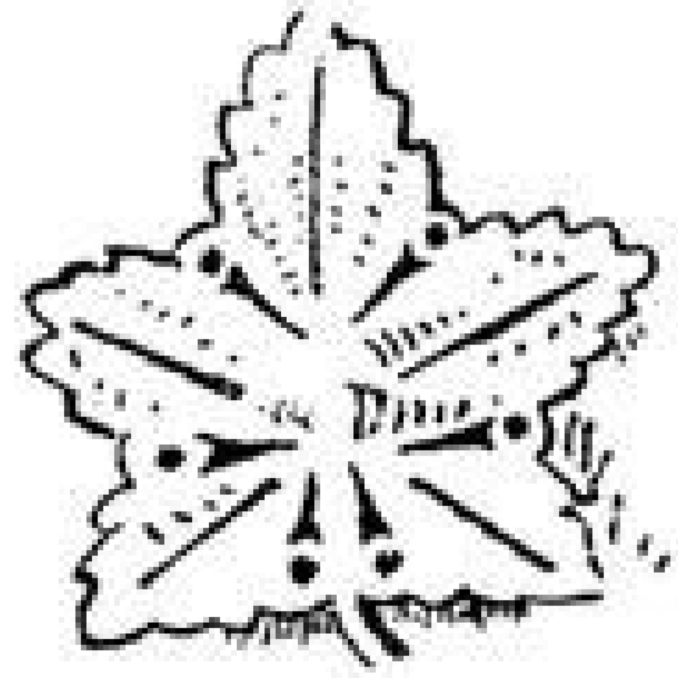
(٧) Ibid., P. 268, Fig.228

(٨) الدكتور فريد شافعي : الأخشاب المزخرفة في الطراز الأموي، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٤ ، جـ ٢ ، سنة ١٩٥٢ م ، ص ٧٠ .

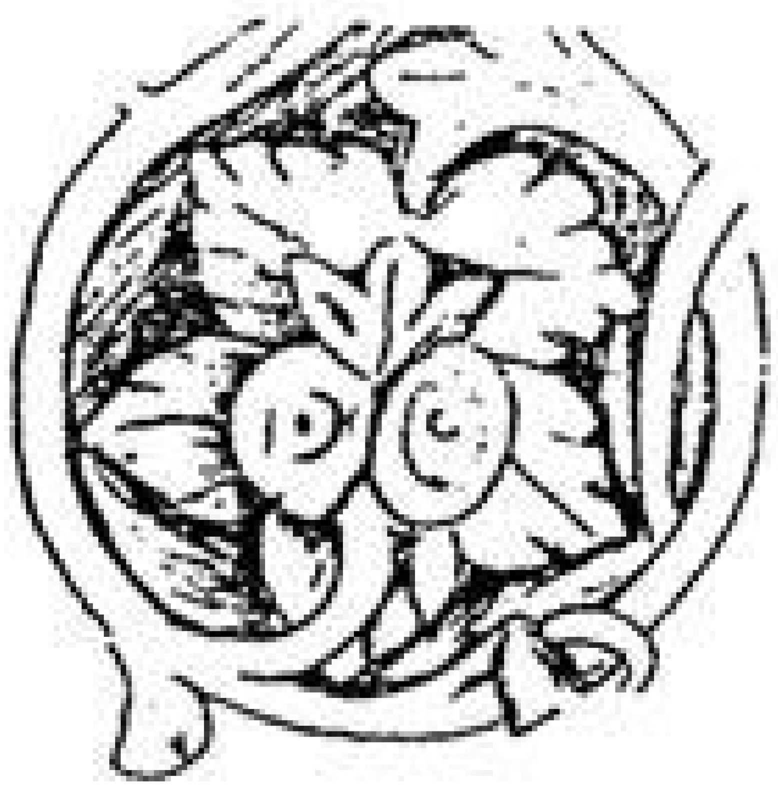
(٩) محمد وهبة : الزخرفة التأريخية ، القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م، ص ٢١ .

(١٠) Creswell, Op. Cit., Vol.I, Figs. 297, 298.

(١١) الدكتور أحمد قاسم الجمعة:الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الأتابكي والايلخاني رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة القاهرة ١٩٧٥ م ، م ٢ ، ص ٤١٩ .

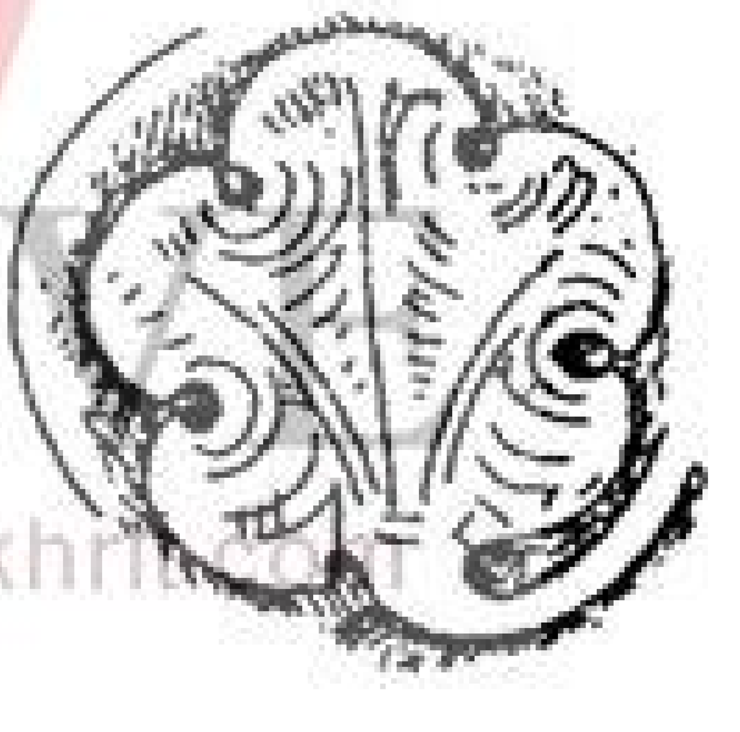


رسم (١٢) عن : (د. شافعي:
الاخشاب المزخرفة، ش، ٢١)



رسم (١٣) (د. احمد قاسم الجمعة)

اوراق عنب مـن المسجد الاقصـى



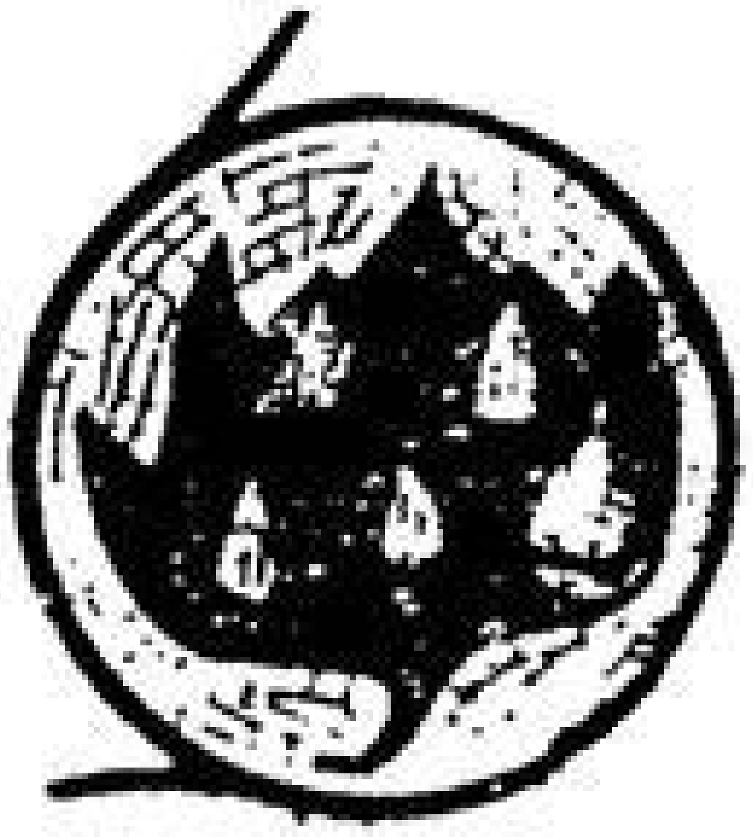
رسم (١٤) ورقة عنب من سامراء
(د. شافعي: زخارف وطرز سامراء، ش ١)



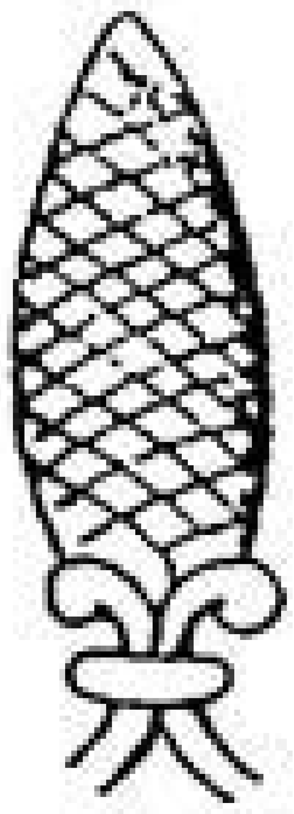
رسم (١٥) ورقة عنب من مصر
(د. فكري :مساجد القاهرة، ش ١٠



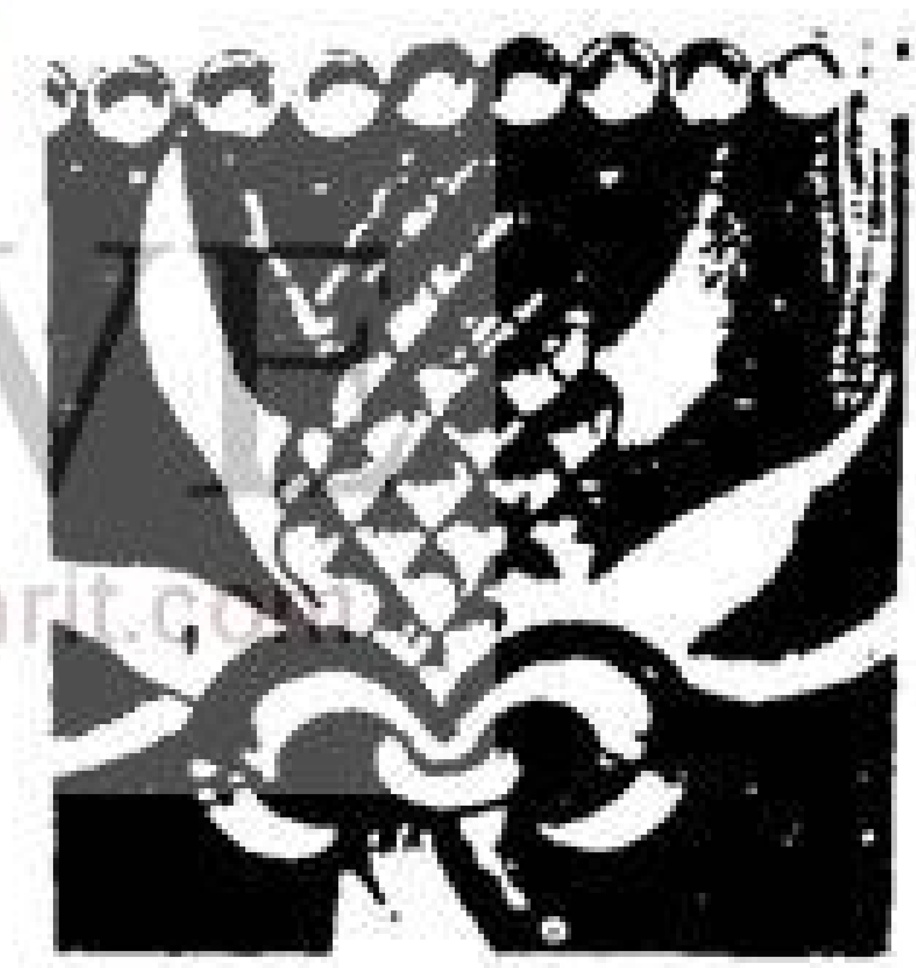
رسم (١٦) ورقة مركبة من قبة الصخرة
(Creswell, Op. cit., Fig.222)



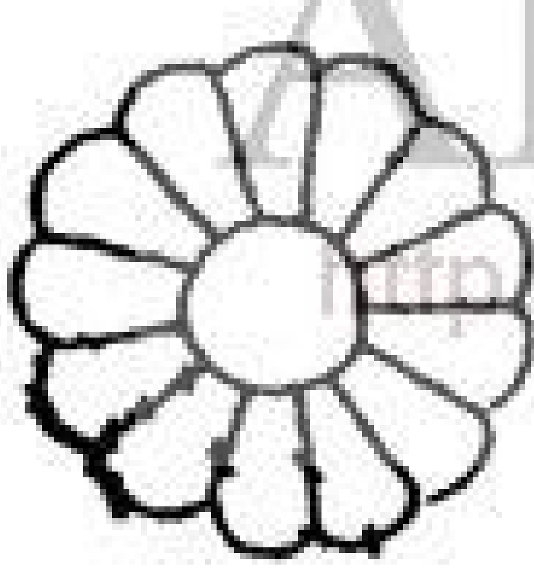
رسم (١٧) ورقة مركبة بقبة الصخرة
(Creswell, Op. cit., Fig. 228)



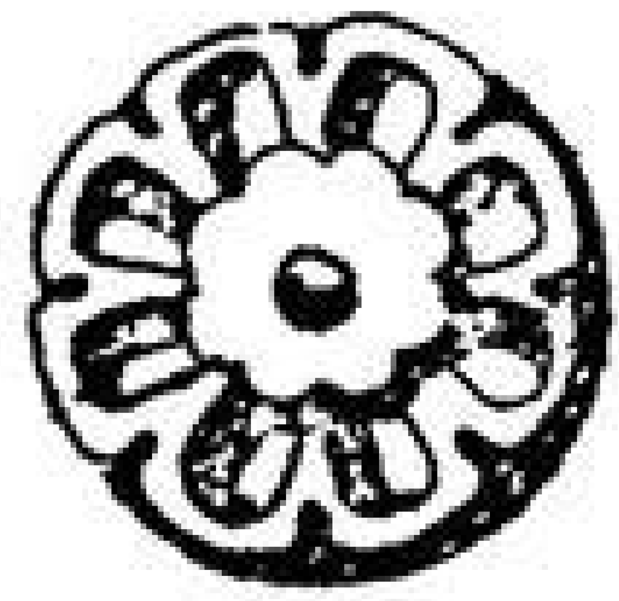
رسم (١٨) كوز صنوبر آشوري
(وهبة: الزخرفة التاريخية، (٢١)



رسم (١٩) كوز صنوبر بقبة الصخرة
(Creswell, Op. cit., Fig.298)



رسم (٢٠) وردة اغريقية
(Parrot, Historic. Fig.31)



رسم (٢١) وردة آشورية
(وهبة: المرجع السابق ص ٢١)

والوريدات المفصصة كانت اكثر العناصر انتشارا في جميع الفنون القديمة وكانت قريبة من الطبيعة على الرغم من تنوعها (١) (رسم ٢٠، ٢١) ثم ظهرت أمثلتها الاولى في الاسلام بقبة الصخرة بهيئات تجريدية نتيجة التحوير الكبير الذي أصابها (٢) (رسم ٢٢) . وتمثلت فيما بعد في معظم المخلفات المعمارية والفنية (٣) .

وبالنسبة للعناصر الكأسية فقد وجدت في الفنون السابقة للاسلام ومنها: الفن الاغريقي (رسم ٢٣)، والبيزنطي والساساني (٤) ثم ظهرت نماذجها الاسلامية الاولى في قبة الصخرة(٥)(رسم٢٤) والمسجد الاقصى (رسم ٢٥) وشاعت بصورة جلية بالعهد الاموي كما في قصر المشتى (رسم ٢٦) وقصر الطوبة(٦) (رسم ٢٧) وندرت بعد ذلك.

وعناصر الحبيبات المجمعة المنتهية بنصل في الاعلى التي تمثلت في زخارف قبة الصخرة (٧) (رسم ٢٨) تعد من العناصر النادرة في العهد الاسلامي وما قبله. ومع هذا فقد وجد مثيل لها في المسجد الأقصى (٨) (رسم ٢٩) وربما تطورت بالأصل عن عناقيد العنب.

أما عناصر المزهريات والاواني التي تخرج منها العناصر النباتية في قبة الصخرة (٩) (رسم ٣٠) فقد وجدت قبل ذلك في بعض الفنون القديمة

---

(١) الجمعة : المرجع السابق ، م٢ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) Creswell, Op. Cit., Vol.I, Figs. 323, 324

(٣) الجمعة : المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٤) شافعي : المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ش ٢ ، ٣

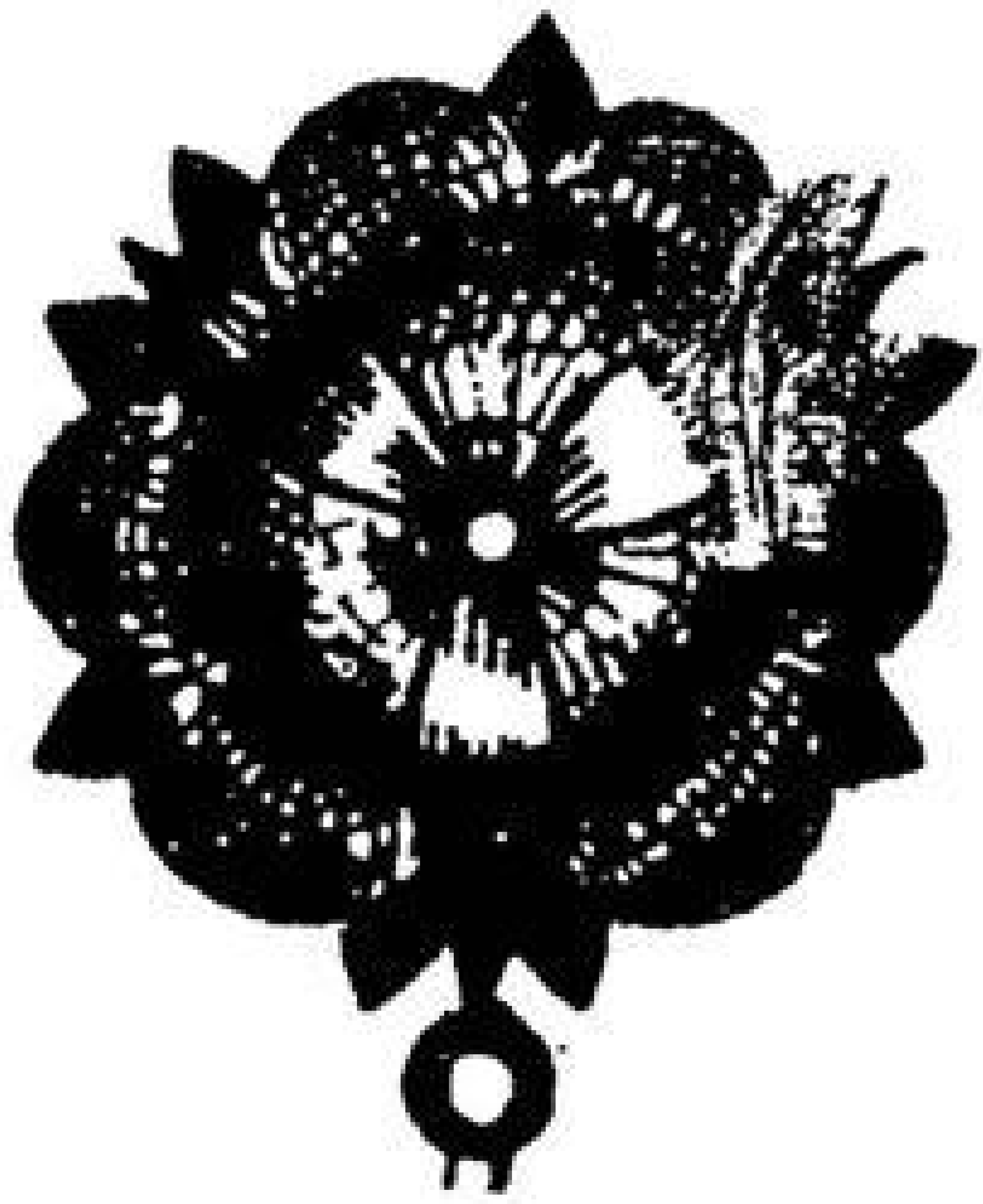
(٥) Creswell, Op. Cit., Vol.I, Fig. 319.

(٦) شافعي : المرجع السابق ، ص ٨١/٦٩ ، ١٩١ ش ٥، ١٠ ، ١٤ ، ٢٨
Creswell, Op. Cit., Vo.I, Figs. 215–218.

(٧) شافعي : المرجع السابق ، ش ١٨.

(٨) المرجع نفسة ، ص ٨٢ ، ش ١٦.

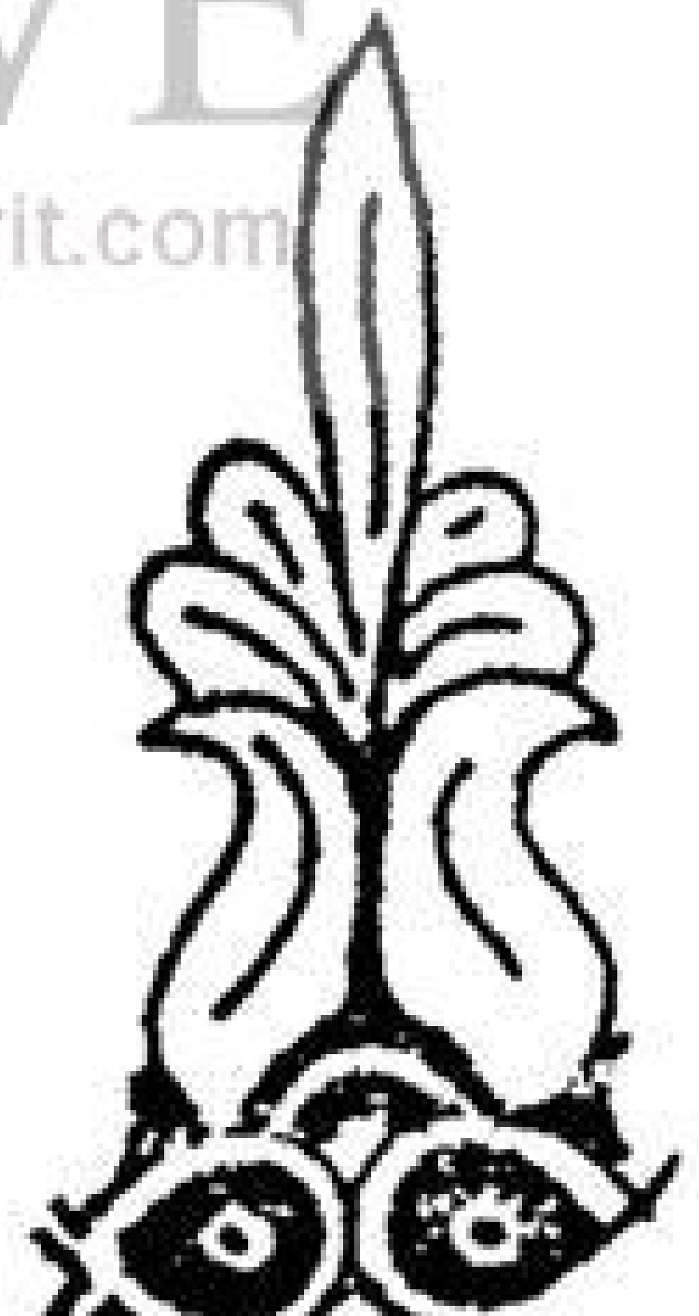
(٩) Creswell Op. Cit., Vol.I, Fig. 260.



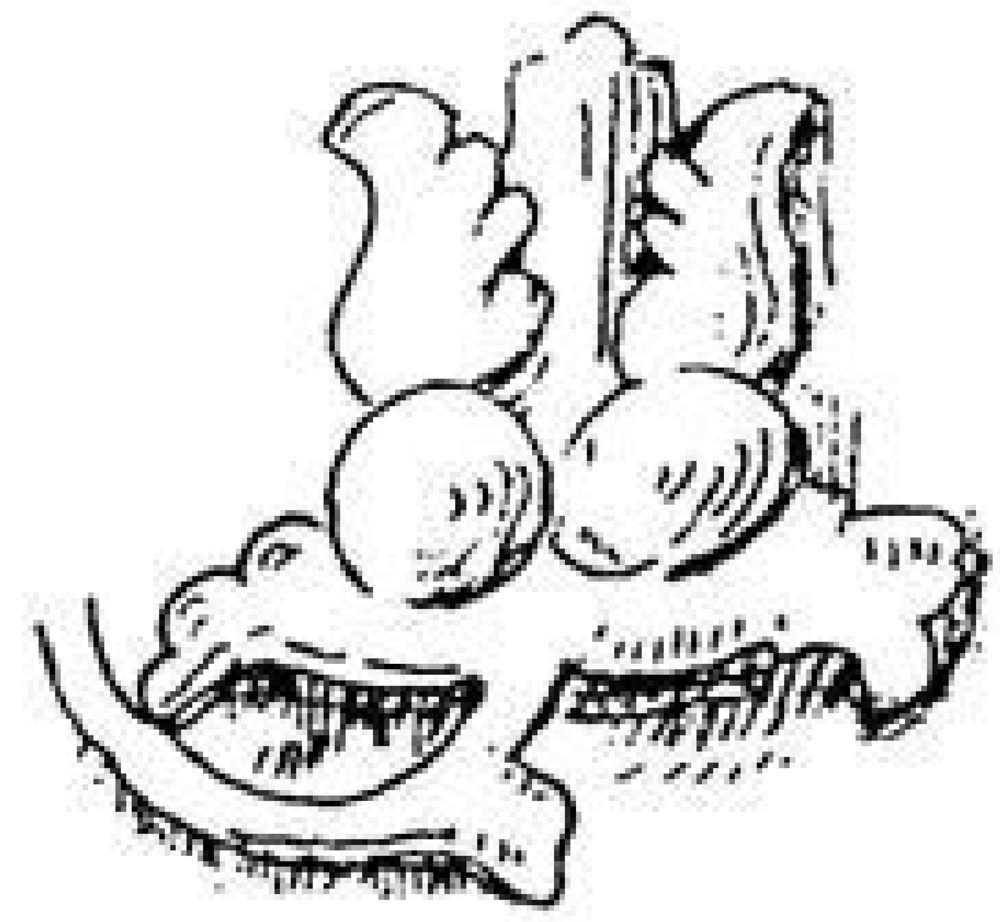
رسم (٢٢) وردة من قبة الصخرة
(Cresewll, E.M.A., Vol.I, Figs. 321,325)



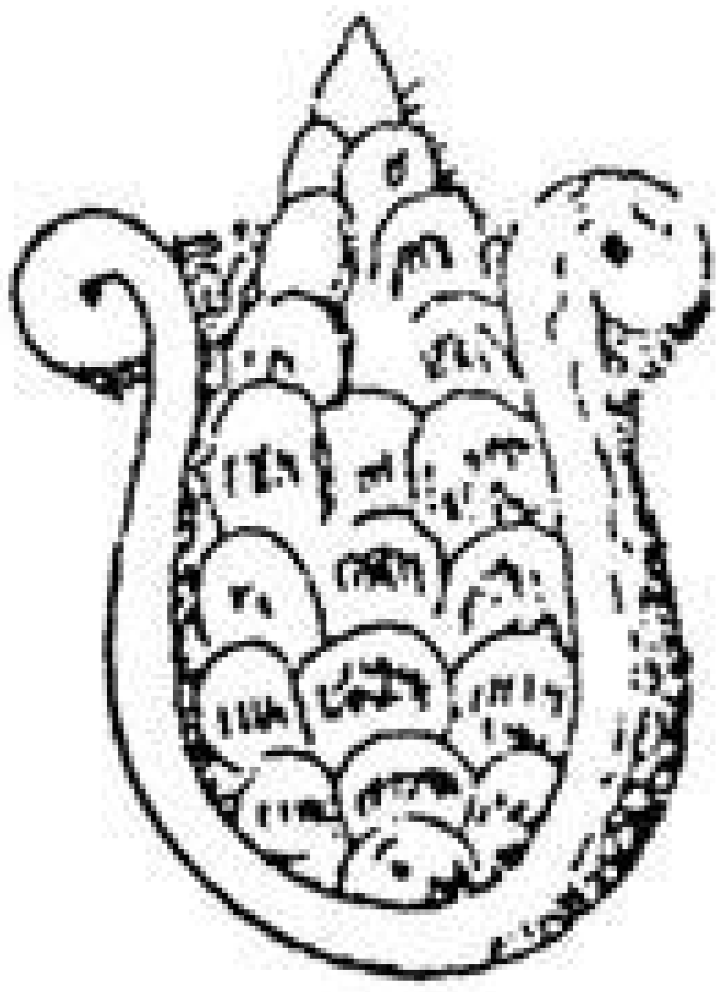
رسم (٢٤) ورقة كأسية من قبة الصخرة
(Creswell, Op. cit., Figs. 319.)



رسم (٢٣) ورقة كأسية اغريقية
(د. شافعي: الاخشاب المزخرفة، ش ١) .



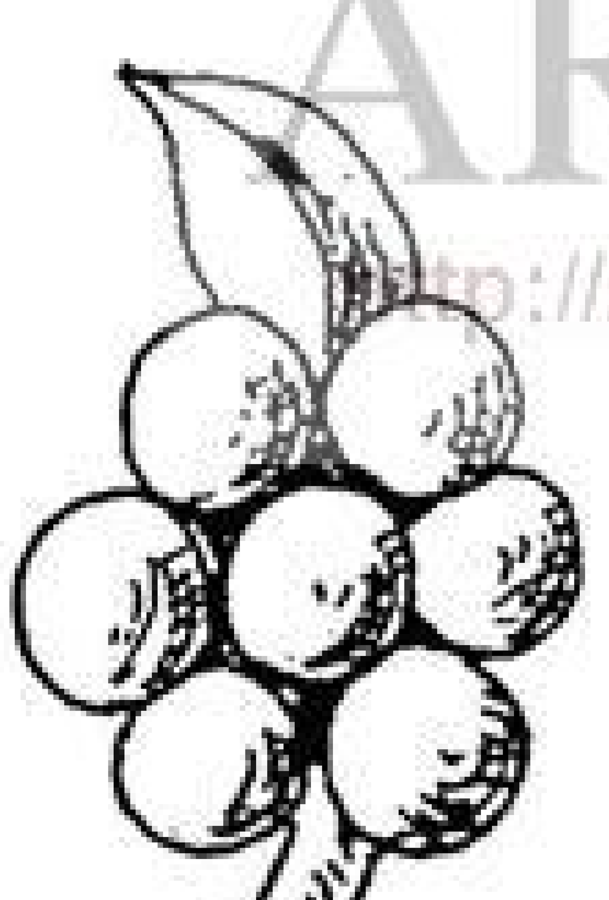
رسم (٢٥) ورقة كأسية من المسجد الأقصى



رسم (٢٦) ورقة كأسية من قصر المشتى
(المرجع نفسه ص ٢٨)



رسم (٢٧) ورقة كأسية من قصر الطوبة
(المرجع نفسه: ش ٥)



رسم (٢٨) حبيبات مجمعة بقبة الصخرة
(د. شافعي: الاخشاب المزخرفة، ش ١٨)

كالفن الروماني (١). والبيزنطي (٢) (رسم ٣١) ثم وجدت بعد ذلك بصورة ملحوظة في العهد الاموي . واوائل العباسي كما في زخارف المسجد الاقصى (٣) (رسم ٣٢) ، وقصر المشتى (٤) (رسم ٣٣) ومحراب جامع الخاصكي من عهد المنصور ببغداد(٥)(رسم ٣٤).ونجد في بعض الحالات تخرج من مزهريات قبة الصخرة أغصان تجريدية تنتهي بعناصر كأسية او جناحية (٦) (رسم ٣٥) وربما تعود العناصر الجناحية باصولها الى الفن الاشوري (٧) (رسم ٣٦) وتأثرت بها الفنون الايرانية ولا سيما الساسانية (٨) ثم حورها العرب المسلمون بعد ذلك وغدت عنصرا زخرفيا بحتا.

وبالاضافة لما تقدم فان زخارف قبة الصخرة تتخللها عناصر أخرى. كالأهلة والنجوم (٩) (رسم ٣٧) والجواهر واللآلىء (١٠)(رسم ٣٨) وقرون الوخا (١١) (رسم ٣٩) .

فالجواهر ترجعبأصولها الى الفنون الشرقية القديمة (١٢) بينما الأهلة والنجوم كانت معروفة في التنين الساساني والبيزنطي (١٣)واتخذها المسلمون

(١) Creswell, Op. Cit., Vol.I, Figs. 253-263

(٢) الجمعة : المرجع السابق ، م ٣ ، ص ٣٤٤ ، رسم ٨١٧ .

(٣) Lechler, Op. Cit., Fig.270

(٤) Herzfeld (E.), Archaologish Reise Im Euphrat und Tigris Gebiet, Berlin 1911—1920, Vol.II, P.130, Fig.12(e2).

(٥) Dimand, Op. Cit., Fig.62

(٦) Creswell, Op. Cit., Viol.I Fig.201

(٧) أحمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل ، ص ٢٣، رسم ١٦٤

(٨) الدكتور فريد شافعي : مميزات الاخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطميفي مصر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، م ١٦ ، ج ١ مايو ١٩٥٤ ، ص ٦٠، ش ٢ ، ٣

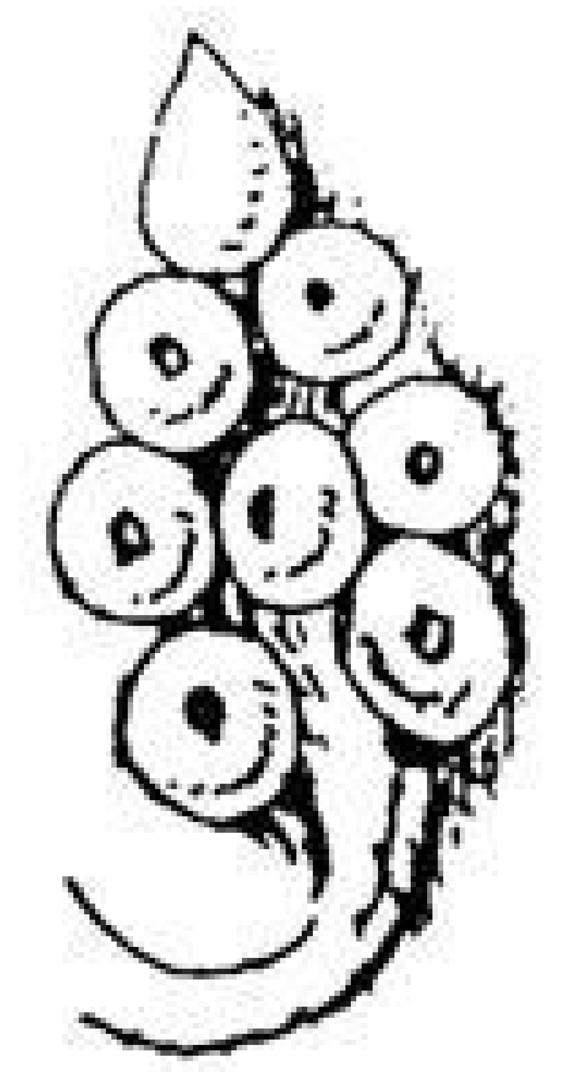
(٩) Creswell' Op. Cit., Figs. 273, 274.

(١٠) Ibid., Figs. 275–282.

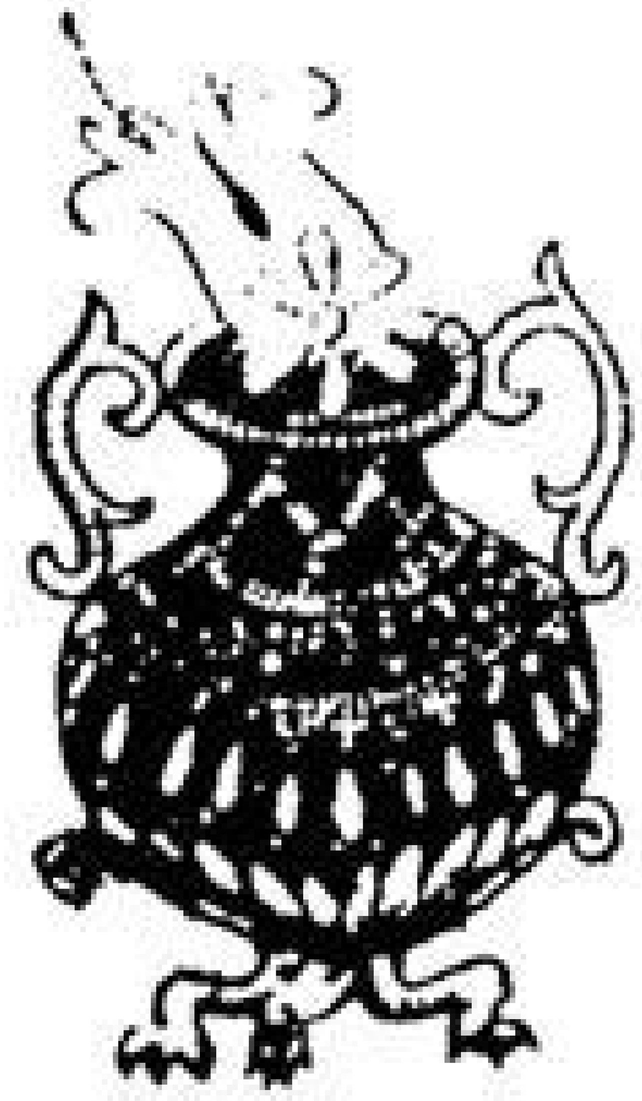
(١١) Ibid., Figs. 238–242.

(١٢) Rice, Op. Cit., P.13.

(١٣) نعمت علام : المرجع السابق ، ص ٣٢ .



رسم (٢٩) حبيبات مجمعة بالمسجد الاقصى
(د. شافعي: المرجع السابق، ش ١٦)



رسم (٣٠) مزهرية من قبة الصخرة
(Creswell, Op. cit., Fig. 260)



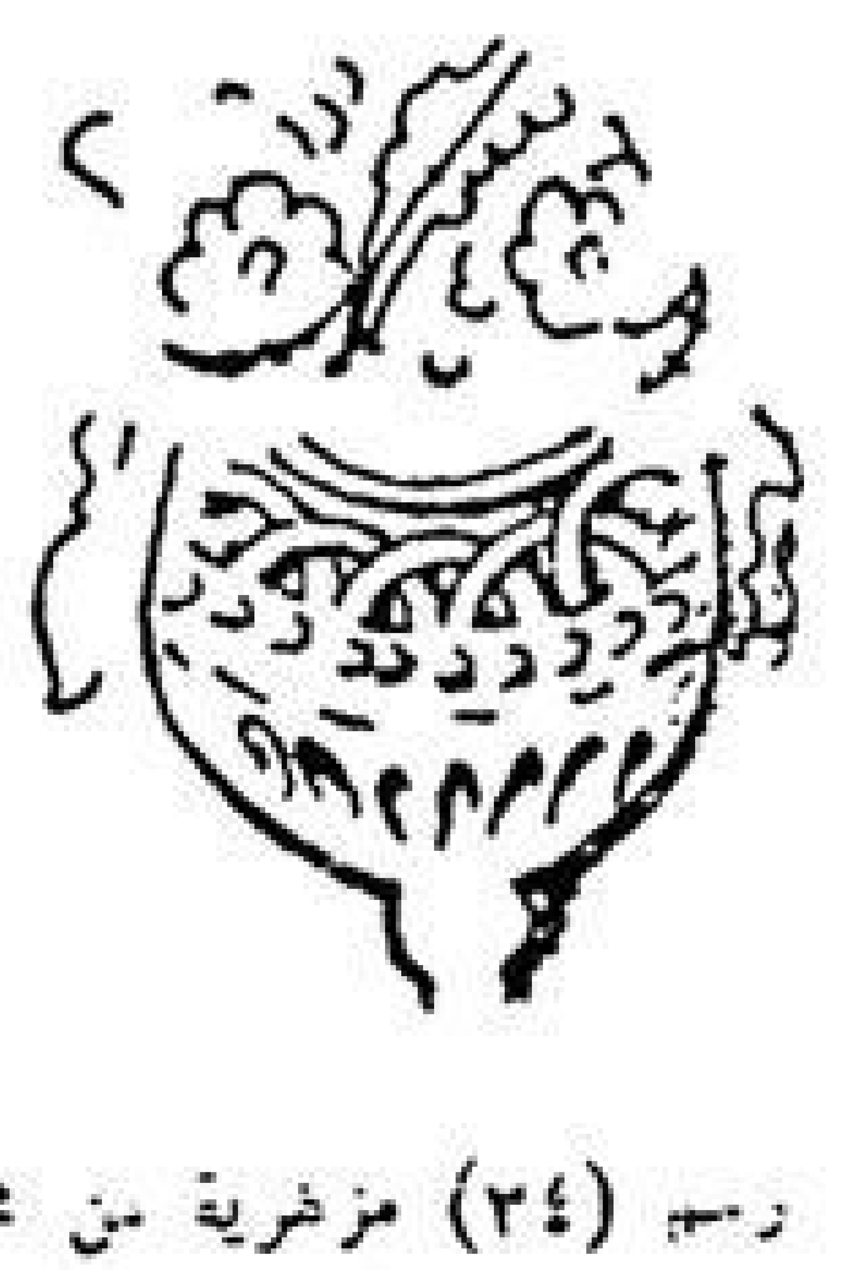
رسم (٣١) مزهرية بيزنطية
(د. الجمعة: الآثار الرخامية، رسم ٨١٧)



رسم (٣٢) مزهرية من المسجد الاقصى
(Herzfeld, Archaologish, Fig.12)



رسم (٣٣) مزهرية من قصر المشتى
(Dimand, Studies., Fig. 60)



رسم (٣٤) مزهرية من محراب الخاصكي
(د. الجمعة: المرجع السابق، رسم ٨٢٢)

بالاضافة الى الغرض الزخرفي كشارة دينية، كما في تركيا ومصر (١).

أما قرون الوخا فهي من العناصر النادرة في الفنون القديمة كندرتها في الفن العربي الاسلامي، حيث لم نجد لها امثلة واضحة المعالم كما هو الحال في قبة الصخرة، الا في محراب السيدة رقية من العصر الفاطمي بمصر (٢) (رسم ٤٠) .

ولم تقتصر أهمية مسجد قبة الصخرة على تصميمه المعماري والمميزات والعناصر الفنية التي تطرقنا اليها، وانما تتجلى بالنصوص الكتابية التي تضمنها المبنى . فهناك نص يحتل الجزء العلوي من التثمينة الداخلية، نفذت حروفه بواسطة الفصوص المذهبة على أرضية زرقاء من زخارف الفسيفساء تضمن آيات قرآنية، وعبارة انشائية نصها (بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين) (٣).

أما النص الثاني فقد نفذ بواسطة الطرق على لوح من النحاس تضمن آيات قرآنية، (٤). والملاحظ على النص الاول ان اسم الخليفة المأمون والقابه مكتوبة بخط ضيق يخالف الخط المستعمل في بقية أجزاء النص، فضلا عن أن سنة اثنتين وسبعين لاتقع في حكم المأمون، بل ضمن مي حكم عبد الملك (٦٥ – ٨٦هـ). وهذا يدل على حدوث تغيير في النص في عهد المأمون ، ولكن الصانع فاته ان يغير التأريخ بعد أن غير الاسم (٥) .

وتتجلى أهمية هذه النصوص في كونها توضح لنا أحد أنواع الخطوط العربية ، التي سادت القرن الأول الهجري ، وهو الخط اليابس الذي يعتمد في رسم حروفه على الخطوط المستقيمة سواء القائمة منها والمستلقية ، والذي

---

(١) سامح : العمارة في صدر الاسلام ، ص ٢٠ .

(٢) شافعي : المرجع السابق ، ص ٨٠ ، ش ٢١ .

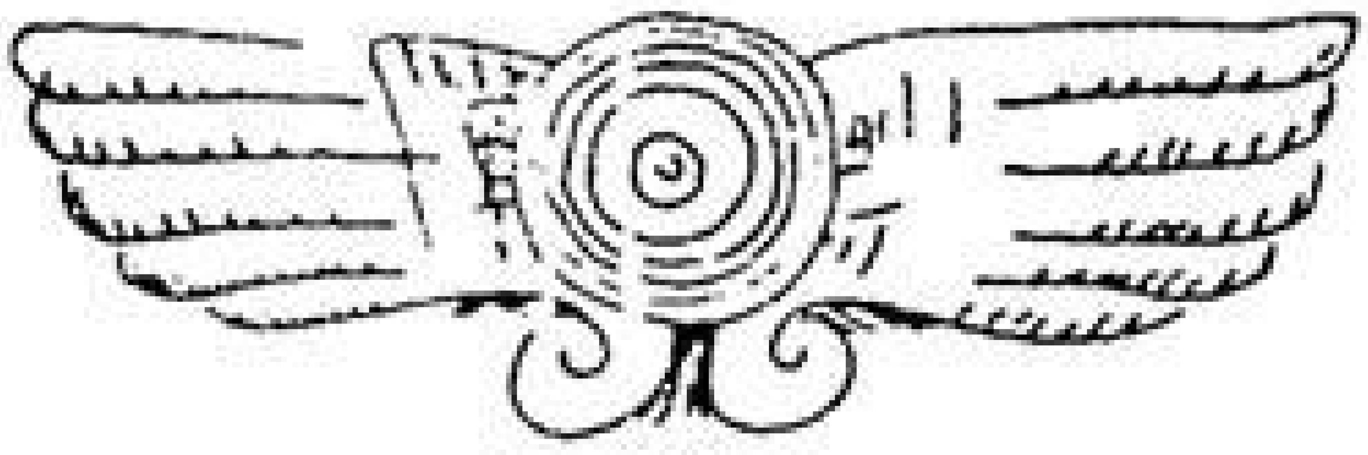
(٣) Creswell, Op. Cit., Vol.I, P. 225;
سامح : المرجع السابق ، ، ص ١٨ ، ١٩ : توفيق عبدالجواد : المرجع السابق ص٨

(٤) الدكتور ابراهيم جمعة : دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٨٠ ، ش ٨ .

(٥) سامح : المرجع السابق ، ص ١٩ : توفيق عبد الجواد : المرجع السابق ، ص ٠



رسم (٣٥) اجنحة من قبة الصخرة



رسم (٣٦) اجنحة آشورية

(Creswell, Op. cit., Vol.I, Figs. 273, 290)



رسم (٣٧) آهلة ونجوم من قبة الصخرة



رسم (٣٨) جواهر من قبة الصخرة



رسم (٣٩) قرن الرخا من قبة الصخرة

(Creswell, Op. cit., Vol.I, Figs. 239,278)



رسم (٤٠) قرن الرخا بمحراب السيدة رقية بمصر.

(د. شافعي: مميزات الاخشاب المزخرفة، ش ٢١)

أطلق عليه مجازاً اسم (الخط الكوفي). كما أنّ التأريخ المدون في النص الأول حدد بما لايقبل الشك عودة البناء إلى عبد الملك ، وجاء دعماً للمصادر التأريخية التي تنسب المبنى بدورها إلى العاهل المذكور . علاوة إلى أنّ ذلك يأخذ بيد الدارسين لارجاع النصوص المشابهة غير المؤرخة إلى هذه الفترة أو مقاربة لها عن طريق الدراسة المقارنة . هذا ويعد التأريخ هنا من أقدم التواريخ المدونة على المباني العربية الاسلامية .

وتنفيذ النص الأول بواسطة الفسيفساء ، والبوادر الفنية التي ظهرت في أشكال حروف النصين توضح لنا بأن الخط العربي جاوز في عهد مبكر حدود المضمون إلى النواحي الجمالية . ويعد هذا مقدمة لاستعمالات الخط العربي للأغراض الزخرفية وهي الميزة التي امتاز بها عن بقية خطوط الأقوام الأخرى .

أما المسجد الأقصى فيعتقد بأنه أنشئ من قبل الخليفة عمر بن الخطاب(١) ، ثم أعيد بناؤه في العصر الأموي . ولا يعرف على وجه التحديد من الذي بناه في هذا العصر . فقد اختلفت الآراء فيه ، فبعضها ينسب ذلك إلى عبد الملك بن مروان (٢)، والبعض الآخر ينسبه إلى ابنه الوليد (٣) . ويرجع هذا الاختلاف إلى عدم وجود نص تذكاري يثبت ذلك ، كما في مسجد قبة الصخرة ، علاوة على أنّ المؤرخين والجغرافيين في العصور الوسطى لم يثبتوا ذلك بدقة (٤). ولكن من الراجح عودة البناء إلى الوليد ، وذلك لأن عبد الملك كان قد قام ببناء قبة الصخرة الضخم . وبهذا ، فمن غير المحتمل أن يتسع وقته

---

(١) الطبري : تأريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ص ٢٤٠٥ . وكان مسجد عمر بسيطا بالخشب واللبن (الدكتور غازي رجب : المسجد الاقصى ، مجلة سومر ، م ٢٨، سنة ١٩٧٢ م ، ص ١٣٧) .

(٢) ابن الأثير : تأريخ الكامل ،حـ ٥ ، ص ٤ ؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية القاهرة ، ص ١٠٢ .

(٣) المقدسي : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٤) رجب : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

وامكانياته لاعادة بناء مسجد آخر في آن واحد ، علاوة على انشغاله بمسؤولية الحكم ، كما أنّ المسجد الأقصى مجاور لقبة الصخرة ، وهذا بدوره يبعد احتمال قيام شخص واحد بانشاء واعادة بناء مسجدين في بقعة واحدة .

ومهما يكن من أمر ، فالمسجد الأقصى يمثل نمطاً جديداً في العمارة الاسلامية (١) مما جعله يتصف بمميزات وخصائص معمارية وفنية نادرة الشيوع في المساجد الاسلامية يرجع معظمها إلى العهد الأموي .

ومن تلك المميزات خلو المسجد من الصحن أو الفناء الداخلي المكشوف (رسم٤١) ، وهي ميزة نادرة في المساجد ولا سيما التي ترقى إلى صدر الاسلام والعهدين الأموي والعباسي حيث كان الصحن المفتوح مى خصائصها الهامة (٢).

كما امتاز المسجد الأقصى بعدم توسط محرابه لجدار القبلة (٣) (الرسم السابق) وبهذا شذّ عن القاعدة العامة لأغلب المساجد الاسلامية التي روعي فيها توسط المحراب لذلك الجدار ، ولكنها تكن قاعدة ثابتة . فهناك أمثلة لبعض المساجد السابقة واللاحقة تمثلت بها هذه الميزة مثالها : المسجد النبوي بالمدينة منذ عصر الرسول (ص) (٤)، وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط (٢١هـ/ ٦٤١م) (٥) ، والجامع الأموي بدمشق (٦) ومسجد بصرى (٧) والمسجد العلوي في اسكاف بني جنيد بالعراق (٨) والمسجد الجامع في حران شمال الرقة حوالي سنة (١٣٠هـ/ ٧٤٧م)(٩)، ومسجد القرويين بفاس بالمغرب(١٠).

---

(١) Rice. Islamic Art, P.13.

(٢) تطرقنا إلى ذلك في الصفحة ٣، ٤ .

(٣) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، ص ٢١٢ ، ش ٨٨ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٨٩ ، ٢٩٨ ، ش ٨٠

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٩٨.

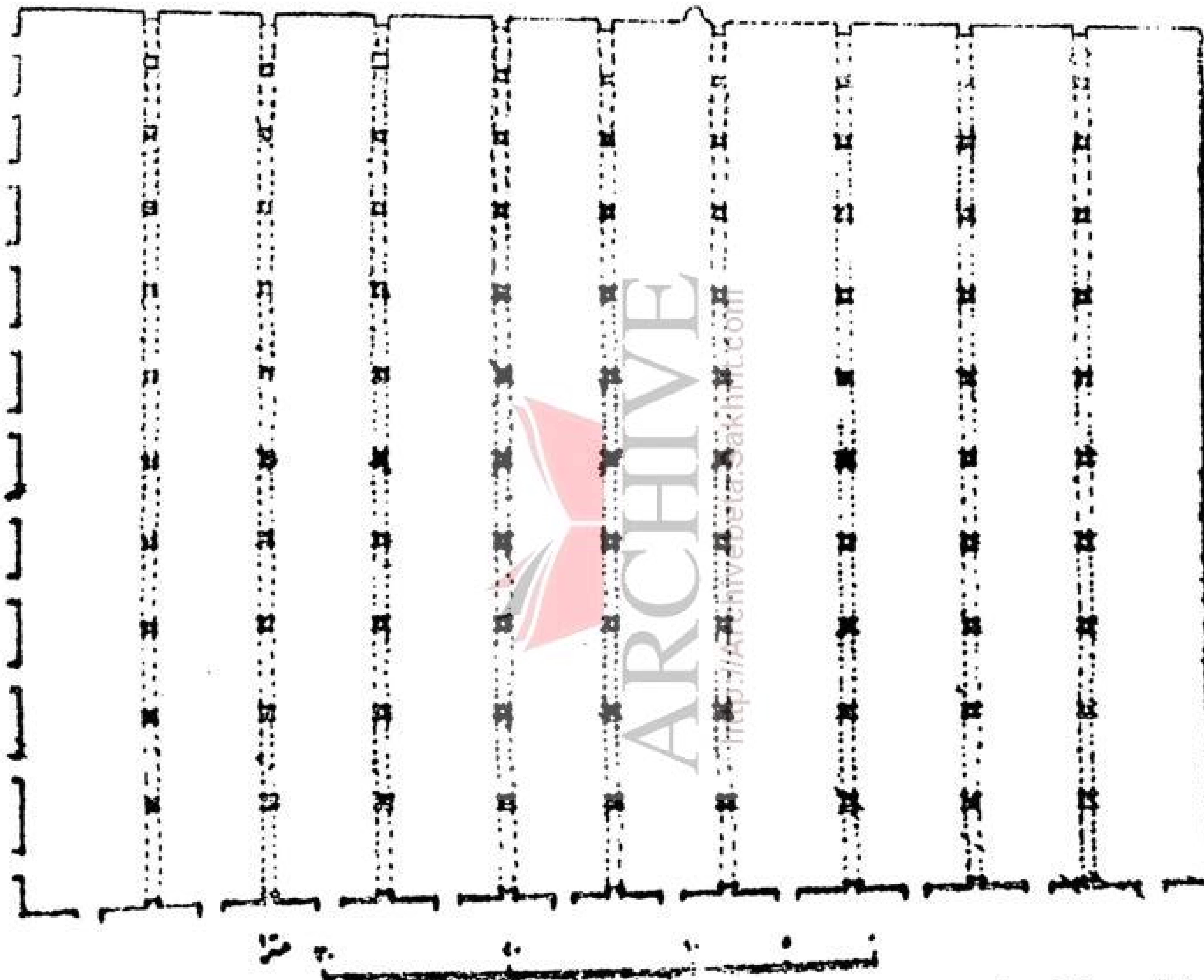
(٦) المرجع نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٧) المرجع نفسه ، ص ٢٢٢ ، ش ٩١ .

(٨) المرجع نفسه ، ص ٢٢٤ ، ٢٩٨ ، ش ٩٢ .

(٩) المرجع نفسه ص ،ن ٢٢٥ ، ٢٩٨ ، ش ٩٣ .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ٢٩٨ ، حاشية ٤ .



رسم (٤١) تخطيط المسجد الاقصى في عهد الوليد بن عبد الملك، نقلا عن : (د. احمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، ش ١٨)

وتتميز بلاطات المسجد الأقصى منذ أقدم عصوره بصورة عمودية على جدار القبلة وليست موازية له (١) (الرسم السابق) ، وربما أثرت بلورها في مسجد قرطبة (١٧٠هـ /٧٨٦م) (٢) . ومسجد القيروان عند اعادة بنائه عام (٢٢١هـ /٨٣٦م) ، وجامع أبي دلف (٣) ومسجد الزيتونة بتونس (٢٥٠هـ /٨٦٤م) (٤) التي امتازت بلاطاتها بنفس الميزة .

وبهذا يكون المسجد الأقصى قد خالف من هذه الناحية أغلب مساجد العصر الأموي ، وغالبية المساجد اللاحقة التي كانت بلاطاتها موازية لجدار القبلة ، وليست عمودية عليه كما هو الحال في المسجد الجامع بواسط (٥) والمسجد الأموي بدمشق (٦) ، ومسجد بصرى (٧) والمسجد العلوي في اسكاف بني جنيد (٨) والمسجد الجامع بحران (٩).

ومع هذا فتوجد بعض الأمثلة لمساجد تقع بعض بلاطاتها عمودية بجدار القبلة كالمسجد الجامع بمدينة سوسة (٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) (١٠) والمسجد الجامع بقرطبة (١١) ومسجد أبي دلف (١٢) والمسجد الكبير في سامراء (١٣).

(١) رجب : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .
(٢) شافعي : العمارة العربية في مصر الاسلامية ، م ١ ، ص ٢٤٣ ، ش ٧ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٤٥ ، ش ٦ .
(٤) فكري : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ، ش ١٠٦ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ٢١٥ ، ش ٨٩ .
(٦) المرجع نفسه ، ص ٢١٩ ، شافعي المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ، ش ١٦٥ .
(٧) فكري : المرجع السابق ، ص ٢٢١ ، ش ٩١ .
(٨) فكري : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ ، ش ٩٢ .
(٩) المرجع نفسه ، ص ٢٢٦ ، ش ٩٣ .
(١٠) شافعي : المرجع السابق ، ص٢٤٥ ، ش ١٦٨
(١١) فكري : المرجع السابق ص ٢٤٤
(١٢) المرجع نفسه ، ص ٢٤٠
(١٣) المرجع نفسه ، ص ٢٣٨

ولم يكن للمسجد الأقصى بلاطة وسطى واسعة في العصر الأموي وانما كانت مساوية ومشابهة لبقية البلاطات ، وذلك لخلو المسجد من القبة (١) في حينها (الرسم السابق) .

وهذه الميزة على الرغم من ندرتها في المساجد اللاحقة التي كانت تمتاز بصورة عامة باتساع البلاطة الوسطى عند بقية البلاطات ، إلا أنها وجدت بعض أمثلتها فيما بعد في مسجد القيروان من عهد تجديد هشام بن عبد الملك(٢) والمسجد الأول في الرقة (٣).

وعدم وجود القبة في المسجد الأقصى ، ربما يرجع إلى الرغبة في ابراز قبة الصخرة القريبة منه ، كما أنّ المحراب لم تكن له تلك الأهمية المعمارية في القرن الأول الهجري ، وبالتالي فلم تكن هناك حاجة قائمة إلى توسيع البلاطة الوسطى لتقوم عليها القبة التي وجدت لتأكيد أهمية المحراب بعد ذلك، كما هو الحال في أغلب المساجد اللاحقة كالمسجد الأموي بدمشق ، والمسجد الجامع بسوسة ، ومسجد القيروان لدى تجديده سنة (٢٤٨هـ/ ٨٦٢م)، والمسجد الكبير بتونس (٢٤٩هـ /٨٦٣م)، ومسجد قرطبة (٣٦٤هـ /٩٧٤م) (٤) .

وفي العهد العباسي استحدث الخليفة المهدي سنة (١٦٣هـ /٧٨٠م) توسيعاً في البلاطة الوسطى بالمسجد الأقصى بعد الاستغناء عن صف من الدعامات الذي كان يتوسط بيت الصلاة (٥) ، وغطاها بسقف جملوني ضخم يعلوه منور لادخال الضوء ، وقبة خشبية مزدوجة مغلفة بصفائح الرصاص من الخارج ومزينة بالجبس من الداخل (٦) تتميز حلقتها السفلى بانحنائها نحو

---

(١) فكرى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ؛ رجب : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .
(٢) فكرى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، ش ٨٦
(٣) شافعي : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .
(٤) لمعي مصطفى : القباب ، ص ٧ .
(٥) فكرى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ؛ رجب المرجع السابق ، ص ١٣٩ .
(٦) المرجع نفسه ، ص ١٤١ ، ١٤٤

الخارج بمقدار (٧٥ سم) وقد حوفظ على هذا الشكل بواسطة سلسلة من المساند أو الكوابيل البارزة (١) .

ومما لاشك فيه ان مزايا السقف الخشبي للمسجد وقبته ، من حيث مادتها الخشبية وخاصيتها المزدوجة ، وتصفيحها بالرصاص من الخارج ، وتزيينها بالجبس من الداخل، وانحناء حلقتها السفلى نحو الخارج متأثرة بنفس المزايا التي سبق أن تمثلت في قبة الصخرة .

والجدير بالذكر أن الخليفة الظاهر الفاطمي أحدث ترميما بالمسجد سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م) بعد الزلازل العنيفة التى ضربت بلاد الشام ، ولا سيما في سنتى (٤٠٦هـ/١٠١٥م) و(٤٢٥هـ / ١٠٣٣م) وهدمت معظم أجزائه ويظهر أنه سار على نفس تخطيط مسجد المهدي باستثناء بعض التغييرات ولا سيما في بلاطاته (٢) .

ويعد السقف الجملوني في المسجد قليل الشيوع في العمائر العربية الاسلامية في المشرق العربي واقتصرت أمثلته على بلاد الشام تقريبا دون غيرها ، وظهرت أولى أمثلته في العصر الاسلامي في المسجد الأموي بدمشق (٣) ولكنها شاعت بعد ذلك في المغرب العربي والاندلس بكثرة .

وعلى الرغم من شيوع السقف الجملوني في الطرز الغربية القديمة كالاغريقية (٤) واليونانية والرومانية (٥) ، الا ان الجذور التأريخية ترجع اصله الى العراق منذ أوائل العصر الحجري المعدني ، فقد كشفت التنقيبات في موقع تل حسونة عن اسس منازل طينية تمكن (لويد) أن يستعيد هيئتها الاصلية متخيلا لها سطحا مسنما أى جملونيا (٦) .

---

(١) Creswll, Ashort Account of Early Muslim Architecture P.205

(٢) رجب : المرجع السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٣) سامح : المرجع السابق ، ص ٢١ ، ش ١٢ .

(٤) Fletcher, Ahistory of Architecture on the Comparative Method, P.141 G.

(٥) Ibid. P. 195H.

(٦) فواد سفر : حفريات حسونة، مجلة سومر، سنة ١٩٤٥ م ، ج ١ ، ٢ ص ٣٤ ، ٣٥ ، ش ٤ أ.

وتعد الكوابيل المزخرفة التي ترتكز عليها عضادات السقف الجملوني في المسجد الأقصى (١) من أولى الأمثلة لهذا اللون من الكوابيل ، سواء في الطرز المعماري الاسلامي أم الطـــراز السابقة له . لأن الكوابيل على الرغم من وجودها في الطرز القديمة كالطراز البيزنطي (٢) (رسم ٤٢) ، الا انها كانت بسيطة ، وخالية من الزخرفة . أما في العصر الاسلامي ، فقد وجد مثال لها في جامع عمرو بن العاص بالقاهرة على هيئة عنصر ومحي تعلوه ورقة نخيلية مفصصة (٣) (رسم ٤٣) . ثم طالعتنا امثلة أخرى في الأندلس بعضها تميز بواجهاته المقعرة التى توازيها على السطح زخارف نباتية حلزونية الفصوص ، والبعض الآخر مزين بصفين متناظرين من الفصوص المتتابعة(٤) (رسم٤٤) . ثم بلغت الكوابيل أقصى درجات تعقيدها الفنى بالموصل نتيجة كثرة التقعرات والمنحنيات ، والزوايا الحادة والقائمة ، وزخارف الأرابسك العربية التي زينت سطوحها في القرنين (٦،٨٧/١٢،١٣م) (٥) (رسم٤٥) وبهذا يكون فنان المسجد الأقصى اول من استخدم الكوابيل في الأغراض المعمارية والجمالية في آن واحد .

وتتميز أعمدة المسجد الأقصى بقصرها ، وسمك قطرها ، لكي تكون قادرة على حمل صف اضافي من الأعمدة تساعد على ارتكاز السقف الخشبي عليها (٦) .

---

(١) Creswell, Op. Cit., P. 205-206

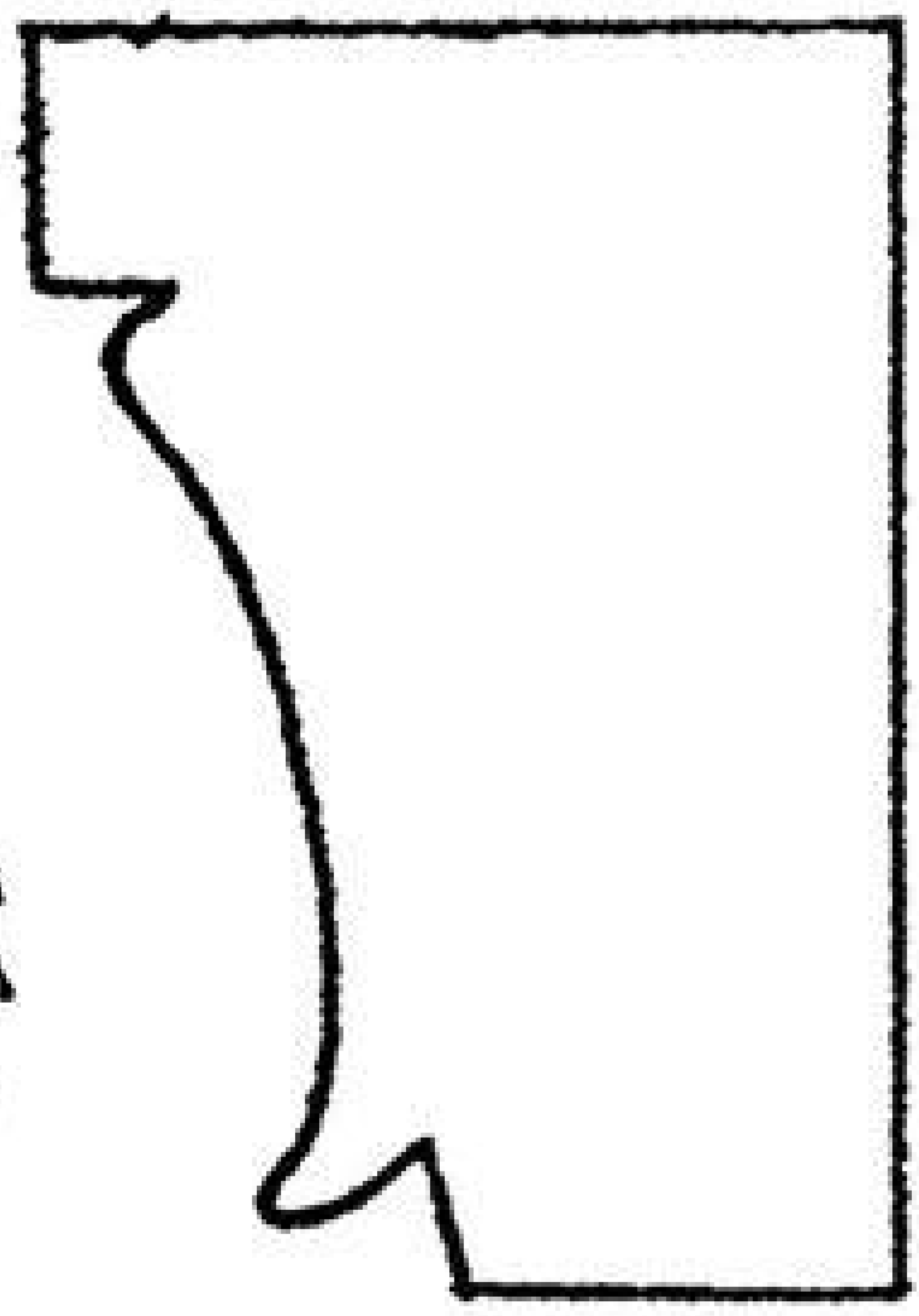
(٢) الجمعة : الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الأتابكي والايلخاني ، ص ٨٢

(٣) مانويل جوميت :الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور محمد عبدالعزيز سالم ومراجعة الدكتور جمالمحمد محرز ، مصر ١٩٦٨ م ،ص ٣٤٢، ش ٢٤٠ .

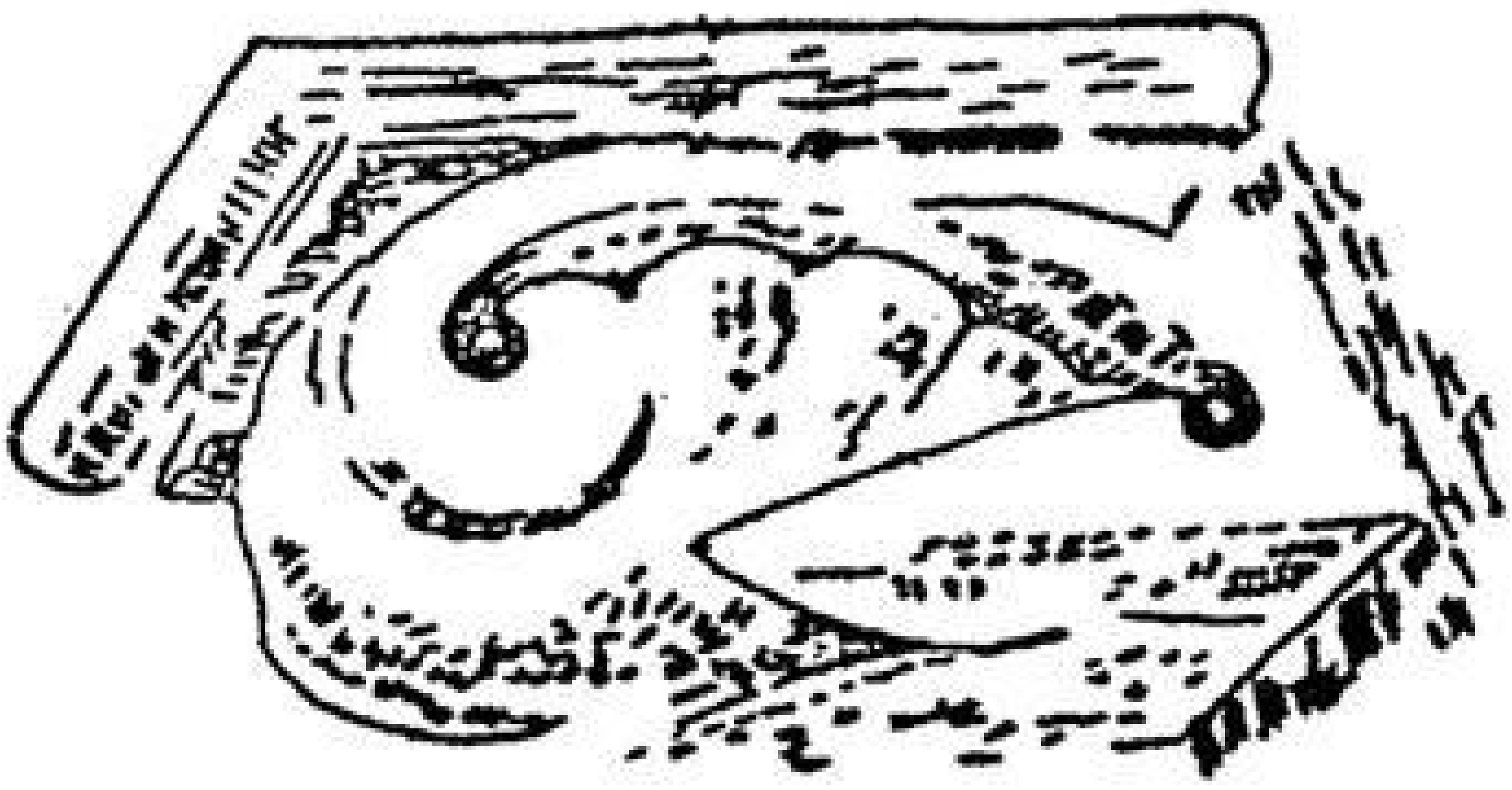
(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٦٠ ، ش ٢٧٦.

(٥) الجمعة : المرجع السابق : ص ٨٣، رسم ٢٧٩ ٢٨٧.

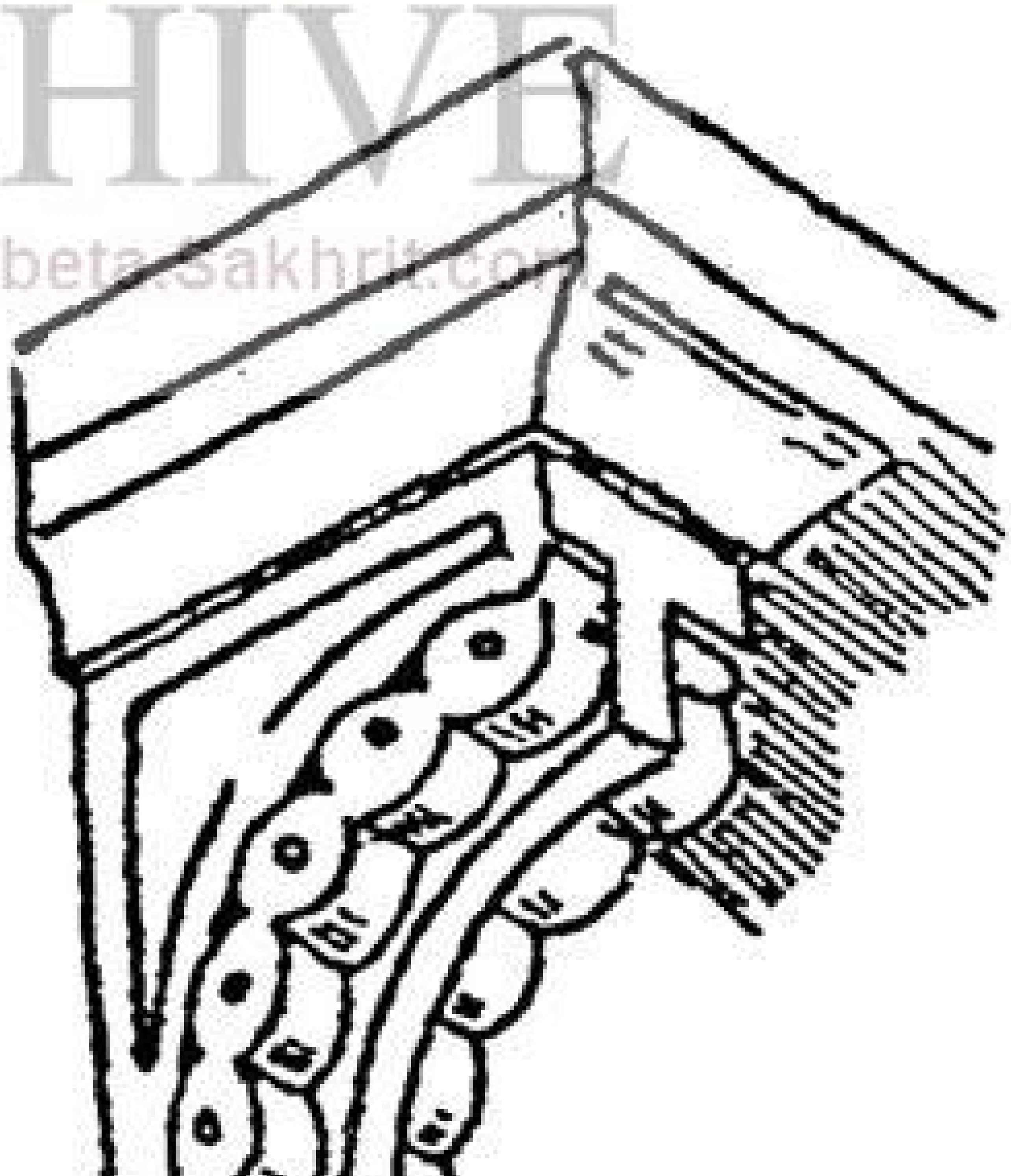
(٦) رجب : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .



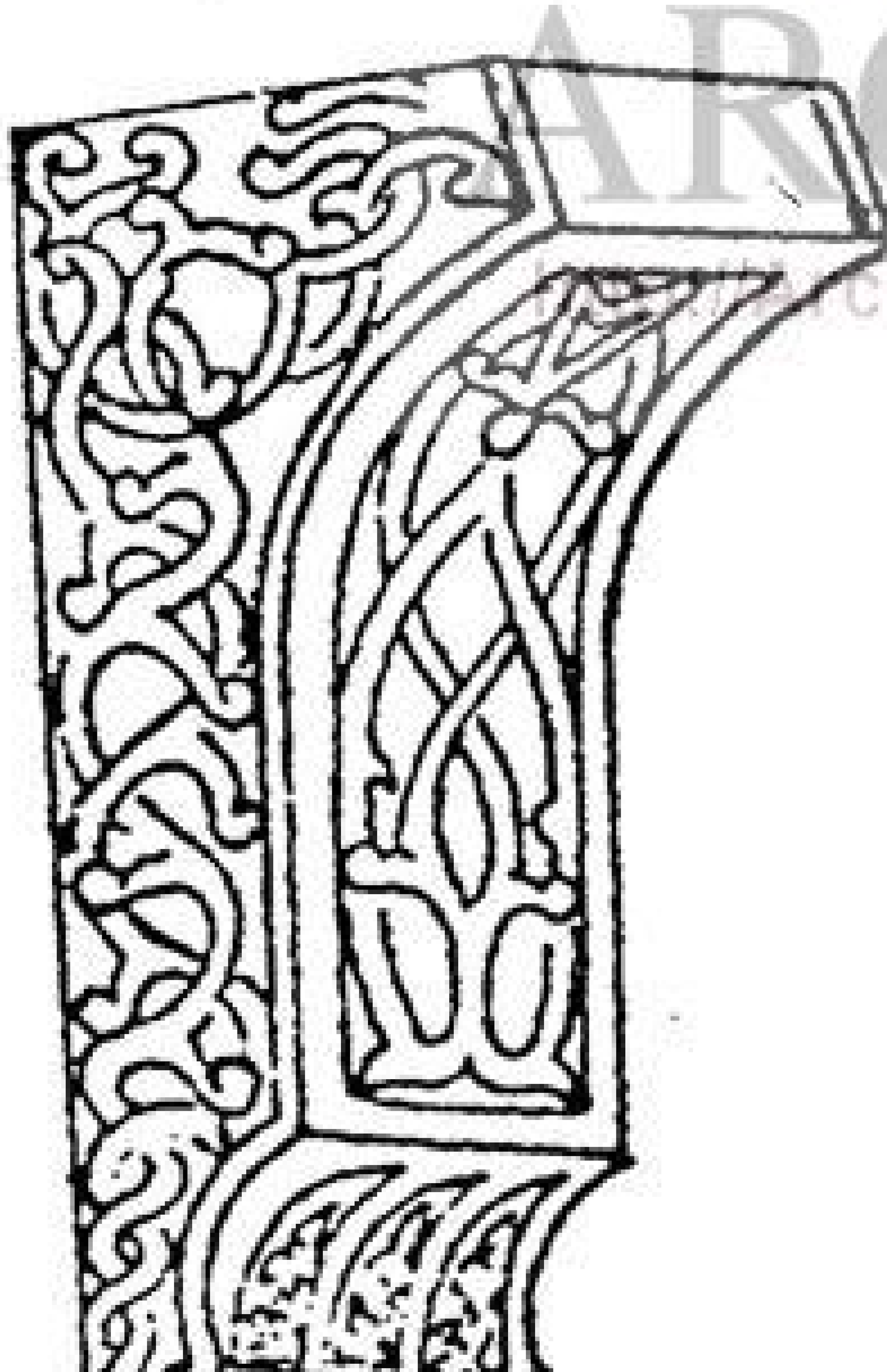
رسم (٤٢) كابول بيزنطي (عن بيتلر)



رسم (٤٣) كابول من جامع عمروبن العاص بمصر (جوميث الفن الاسلامي)



رسم (٤٤) كابول من اسبانيا
(المرجع نفسه، ش ٢٤٠)



رسم (٤٥) كابول من الموصل
(د. الجمعة: الآثار الرخامية، ش ٢٨٦، ٢٨٧)

ومن المميزات المبرزة الاخرى في المسجد الأقصى التي تأثرت بمثيلاتها في قبة الصخرة هي :

تعدد مداخله ،وتصفيح أبوابه بالذهب والفضة ، واستخدام الفسيفساء التزيينية فيه (١) ، ووجود العوارض ذات الكسوات المزخرفة التي تحمل سقف البلاطة الوسطى (٢) :

وتعد العناصر الزخرفية المتمثلة في كسوات العوارض الخشبية الحاملة لسقف البلاطة المذكورة ، والمنسوبة الى العهد العباسي من أعمال المهدي (١٦٣هـ/ ٧٨٠م) (٣) ذات أهمية كبيرة في تطور الزخرفة العربية الاسلامية شأنها في ذلك شأن العناصر والمميزات الزخرفية التي وجدت في قبة الصخرة .

ومن أهم تلك العناصر : العناصر المعمارية ، وعناصر الكؤوس المركبة، وثمار الرمان المركبة ، وأوراق العنب المركبة والمحورة ، والوريدات المفصصة ، والحبيبات المجمعة ، والمزهريات التي تحمل عناصر نباتية .

أما العناصر المعمارية فتمثلها بعض الحنيات المسطحة التي يتوجها عقد يحمله عمودان (٤) وتتجلى أهمية هذه الحنيات في استخدام العناصر المعمارية للأغراض الزخرفية .

والملاحظ على بعض أعمدة الحنيات تكونها من حلزونات مائلة ومتقاطعة بصورة عكسية بالتناوب (٥) . كما أنّ البعض الآخر كان نصفه السفلي على هيئة جذع نخلة ، في حين كان نصفه العلوي على هيئة عمود حلزوني (٦) .

---

(١) المقدسي : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .
(٢) شافعي : الاخشاب المزخرفة في الطراز الأموي ، ص ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) الدكتور زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٦ م ش ٣١٠ ، ٣١١ .
(٤) المرجع والشكل نفسه ؛
Marcais (G.), L'Art De L'Islam, Paris 1946, Fig.V.
(٥) زكي حسن : المرجع السابق ، ش ٣١١ .
(٦) المرجع نفسه ، ش ٣٠٧ .

وبهذا يكون فنان المسجد الاقصى قد جمع بين العناصر المعمارية ، والنباتية والطبيعية في آن واحد من ناحية ، وحور في شكل الأعمدة الحلزونية التي وجدت في الفنون القديمة ولا سيما البيزنطي (١) منها من ناحية أخرى .

وتحمل أعمدة هذه الحنيات تيجاناً بصلية يتكون كل منها من تقابل نصف ورقة أكانتاس (٢) (رسم ٤٦)، وهو تطور مبسط للتاج الكورنثي ويعد مرحلة تمهيدية للتيجان الكأسية الاسلامية التي انتشرت في المشرق العربي، ومثالها تاج عمود من خربة المفجر (٣) (رسم ٤٧) ثم وجدت بعد ذلك أمثلتها الصريحة في سامراء ، كما في قصر الجوسق الخاقاني (٤) (رمسم ٤٨). وعلى الرغم من ندرة هذه التيجان في المغرب العربي الا أنه وجدت بعض أمثلتها في أعمدة طاقات جامع القيروان (٥) (رسم ٤٩).

وعنصر الرمان هو الآخر وجد في الفنون التي سبقت الاسلام (٦). الا أنّ التحوير هنا أصاب هيئته الطبيعية ، وأصبح ضمن العناصر المركبة بفعل تداخل الأوراق معه (٧) (رسم ٥٠) وقد ظهرت أمثلة للعنصر المذكور متداخلة مع الأوراق النباتية في زخارف قبة الصخرة (ر سم ١٦).

أما أوراق العنب ، وعناصر الحبيبات المجمعة ، والكؤوس المركبة والمزهريات ، والوريدات المفصصة فقد تمثلت قبل ذلك في زخارف قبة الصخرة ، ونوهنا عن أصولها ، الاّ أنّ بعض هذه العناصر في زخارف

---

(١) Lechler, The Tree of Life, Fig. 27c

(٢) شافعي : المرجع السابق ، ص ٨١ ، ش ٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، ش ٣٢ .

(٤) الدكتور أحمد قاسم الجمعة : أهم التأثيرات المعمارية و الفنية المتبادله بين العراق والمغرب العربي في العصر الاسلامي ، ص ٢١٤ - ٢١٦ ، رسم ١٩) .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢١٧ ، رسم ٢١ .

(٦) شافعي : المرجع السابق ، ص٧٧

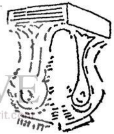
(٧) المرجع نفسه ، ص ٨٣ ، ش ٢٢ - ٢٤.



رسم (٤٦) تاج بصلي من المسجد الأقصى
(د. شافعي: الاعشاب المزخرفة، ش ٩)



رسم (٤٧) تاج كأسي من خربة المفجر
(المرجع نفسه، ش ٢٢)



رسم (٤٨) تاج كأسي من الجوسق الخاقاني
(د. الجمعة: المرجع السابق)



رسم (٤٩) تاج كأسي من جامع القيروان
(المرجع نفسه: رسم ٣٣٩)



رسم (٥٠) ثمر رمان من المسجد الاقصى

المسجد الأقصى كانت أكثر تطوراً وتحويراً ، ويتجلى ذلك في ظاهرة العيون الواضحة بين أنصال ورقة العنب ، وقلة تسننات المحيط الخارجي لتلك الأنصال ، واقتضاب العروق داخلها (١) (رسم ١٢) كما تخلل بعضها الوريدات ، وثمار الرمان (٢) (رسم ١٣) فأدخلها ضمن العناصر المركبة ، وامتد التطور أيضاً إلى عناصر الحبيبات المجمعة عندما استحدثت الثقوب داخل الحبيبات (٣) (رسم ٢٩) ، في حين انعدمت حبيبات العناصر المماثلة في زخارف قبة الصخرة (رسم ٢٨) .

وهكذا اتضح لنا مما تقدم بأن مبنى قبة الصخرة ، والمسجد الأقصى يمثلان من حيث التصميم والعناصر المعمارية والفنية نمطاً جديداً في العمارة العربية الاسلامية ، استمد أصوله من الأذواق العربية ، ومن بعض الطرز السابقة للاسلام ، الا أن المعمار والفنان لم يقف عند حد الاقتباس ، بل جاوزه إلى مرحلة التحوير والتطوير والابتكار معتمداً على ذوقه ، وخياله الخصب ، آخذاً بنظر الاعتبار النواحي : الدينية والمناخية والهندسية والجمالية . وكان محصلة ذلك ظهور بوادر طراز جديد هو الطراز العربي الاسلامي الذي اتضحت شخصيته المستقلة المميزة عن جميع الطرز السابقة والمعاصرة واللاحقة قبل انقضاء القرن الأول الهجري / السابع الميلادي.

• • • • • • • • • • •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٣ ، ش ١٩ — ٢١

(٢) زكي حسن : المرجع السابق ، ش ٣١١ .

(٣) شافعي : المرجع السابق ، ص ٨٢، ش ١٦ ، ١٧ .

مصادر ومراجع البحث

المصادر والمراجع العربية

ابراهيم جمعة (دكتور):
تطور الكتابات الكوفية على الاحجار في مصر في القرون الخمسة الاولى للهجرة. القاهرة ١٩٦٩م.

احمد فكري (دكتور):
بدعة المحاريب، مجلة الكاتب المصري، المجلد ٤، العدد ١٤، نوفمبر ١٩٤٦م.

ـــــ مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، القاهرة ١٩٦١م

ـــــ مسجد القيروان، مصر ١١٥٥هـ / ١٩٣٦م.

احمد قاسم الجمعة (دكتور):
الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلخاني، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى جامعة القاهرة ١٩٧٥م

ـــــ اهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الاسلامي. ص ٢١٤–٢١٦، رسم ١٩.

ـــــ محاريب مساجد الموصل الى نهاية حكم الاتابكة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى جامعة القاهرة ١٩٧١م.

ابن الاثير: عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت٦٣٠هـ):
تاريخ الكامل (١٢ جزءاً)، القاهرة ١٢٩٠هـ.

الازدي (ابو زكريا يزيد بن محمد):
تاريخ الموصل، الجزء ٢، تحقيق الدكتور علي حبيبة، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

ابن الطقطقي:
الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة

توفيق احمد عبد الجواد
تاريخ العمارة والفنون الاسلامية، القاهرة ١٩٧٠م.

حسن الباشا (دكتور):
التصوير الاسلامي في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩م .
——— تاريخ الفن في العراق القديم، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٥٦
الدومنكي
بلدانية فلسطين العربية، بيروت ١٩٤٨م.
زكي محمد حسن (دكتور):
اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية، القاهرة ١٩٥٦
صالح لمعي مصطفى (دكتور) :
التراث المعماري في مصر ، بيروت ١٩٧٥م .
——— القباب (أشكالها ، مصادرها. تطورها) ، بيروت ١٩٧٧م.
طاهر مظفر العميد (دكتور):
العمارة العباسية في سامراء في عهد المعتصم والمتوكل ، بغداد ١٣٩٦م/ ١٩٧٦م.
الطبري : أبو جعفر بن جرير (ت٣١٠م):
تاريخ الرسل والملوك ، ليدن .
حطا الحديثي وهناء عبد الخالق :
القباب المخروطية في العراق ، بغداد ١٩٧٤م .
عفيف بهنسي (دكتور):
تكوين الفن العربي الاسلامي في ديار الشام ، الحوليات السورية ، المجلد ٢٢ ، سنة ١٩٧٢م.
عبد الهادي الريحاوي :
فسيفساء الجامع الاموي ، الحوليات السورية ، المجلد ١٠، سنة ١٩٧٩م.

غازي رجب (دكتور):
المسجد الأقصى ، مجلة سومر ، المجلد ٢٨ ، سنة ١٩٧٢م .

فريد شافعي (دكتور) :
العمارة العربية في مصر الاسلامية ، المجلد ١، القاهرة ١٩٧٠م.
——— الأخشاب المزخرفة في الطراز الاموي ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٤ ، الجزء ٢ ، سنة ١٩٥٢م .
——— مميزات الاخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٦، الجزء ١، سنة ١٩٥٤م.

فؤاد سفر :
حفريات حسونة ، مجلة سومر ، الجزء ٢ ، سنة ١٩٤٥م.

كمال الدين سامح (دكتور):
العمارة العربية في مصر ، القاهرة .
العمارة في صدر الاسلام ، القاهرة ١٩٦٤م.

محمد ضياء الدين الريس (دكتور) :
عبدالملك بن مروان والدولة الاموية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩م.

محمد وهبة :
الزخرفة التاريخية ، القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

محمود العابدي :
الآثار الاسلامية في فلسطين والاردن ، عمان ١٩٧٣م

المقدسي (شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر، المعروف بالبشاري والمشهور بالمقدسي (ت٣٧٥هـ) :
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٩م .

نعمت اسماعيل علام :

فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية ، مصر ١٩٧٤

المراجع الاجنبية المترجمة

فلهاوزن :

تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية حكم الاتابكة ، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ابو ريدة ومراجعة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٨ م .

كريستي وزملاؤه :

تراث الاسلام ،ترجمة الدكتور زكي محمد حسن ، الجزء القاهرة ١٩٣٦ م .

مانويل جوميث :

الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبدالبديع والدكتور محمد عبد العزيز سالم ومراجعة الدكتور جمال محمد محرز، مصر ١٩٦٨ م .

المراجع الاجنبية غير المترجمة

Creswell (K.A.C.), Eauly Muslim Archite cture, 2nd. Ed. /ol.l, Part l, Oxford 1969.

——— Ashort Account of Early Muslim Architecture, Ist. Pub. Pelicam Bootr 1958

Dimand (M.), Studies in Islamic Ornament, Ars Islamica, Vol. Iv, NewYork 1968.

Fletcher (B.), Ahirtary of Architecture on the Comparative Meth,od 7th. Ed. London 1961

Harding (G.L.), The Antiguities of Jordon, New Ed. London 1979.

Herzfeld (E.), Die Ausgrabun gen Von Samarra, Band I, Berlin 1923

Iechler (G.), The Tree of Life in Inda-Europeam and Islamic Cultures, Ars Islamica, Vol. Iv, New York 1968

Marcais (G.), l'Ant De l'Islam, Paris 1946

Moortgal (A.), The Art of Anciert Mesopotamia, The Classica ical Art of Near East, Ist-pub. London 1969.

Pagliero (R.),Conservation of two Islamic Monuments in Morul, Sumer a Jowral of Arehaecdogy and History in Iraq, Vol. xxI, 1965, Baghdad 1965

Pann of (A.), Ninavah and Babylon, Framce 1961

Rice (D.I.), Islamic Art, London 1965

النخلة

في حضارة وادي الرافدين

عبد المالك يونس عبد الرحمن

مدرس مساعد

قسم التاريخ – كلية الاداب – جامعة الموصل

المقدمة

يعد العراق في طليعة الاقطار المالكة للنخيل في العالم،كما كان ولا يزال من المناطق المشهورة بجودة تمورها وكثرتها في مختلف مراحل التاريخ .وقد عرف الانسان هذه الشجرة منذ اقدم عهود الاستيطان في جنوب العراق فأولاها عنايته واهتمامه وتوارث الابناء عن الآباء الخبرات في هذا المجال، كما دونت فيما بعد وبالخط المسماري بعض التعليمات التي تبين ما يجب اتباعه للأبقاء على هذه الشجرة وتحقيق اكبر فائدة منها ، وعندما صدرت الشرائع في العراق القديم كانت بعض احكامها خاصة بهذه الشجرة لاجل الابقاء عليها وتنظيم انتفاع الناس منها .

لقد قدس سكان وادي الرافدين النخلة وتبركوا باتخاذ قرارات الفصل في احوالهم الاجتماعية تحتها ، واعتقدوا ان زمن وجودها قديم جداً يرقى إلى عهد اول ملك اختارته الآلهة ليحكم في الارض حيث قام بزراعتها في قصره وعند بوابة المدينة .

وكان من مظاهر تقديسهم للنخلة اقامة احتفالات لها خلال السنة كان من بعض مظاهرها تزيين النخلة وتطويقها باشرطة معدنية .

لقد اعتبر سكان وادي الرافدين السعفة رمز للخير والبركة والفرح والترحيب والانتصار ورمزاً للخصوبة لذلك رفعوها بايديهم في المناسبات واستمروا

يزينون جدران معابدهم بصورة النخلة والسعفة، حتى اذا كان العهد الاشوري الحديث أسرف الفنان في رسم او نقش النخلة والسعفة على جدران القصور الملكية في العواصم الاشورية، ولعل ذلك يرجع إلى ادراك الاشوريين لاهمية التمر كمادة غذائية اساسية للجيوش والاسرى.

ان تتبع رمز النخلة في مختلف المراحل الحضارية القديمة اظهر مدى انتشار مؤثرات وادي الرافدين الحضارية الى مناطق مجاورة وعديدة من العالم القديم، فمثلا كان اتخاذ قرار الحكم في مشكلة ماتحت النخلة تقليدا في حضارة وادي الرافدين اخذت به (ديبورا) وكان تزيين النخلة بالاشرطة المعدنية في الاحتفالات قد استمر كتقليد في المراحل الحضارية اللاحقة ووجد مايماثله في شبه الجزيرة العربية في منطقة نجران خلال العصر السابق للاسلام ورفع السعفة باليد تقليد تعارفت عليه شعوب العالم القديم متأثرة بحضارة وادي الرافدين ولازال مستمراً حتى يومنا هذا حيث ترفع السعفة باليد او تثبت في مواقع بارزة في الميادين والطرق الرئيسية في المناسبات والاحتفالات.

ولعل من ابرز ماقدمته هذه الدراسة تحليل معنى العنصر الفني (علامة العريف = الشفرون chevron) او العلامة الشارية والتوصل ولاول مرة الى تشخيصه كرمز يدل على فصوص قرون الحيوانات، كان معناه فنيا وكتابياً: (الحيوية) و(التكاثر) و(النمو) و(الخصوبة) وهو بذلك يماثل العنصر الفني الذي استخدم ايضاً كعلامة كتابية (عنخ) في حضارة وادي النيل والذي كان معناه (الحياة).

لقد عرفت النخلة في وادى الرافدين بانها رمز للخير والبركة والطمأنينة والثراء والانتصار على كامل ماينغص الحياة اليومية للانسان، وقد صاحب هذاالمعنى رمز النخلة اينما حل في العالم القديم، ولازال هذا المعنى مقرونا بها في الوقت الحاضر.

النخل

ينسب النخل الى مرتبة الفصيلة المسماة Palmace من العائلة palmaceae من الجنس المعروف بـ فوينكس phoenix من نوع داكتيليفرا Dactylifera واسمه العلمي phoenix dacty lifera (١) .

ويوغل عمر نخل التمر في القدم (٢) حيث كشف علم الجيولوجيا عن نماذج متحجره التمر في ترسبات العصر الثالث+شرق ولاية تكساس الأمريكية ، كما كشف في اوربا عن متحجرات لأنواع مختلفة مما يشبه النخل يرجع تاريخها الى أوائل واواسط عهدا (ايوسين) ++ Eocene والعهد التالي له (اوليكوسين) +++ Oligacene .ومن الصعب تحديدنوع النخل الذي تنتسب اليه هذه المتحجرات (٣) . كما ليس بالامكان البت بان القارتين – امريكا واوربا – كانتا موطنا للنخل لعدم توفر دراسة مماثلة عنه في آسيا (٤) ويرى بعض الباحثين أن ضفاف الخليج العربي (٥) او منطقة شبه الجزيرة العربية (٦) كانت الموطن الأول لنخيل التمر ، وحسب رأي آخر أن الشواطئ الشرقية للمحيط الهندي تعتبر الموطن الأول لنخيل التمر ثم انتشر من هناك غربا باتجاه الخليج العربي ووادي النيل والبحر المتوسط (٧).

ويذكر العالم النباتي (دي كاندول) ان نخل التمر نشأ منذ عصور ماقبل التاريخ في المنطقة شبه الحارة الجافة التي تمتد من السنغال الى حوض الأندلس(٨) ولم تعرف المناطق الواقعة شرق الهند نخل التمر ، اما الصينيون فقد استحصلوه من بلاد فارس في القرن الثالث او الرابع ق.م (٩) ويمثل موقع (موهنجو دارو)++++أقصى منطقة في العالم القديم شرق وادي الرافدين عثر فيها على نوى التمر (١٠).

+ ويقدر زمن بدايته بـ ٦٣ مليون سنة

++ ويقدر الزمن الذي استغرقه من ٥٥ – ٤٠ مليون سنة وهو القسم الثاني من العصر الثالث.

+++ويقدر الزمن الذي استغرقه من ٤٠ –٢٥ مليون سنة وهو القسم الثالث من العصر الثالث.

++++احدى مدن حضارة وادي السند .

وعرفت النخلة لدى (الفراتيين الأوائل) + باسم (نمبار) (١١) NIMBAR وعند السومريين والبابليين والآشوريين باسم (كشمّار) (١٢) GLSHIMMAR . وفي اللغة الآرامية (دقلا) (Diqla) وفي العبرانية (تامار) Tamar وفي الحبشية (تمرة) Tamrt (١٣) وفي الكتابة الهيرو غليفية (بنر) BNR و (بنرت) BNRT (١٤) . وسميت نخلة التمر عند الأغريق (فوينكس داكتليفرا) Phoenix Dacty Lifera والكلمة (فوينكس) قد تكون نسبة إلى الفينيقيين وإلى السا-ل الفينيقي في شرق البحر المتوسط (١٥) أو نسبة إلى طير خرافي في مصر القديمة عرف باسم (بينو) Bennu قدمه المصريون باعتباره رمزاً للشمس المشرقة كما كان علماً للنخلة (١٦)، اما (داكتيليفيرا) فقد اشتقت من الكلمة (داكتيليس) التي بدورها من مشتقات الكلمة (دقـل) Dachel العبرية الأصل والتي تعني الأصابع (١٧) .

وفي اللغة العربية، النخل شجر التمر، واحدته نخلة وسميت ايضا بـ (اللينة) (١٨) نسبة إلى قلب النخلة، وهو رأسها الذي يسمى بـ «الجمارة» وجمعها جمّار. ومن أسماء النخلة أيضاً : (الطيبة) (١٩) و (الضامنة) (٢٠) كما يقال لها (السعفة) مجازاً باسم أشهر أعضائها وأبرزها (٢١). وعرفت أيضاً باسم (بعل)، ويقصد بـ «البعل» من النخل ما شرب بعروقه من غير سقي ولا ماء سماء وقيل ما اكتفى بماء السماء» (٢٢). وحسب رأي آخر، البعل : الذكر من النخل (٢٣) . كذلك أطلق الأسم (بعل) على اله رئيس عند الأقوام العربية القديمة (٢٤) و يبدو أيضاً ان بعض سكان فلسطين القدماء كانوا يعبدون صنماً على شكل نخلة دعوه (بعل تامار) Baal -Tamar أي : سيد (=بعل) النخلة ، وقد ذكر هذا الأسم فيما بعد في سفر القضاة (٢٠ : ٣٣) اشارة إلى مكان معين (٢٥) .

+ الفراتيون الأوائل ، قوم مجهولون ليسوا من السومريين ولا الساميين ، يرجح انهم سبقوا هذين القومين . في الأستيطان . في السهل الرسوبي .

ومن الادلة الاثارية التي توضح قدم معرفة الانسان للنخلة في وادى الرافدين كسرة فخارية يعود زمنها لعهد حسونة+رسم عليها الجزء الأعلى من تاج النخلة، وتتوالى الأدلة الاثارية من الادوار الحضارية المتعاقبة التي تشير الى استمرار اهتمام الأنسان بهذه الشجرة (٢٦) ومنها ظهور صورة النخلة كاحدى العلامات الصورية الأولى في عصر فجر الكتابة (٢٧) واعتقد سكان وادى الرافدين بقدم وجود النخلة ايضا ففي المحاورة بين النخلة والأثل : نجد ان اول ملك اختارته الآلهة ليحكم في الارض قام بزراعة النخلة في قصره (٢٨). وجاء في التلمود ان سكان مدينة بابل اعتقدوا بأن بعضاً من نخيلهم يرقى زمنه الى عهد آدم (٢٩) الأمر الذي سمح لبعض الباحثين ان يعتبروا النخل واحدا من أقدم ماأستؤنس من النباتات في جنوب بلاد بابل (٣٠).

وكما ان للنخيل أهمية اقتصادية كبيرة في الوقت الحاضر ، فقد كانت هذه الأهمية أكبر لدى سكان وادى الرافدين القدماء حيث اعتبر التمر من ضمن المواد الغذائية المهمة التي يعتمد عليها لاسيما في اوقات الحروب او رداءة محاصيل الحبوب ، لذلك وجد في أمثالهم وحكمهم مايعبر عن الأهمية الاقتصادية للنخلة كوصفهم اياها بـ «شجرة الثراء» (٣١) ، اوقولهم: «ساقية وشجرة نخل تجلبان الخير الكثير» (٣٢) ، ونستدل على معرفتهم بقيمة التمور الغذائية من خلال ماجاء في المحاورة بين النخلة والأثل ، حيث تقول النخلة متباهية : «إن فاكهتي تجعل الطفل ينمو» (٣٣) و «تمري الوفير لايمل حلاوته اليتيم ولا الأرملة ولا الرجل البائس الفقير» (٣٤). ونصت بعض القوانين في وادي الرافدين على الاهتمام بزراعة النخل وجني التمر كما في شريعة (لبت عشتار)++المادة السابعة، وفي شريعة(حمورابي)

+ أحد أدوار العصر الحجري – المعدني القديم ، في حدود ٥٦٠٠ ق . م.

++ ملك مدينة ايسن (١٩٣٤–١٩٢٤ ق. م.) يعاصر (كونكونوم) ملك (١٩٤– مدينة (لارسا). اشتهر باصدار شريعته الخاصة التي سبقت شريعة حمورابي الشهيرة بنحو قرنين من الزمان ودونها باللغة السومرية

حيث فرضت عقوبة الغرامة ومقدارها نصف أوقية من الفضة عن كل نخلة تقطع (المادة ٥٩) ، بينما تناولت المادتان الرابعة والستون والخامسة والستون زراعة النخل وتلقيحه. (٣٥)

ومما اضفى على النخل أهمية اقتصادية متزايدة أن بعض الحرف قامت على مايؤخذ من النخلة من مواد أولية ، فمن جريدها صنعت المقاعد والسلال (٣٦) والمناضد والاواني واقداح الماء بعد طليها بالقار وبعض ابواب معبد ايساكيلا ،، (٣٧) ومن ليفها صنعت السياط والأعنه والشباك والحبال (٣٨) ومن خوصها صنع الحصير. كما صنعوا من التمر شراباً احتل موضع الجعة المصنوعة من الشعير في الألف الاول قبل الميلاد (٣٩) ، وكان لديهم شرابا آخر صنع من اعتصار النسغ من الجمار ثم يترك ليتخمر بعد ثلاثة أيام من الحصول عليه وسمي بـ (شراب الحياة) (٤٠) كذلك كان يجمع نوى التمر ثم يسحق ويعطى كملف للجمال أو يستعمل كوقود لأنه مصدر حراري جيد يتيح الفرصة لصهر المعادن (٤١) وتشكيلها حسب الحاجة وهو أمر ذو اهمية كبيرة في الحضارات القديمة. واستخدمت جذوع النخل كعوارض في تسقيف المنازل والمعابد (٤٢) وكاعمدة لرفع السقوف (٤٣) في حين استخدم السعف في اقامة الصرائف ، واستفاد الفلاح من النخيل في تظليل أشجار الفواكه (٤٤) — وهو أمر يدرك اهميته الفلاح حتى الوقت الحاضر — كما اعتبروا الحاصل الوفير الذي يجنى من النخل فأل خير بعودة الرخاء الى الناس .(٤٥).

وفي العهد الاشوري كانت الأهمية الاقتصادية المتزايدة للتمر سببا في جعل النخلة احدى الموضوعات الرئيسة التي طرقها الفنان الاشوري بكثرة ولعل في مقدمة تلك العوامل الأقتصادية استخدام التمر كمادة اساسية في اطعام جحافل الأسرى (٤٦) وتموين الجيوش الآشورية الجرارة التي خاضت العديد من المعارك الطويلة بعيدة عن قواعدها وفي مناطق متباينة المناخ الأمر الذي جعل من التمر المادة الغذائية المثالية في مثل تلك الظروف العسكرية

نظرا لسهولة نقله وخزنه على مدار السنة ولأنه مادة غذائية شبه متكاملة مستساغة لايدركها التلف بسرعة بالاضافة الى توفرها بكميات كثيرة وباسعار زهيدة.

ومن خلال هذه «النظره الستراتيجية» الى النخل وثمره لجأ الاشوريون الى اقتلاع بعض نخل الثائرين عليهم (٤٧) وطلبت الجيوش الاشورية الى بعض المغلوبين أن يدفعوا قسما من الغرامة المفروضة عليهم بالتمر (٤٨). وحافظت النخلة على اهميتها الاقتصادية الأمر الذي جعل كاتبي التلمود البابلي ـ وقد تأثروا بحضارة وادي الرافدين ـ يضمنوه نصيحة الى الأوصياء على اموال القاصرين ان يستثمروا هذه الأموال ببساتين النخيل لأن أرباحها مضمونة (٤٩) ، وتوجد في الكتاب نفسه فتوى بعدم جواز قطع نخلة تزيد غلتها على (المن) من التمر (٥٠) وعد التمر وعصارته ـ الدبس ـ من الثمار الممتازه (٥١) .

وفي قصيدة بابلية ـ من الفترة التالية لسقوط الدولة الكلدانية ـ عددت خمس وسبعون وثلاثمائه فائدة للنخلة (٥٢) وفي اغنية من (تلمر) تذكر ثمانمائه فائدة لنخلها ، وقد أوجز (سترابو) اهمية النخل الاقتصادية بقوله «كل مايحتاجونه يأخذونه من النخلة عدا الحبوب »(٥٢).

وفي العهد الجاهلي عبد بعض العرب نخلة في (نجرآن) ، ويعلل (ابن الكلبي) سبب عبادتها بضخامتها وثمرها الكثير .(٥٣) كذلك اتخذت بعض طوائف العرب من التمر معبوداً صنع على شكل صنم ، ثم مالبثت أحدى هذه الطوائف ـ كما بين الشاعر ـ ان اكلت صنمها عندما حلت بها المجاعة (٥٤) وفي القرآن الكريم ذكر النخل ست وعشرون مرة كان منها ست عشرة مرة عن فوائده ، (٥٥) منها الآية الكريمة « النخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد » (٥٦)« ومن النخل من طلعها قنوان دانية + » (٥٧) اما اقتلاع

+ قنوان . العذق.

النخل فانه ارعاب لصاحبه (٥٨) والحاق ضرر اقتصادي به ، كما في الآية الكريمة « : ماقطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين »،(٥٩).

في الحديث النبوي الشريف اشارات عديدة الى اهمية النخل الاقتصادية كقوله (ص) خير المال سكة مابورة ،، (٦٠) وقوله (ص) : «ان قامت الساعة وفي يداحدكم فسيلة فأن استطاع ان لايقوم حتى يغرسها فليغرسها» (٦١) وقوله(ص): «بيت ليس فيه تمر جياع اهله»(٦٢)وضرب الرسول(ص) مثلا على الاهتمام بزراعة النخيل والمحافظة عليه عندما قام بنفسه بغرس فسائل أحد الصحابة في مواضعها المعدة لها (٦٣) كما حث على العناية بالنخل حيث قال (ص) : «اكرموا عماتكم النخل» (٦٤) .

وفي العصر الحديث ازدادت اهمية التمر كماده غذائية عندما كشفت التحليلات المختبرية عن ان التمر يحتوي على جميع العناصر التي يتألف منها الطعام المغذي (٦٥) ولاينقل مرض (الكوليرا) ولايفقد مزاياه اذا حفظ ونقل في سفرات طويلة (٦٦).

وهذه الخصائص الموجودة في التمر جعلت الدكتور (شارلز ل. بنيت) يقول: «....في الحقيقة لولا التمور لكتب تاريخ العالم على شكل آخر إلا إذا وجد مايقوم مقامها على الوجه الأتم لمعيشة قبائل الصحاري فإن التمر قد جعل نشاط هذه القبائل في حدود الأمكان»(٦٧) من ذلك نستنتج ان هناك مايبرر القول عن النخلة بأنها قد «نالت من الاهتمام مالم تنله شجرة أخرى في حضارة وادي الرافدين»(٦٨) .

والمعروف عن الطب في الحضارات القديمة انه نتيجة للتجربة المتوارثة التي خالطتها معتقدات خرافية متعددة ، ومع ذلك فقد ترك لنا ابناء حضارة وادي الرافدين ضمن «وصفاتهم الطبية» المدونة بالخط المسماري بعضاً من الأستطبابات القائمة على مايؤخذ من النخلة فقد عرف عنهم : انهم عملوا

من التمر (دلمون)+ لبخة لعلاج القروح والدمامل ووصفوا ماء التمر مع ماء الورد للمعدة وعالجوا الرضوض والأورام بخلط مسحوق نوى التمر مع شحم الخنزير (٦٩). ودخل شراب التمر في أدوية بابل (٧٠)، كما اعتقدوا أنهم ان وضعوا قطعة من خشب النخل أو خشب الأثل — حسب تعليماتهم الدينية — في إناء سكب السوائل والمعروف باسم (آكوبو agubbu) فذلك يحقق النتيجة العلاجية المرجوة (٧١).

ومن العهد العربي الأسلامي يذكر (ابن البيطار): أن الطلع يقوي المعدة(٧٢) والجمّار يختم القروح وينفع من نفث الدم واستطلاق البطن ومن خشونة الحلق وهو للسع الزنبور ضماد (٧٣). والتمر صالحَ للصدر والرئة والأمعاء ..... مليّن للمفاصل مذهب للأعياء (٧٤) ، والدبس يزيل الكلف لطوخاً مع (القُسْط)++والملح،ويغذى (٧٥). «ونوى التمر ينفع من القروح الخبيثة محرقاً فأن غسل بعد إحراقه وسُحق وأمر »(٧٦) بالميل على شفر العين أنبت الهدب وإذا اكتحل به نفع من قروح العين... »)

وفي الوقت الحاضر يمتص بعض الناس من البغداديين وغيرهم من سكان بلاد التمر الطلع لما فيه من المائية المفيدة للمعدة وينبذون الثفل. وفي أيام الربيع يعمد بعضهم إلى استقطار مائه لوقت الحاجة لاعتقادهم انه يفيد عن أمراض المعدة والقلب (٧٧).

ومن الطبيعي ازاء قدسية وأهمية النخلة في الحياة الاجتماعية وبسبب العدد الكثير من النخل في وادي الرافدين ان دخلت النخلة في الأمثال التي قيلت،فمثلا وصف الملك شولكي+++ *Sulgi من العهد السومري الحديث بانه يشبه شجرة النخل المزروعة عند مجرى الماء ، ذات ظل وارف »(٧٨) وشبه الشاعر السومري المدينة الضخمة المشهوره (اور) بعد أن غزتها الحرب

+ دلمون ، يراد بها البحرين .

++ القسط ، عوديتداوى به .

+++ حكم بعد ابيه (اورنمو) مؤسس سلاله اور الثالثة (٢١١٢ — ٢٠٠٤ ق . م.).

كأنها شجرة نخل قطعت الى نتف مبعثرة » (٧٩) كما ضربوا مثلا لمن يبخس الاشياء حقها اذا توفرت ، بقولهم : ... واذا كنت في بستان النخيل يصبح التمر مراً » (٧٩) وضم كتاب العهد القديم بعض التشبيهات بالنخلة منها : الصديق كالنخلة يزهو .. (٨٠) وفي تشبيه آخر : ماجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات . قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثداياك بالعناقيد قلت اني اصعد النخلة وأمسك بعذوقها »(٨١).

وفي عهد الحضارة العربية الاسلامية دخلت النخلة واجزاؤها في التشبيهات والامثال التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف، منها : تشبيه القمر في المحاق بعود العذق القديم كما في الآية « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٨٢) وفي آية اخرى يشبة الناس بعد إحلال العقاب بهم بالنخل الخاوي او المنقلع : « فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجاز نخل خاوية » (٨٣) و« إنا ارسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » (٨٤) وفي بعض الأحاديث النبوية الشريفة تشبيهات بالنخل كقوله (ص) : « إن من الشجر شجرة مثلها كمثل المسلم » (٨٥) وقال (ص) ايضا « مثل المؤمن كشجرة مثلها لاينحات ورقها » (٨٦) وقصد بذلك النخلة لانها لاتسقط أوراقها كبقية الشجر وروي عن الرسول (ص) ايضا قوله : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة » واراد بذلك النخلة.

وفي الوقت الحاضر ــ مثلما كانت الحال في الحضارات العربية القديمة لازال الناس يتداولون في حياتهم اليومية بعض الامثال المستمرة من ملاحظاتهم للنخل (٨٧).

وقد أدرك سكان وادي الرافدين منذ وقت مبكر فوائد النحل في الحياة الأجتماعية فاعتنوا بزراعته وسعوا للحصول على كمية كبيرة من التمر لذلك اهتموا بنقل غبار الطلع الى النخلة الأنثى حيث كانوا قد ميزوا بينها وبين النخلة الفحل منذ وقت مبكر (٨٨) .

وكانت مواسم التلقيح وجني التمر مناسبات تقتضي مشاركة اعداد كثيرة من الأشخاص فيها نظراً لوجود عدد كثير من النخل وما يتطلب ذلك من جهود تقدم خلال أوقات محددة من السنة مما يجعل من هذه المواسم مناسبات زراعية لها تقاليدها الأجتماعية التي مالبثت مع مر الزمن أن صارت جزءاً من الأحتفالات الدينية الخاصة بالخصوبة (٨٩). ومن تلك الأحتفالات اعتبار تاج النخلة رمزاً لأله الخصوبة (تموزو) — (٩٠) ولعلهم ارادوا بذلك تاج النخلةالفحل — بينما اعتبروا النخلة رمزاً لألهة الخصوبة (عشتار) (٩١) — ولعلهم ارادوا بذلك النخلة الأنثى — وجعلوا (ننورتا) الأله الشجاع والخاص بالحرب عند الآشوريين الها للتمر (٩٢).

وتظهر أيضاً صلة النخلة بطقوس عبادة الخصوبة من خلال النقوش الموجودة على ظاهر الأناء النذري + (٣٢٠٠ق.م.) حيث نقشت في الأفريز الأسفل صورة النخلة مع صورة نبات الذرة على التوالي، وفي الأفريز الأعلى نقشت صورة السعفة ضمن الهدايا الموضوعة في احدى السلال الكبيرة التي يحملها أفراد الموكب إلى الألهة (اينانا) (=عشتار) الهه الخصوبة السومرية التي أقيم لأجلها الأحتفال المنقوشة مشاهدة على ظاهر هذا الأناء.

وفي الأساطير مايدل على قدسية النخلة أيضاً فقد زرعها أول ملك اختارته الألهة ليحكم في الأرض حيث جعلها في قصره (٢٨) وفي أساطير أخرى قدم شراب التمر إلى الآلهة في مجالسها أو عند زيارتها لبعضها (٩٣) كما قدم في طقوس الاحتفالات حيث صرفت كميات كبيرة منه إما باحتسائها أو بسكبها أمام الآلهة تقرباً اليهم. ومن عهد سلالة أور، يتضح من اسم العلم المركّب الآتي :

«كشمار — كا — دومو — ني “givmmar-ga-dumu-ni

ومعناه «ابن شجرة النخل الألهة» (٩٤) أن الناس اعتبروا النخلة إلهة بالأضافة

+ الاناء النذرى، تسمية مصطلح عليها لاناء من حجر الرخام عثر عليه في الوركاء ارتفاعه ١١٠ سم وقطر فوهته ٣٨ سم يراجع المصدر في الهامش ١٣٨، AAAO لوح ٣.

إلى اعتبارها أحد رموز إله والهه الخصوبة. وفي المحاورة بين النخلة والأثل نعلم ان: الملك لايستطيع تقديم القرابين بقلب مطمئن في مزار الآلهة العظيمة إن لم توجد النخلة في ذلك المكان (٩٥)، وعندما كانت تحل طقوس نثر الماء المطهر تفرش الأرض بالسعف وتسكب السوائل المقدسة الخاصة بالنخلة(٩٥).

ومن المحاورة بين النخلة والأثل نعرف ايضاً ان هاتين الشجرتين (٩٦) قد زرعهما أول ملك اختارته الآلهة عند البوابة الرئيسة في المدينة، وقد وجد تقليد يرجع إلى أقدم عهد للأستيطان في جنوب وادي الرافدين اي عهد العبيد تمثل باقامة عمودان من جذع النخلة عند المدخل الرئيس في المعبد، وكانا يغلفان بالطين ويزينان باشكال من المثلثات المتداخلة المعمولة من الفسيفساء يفصل بينها أشرطة أفقية مما يشير إلى قدم التقليد المتعارف عليه في حضارة وادي الرافدين والمتمثل بتطويق جذوع الأشجار بأشرطة معدنية (٩٧). والفكرة نفسها عُبّر عنها في واجهة المعبد الأحمر في الوركاء حيث عثر على أعمدة غائرة نسبياً في البناء زينت بأشكال مستوحاة من جذع النخلة (٩٧). وفي عدد من النصوص المسمارية نجد بعضاً من الملوك قد تمسكوا بهذا التقليد، فالملك (جودية) (٢١٥٠ق.م.) زرع نخلتين عند باب معبد الألة (ننجرسو) في مدينة (لكش) (٩٧)، واهدى الملك (كونكونوم) (١٩٣٢ — ١٩٠٦ق.م.) نخلتين من النحاس إلى معبد الألة (شمش) في مدينة (لارسا) (٩٧). وتظهر آثار جذوع الأشجار المطوقة باشرطة برونزية مزينة بنقوش نافرة على كل جانب من مداخل معابد الآلهه (سن) و(شمش)و (نركال) في مدينة (خورساباد)، وقد أعاد المنقب (بلاس) الجزء الاعلى لهذه الأشجار بان جعله من سعف النخيل وبرر عمله هذا — بالأضافة إلى ماتقدم — بالرسوم الجدارية التي كشف عنها في مدينة ماري (٩٧) والتي تصور النخلة في العديد من المشاهد بشكلها الطبيعي، وقد انتشر هذا المعتقد في الشرق القديم فكان على جانبي مدخل معبد (سليمان) عمودين (٩٨) كما زينت جدران المعبد من المدخل بصورة النخلة.

وكان الاعتقاد في العراق القديم أن النخلة تطهر البيوت وتطرد الأرواح الشريرة، لذلك أمر الملك الآشوري (اسرحدون) (٦٨٠ – ٦٦٩ق.م. بأن تصنع قوالب اللبن المعدّة لبناء معبد الإيساكيلا) في بابل من خشب النخل بالأضافة إلى العاج والبقس والأبنوس (٩٩). وللنخلة أهميتها في التعاويذ أيضاً، فالكاهن المعوذ كان يمسك بالسعفة عندما يريد تلاوة بعض تعاويذه على من يريد حمايته من ضرر الأرواح الشريرة (١٠٠). ،وفي بعض التعليمات الدينية القديمة أعتقد بأن وضع قطعة من خشب النخلة في إناء سكب السوائل (آكوبو) كفيل بتحقيق الشفاء المرجو ، (١٠١) ويرجع هذا المعتقد إلى تصورهم أن النخلة تحرر الأنسان وتطلق قيوده التي كبلته بها الارواح الشريرة، (١٠٢) كما في الدعاء الآتي: «عسى النخلة التي تمسك بكل الرياح، تطلق قيودي »(١٠٣). أما اذا اعتقلوا بوجود (شبح) يسبب ايذاءهم فأنهم يتعوذون منه قائلين: «لتكن أيها الشبح مثل فرد زلق فسقط أرضاً من اعلى النخلة فقتل »(١٠٣).

وأخذ سكان وادي الرافدين فألهم من ملاحظة النخلة ان كان لها قمتين أو إن بدت لهم أمعاء الضحية عند فحصها على شكل نخلة، أو من ملاحظة عمود الدخان اذا انعقد في الأعلى مكوناً شكل نخلة (١٠٣) .

واستعانوا بالاحلام – إلى جانب قراءة الطالع و استخارة الآلهة وأخذ الفأل – لمعرفة المستقبل، وفي بعض النصوص المسمارية يطلب إلى صاحب الحلم ان يخبر المفسر اذا كان قد رأى في منامه شطأً نامياً في قمة النخلة أم في وسط جذعها فلكل لالته (١٠٤). وفسرت رؤيا من يجد نفسه في الحلم يقطع شطأً نخلة أو يقتلعها: بان سوء الحظ سوف يتركه، اما اذا جاء في الحلم ان الفسائل قد نمتْ عند قاعدة النخلة: فتلك بشرى في الحصول على الأماني، واذا حلم شخص بانه يتسلق النخلة ويأكل من تمرها فتلك انذار بما سيصيبه من سوء مصدره القصر الملكي (١٠٥). واذا كان

أحد الأشخاص مطالب بالمثول أمام المحكمة ورأى في منامه نخلة لاتوجد لها فسائل عند القاعدة، فان ذلك بشرى له بصموده في المرافعة امام خصومه.

ومن مظاهر قدسية النخلة في وادي الرفدين ، انها احتلت مكانة مهمة في القضاء ففي المحاورة بين النخلة والأثل (١٠٦) يعرف بان قراراً حول جناية ما ، قد اتخذ تحت شجرة النخل . ويبدو ان اتخاذ قرار الحكم تحت النخلة قد صار تقليداً متبعاً ، فقد ظهرت مشاهد مماثلة في الاختام الاسطوانية والنقوش الجدرانية (يراجع موضوع النخلة في الفن) ثم انتشر هذا التقليد في الشرق القديم . فمثلا يذكر في كتاب العهد القديم ان .. ديبورا حكيمة بني اسرائيل في عهد القضاء (زوج الفيلوت) كانت تجلس للقضاء تحت جذع النخلة (١٠٧) ، وجدير بالذكر ان شيوخ المدينة في مدن العراق القديم اعتادوا ان يجتمعوا عند البوابة الرئيسية في المدينة — حيث توجد عادة على جانب الباب نخلة كما جاء ذلك في المحاورة بين النخلة والاثل — للفصل في مشاكل الناس وذلك في فترات زمنية متقدمة كثيراً على زمن ماذكر كتاب العهد القديم .

كذلك قدست النخلة خارج وادي الرافدين ، فقد تيمن قدماء سكان وادي النيل بالسعف فضنعوا الاكاليل والباقات الجنائزية منه وجعلوا من الخوص فراشا لبعض الجثث واعتبروا النخلة (شجرة الجنة) (١٠٨) واعتقدوا ان وسط قمتها موضع للمعبود الذي يسكب الماء من اجل روح الميت (١٠٩) وقدسوا عقب النخلة — جذلها باعتباره رمزاً لأله الخصوبة (أو سيرس) Osiris (١١٠) .

وفي ليبيا كانت النخلة في من الطوطم (١١١) ، وفي مدينة (قرطاجة) — تونس — تكاد مسلاتها لاتخلو من صورة النخلة ، وبالذات تلك المخصصة للأله (حمون) Hammon (١١١) ، وضربت صورة النخلة على النقود الفينيقية والقرطاجية في صقلية . (١١١)

وعند الاغريق اعتبرت نخلة معبد (فوزيبوسس)في ديلوس (مقدسة وصارت ذات شهرة واسعة في التاريخ القديم لاعتقادهم ان الألهة (ليتا) Leta قد امسكت بجذع هذه النخلة عندما أوشكت على وضع ابنها التوأم (أبولو) كذلك كان للسعفة مكانة دينية خاصة في اسبارطة حيث حُمِل الموتى على اغصان الزيتون وسعف النخيل (١١٢) .

وفي مدينة الحضر التي بلغت أوج ازدهارها خلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد خظيت السعفة بالقدسية ايضاً وكانت رمزاً للنصر والخير والبركة والطمأنينة فحملها بأيديهم الالهة والكهنة والملوك والامراء والنبلاء والمتعبدون كما نقشت على احد الانصاب (١١٣) .

وفي الديانة المسيحية حظيت السعفة بمكانة مرموقة حيث ولد تحتها السيد المسيح (ع) (١١٤) ، وكان لسعفها أهمية رمزية كبيرة : فالسيد المسيح رفعها بيده عندما دخل القدس دلالة على الطمأنينة والخير والأمان ، وفرش انصاره طريقه بالسعف فرحا وترحيباً بمقدمه (١١٥) . واعتاد المسيحيون فيما بعد ان يزينوا صدورهم بسعفتين متصالبتين رمزاً لأدائهم زيارة الديار المقدسة (١١٦) .

وفي شبه الجزيرة العربية كان الاعتقاد القديم ان النخلة التي تنمو قرب منابع المياه تتحد روحها بروح النبع ، فتعتبر زوج أو أخ أو ابن للنبع ، كذلك وصفت النخلة بانها أشيرا (asherah والكلمة هذه —حسب رأي السيد بارتون —من : أثر athr أو اثير athir ومعناها : الصديق ، الجيد ، السامي الصفات (١١٧) . كما وضح السيد بارتون أن (اشيرا) تطابق الألهة (عشتار) التي تمثل قوى الخصب في الطبيعة (١١٨) واستمر تقديس النخلة حتى في العصر الجاهلي ، كعبادة الناس النخلة في موضع (نجران) (١١٩) بينما صنعت بعض طوائف العرب معبودها من التمر على شكل صنم (١١٩) .

وكان سكان وادي الرافدين يرفعون في احتفالاتهم وأعيادهم الصولجانات والسواري والرموز ، ويبدو أن رفع أغصان الأشجار وبالذات سعف النخيل

يرجع إلى تقليد قديم وجد في عصور ما قبل التاريخ في عهد (تبة كورا)(١٢٠) كما ظهرت السعفة ضمن الهدايا التى قدمت إلى إلهة الخصوبة (اينانا)(= عشتار) في احدى الاحتفالات الخاصة بها .

وفي بعض المناسبات القديمة كانت الأرض تفرش بسعف النخيل(١٢١) وهو تقليد وجد ما يماثله بعد قرون عديدة عندما فرش أنصار السيد المسيح (ع) طريقه بالسعف احتفاء وترحيباً به عند دخوله القدس . (١٢٢)

وكانت السعفة ترفع باليد في بعض المناسبات حيث نجد الملك السومري جوديه (١٥٠ ٢ ق. م .) يرفع على كتفه سعفه في مناسبة يصطحبه خلالها الأله (ننكشزيدا)، (١٢٣) كذلك وجد هذا التقليد في العهد الاشوري الحديث كما في الشكل (٥) ، (١٢٤) ثم استمر في عهد مدينة الحضر التى ازدهرت خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد حيث نجد السعفة محمولة بأيدي الآلهة والكهنة والملوك والقادة العسكريين والامراء والنبلاء والمتعبدين من الناس (١٢٥) وهي هنا ترمز إلى النصر والخير والبركة والطمأنينة والمحبة، كذلك رفع السيد المسيح (ع) السعفة وغصن الزيتون بيديه عند دخوله القدس رمزاً للطمأنينة والمحبة (١٢٢) .

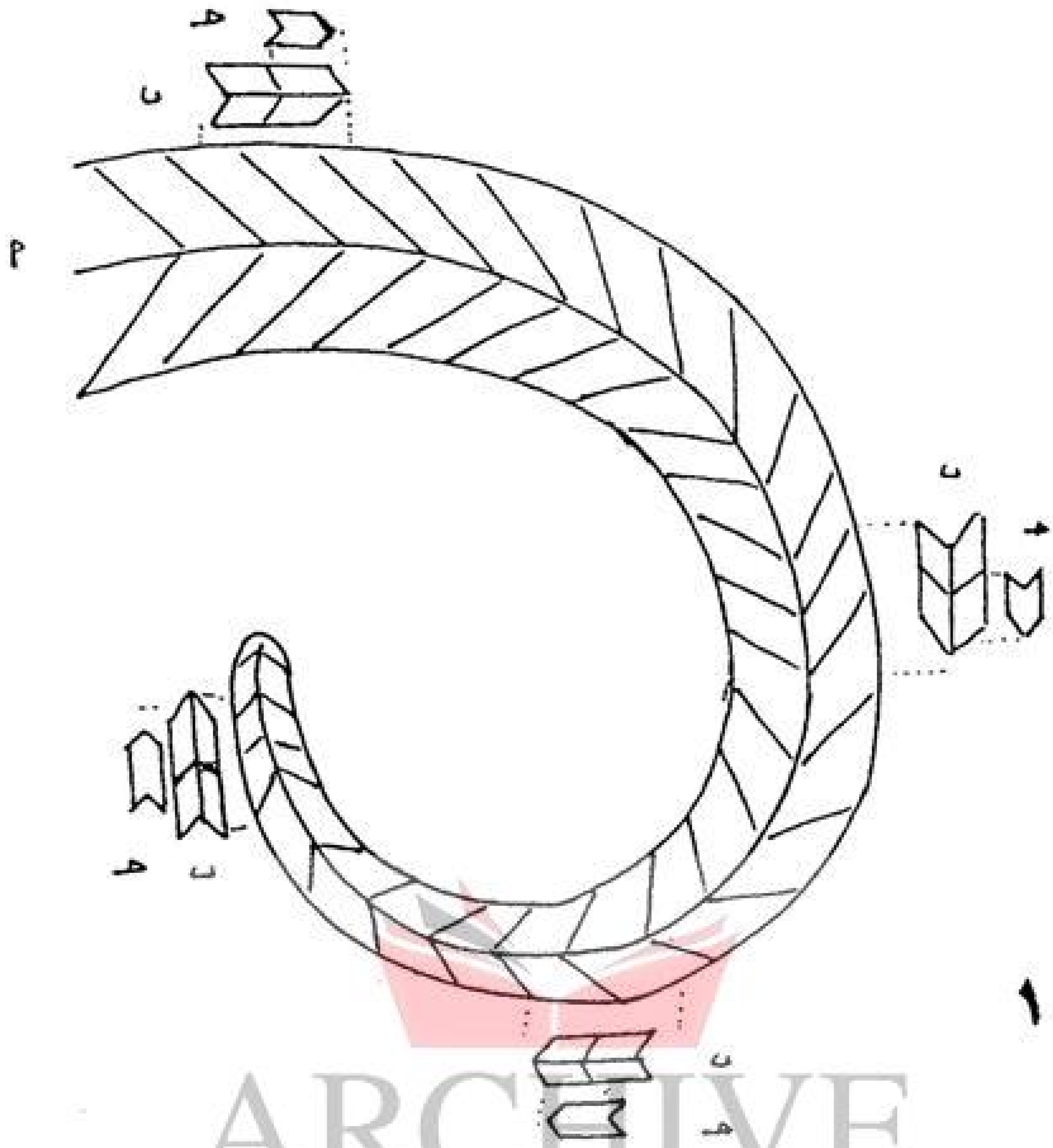
ومن المظاهر الأحتفالية القديمة الأخرى المتعلقة بالنخلة : تزيين بعض أشجار النخيل بالذهب والفضة مثلما عمل الملك السومري (أنتيمنا) (٢٥٠٠ ق. م.) عندما زيّن بستان الألهة) نانشه (، (١٢٦) وتطويق بعض أشجار النخيل باشرطة معدنية مثلما عمل الآشوريين (١٢٦) وهو تقليد وجد له ما يماثله في العصر الجاهلي عندما كان الناس يحتفلون سنويا عند نخله(نجران) – في شبه الجزيرة العربية – فيعلقون عليها حلي النساء ويكسونها بقطع جميلة من القماش (١٢٧) .

وفي كتاب العهد القديم ما يشير إلى رفع النخلة في عيد (المظال) ، (١٢٨) وهو بالأصل احتفال عراقي قديم لمناسبة قطاف التمر (١٢٩) كان يُجرى في شهر (مارجشوان) (= تشرين الأول) (١٣٠) .

ومن طقوس الديانة المسيحية ، الأحتفال المعروف باسم (أحد السعانين) ومن مظاهره رفع السعف وأغصان الزيتون — تيمناً بالسيد المسيح — وعمل الصلبان والأكاليل منهما ، ويعرف هذا العيد في الغرب باسم (أحد السعف)(١٣١).

ومن الناحية الفنية فقد ظهرت صورة النخلة والسعفة في الفنون منذ فترة مبكرة ، فأقدم قطعة معروفة لحد الآن عليها صورة لجزء من النخلة تعود إلى عصر حسونه (١٣٢) حيث رسم عليها جزء من تاج النخلة وعثر على صورة السعفة مرسومة على قطعة فخارية من عصر العبيد (١٣٣) كما رسمت السعفة على ظاهر مزهرية يعود تاريخها إلى عصر تبه كورا(٣٥٠٠ ق.م.)(١٣٤) ثم استمرت صورة النخلة في المراحل الحضارية المتعاقبة حيث رسمت او نقشت بشكلها الطبيعي في العهد السومري القديم والعهد الأكدي والعهد السومري الحديث والبابلي القديم وحتى في العهد الكاشي الذي يمكن أن يلاحظ خلاله وجود ميل للفنان نحو التحوير في شكل النخلة الطبيعي (١٣٥) حيث حورت العذوق إلى شكل حوالق حلزونية ومدت السعفات نحو الأسفل لتعود تتقوس إلى الاعلى ، وفي القرن الرابع عشر ق. م. اضيف تحوير جديد تمثل بتطويق تاج النخلة بخطوط منحنية تمتد من سعفة إلى اخرى وجعل في موضع التقاء كل خطين منحنيين صورة لتاج نخلة صغيرة (١٣٥) وقد رسم نموذج النخلة هذا على جدران مدينة (كارتوكلتي ننورتا) (تلول العقر) وكرر نقشه في الواح جدران العصور الملكية في مدينتي نينوى وخرساباد وكان الفنان قد استغنى عن تفصيلات هذا النموذج بعض الأحيان فرسم تاج النخلة فقط علما ان صورة النخلة بشكلها الطبيعي قد استمر بالظهور (١٣٥) .

ظهرت صورة النخلة والسعفة في مشهد احتساء السوائل من جرار كبيرة بواسطة القصبة (١٣٦) (ش ١) كذلك ظهرت صورة النخلة مشهد يتقدم فيه مجموعة من الافراد إلى شخص يعتمر تاجا مقرنا (١٣٧) ومن المواضيع الأخرى مشهد نقش في ختم اسطواني (ش ٢) يعود زمنه إلى بداية الالف

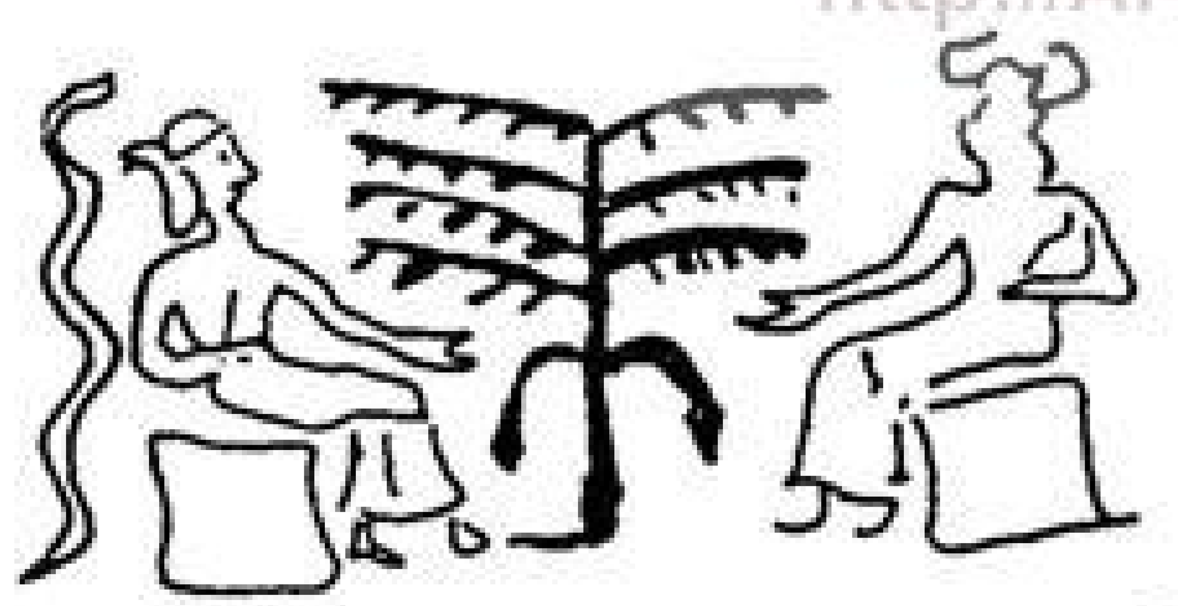


المرتسم ١



ش ١

[PDAS 19]



ش ٢

[PDAS 42]



ش ٣

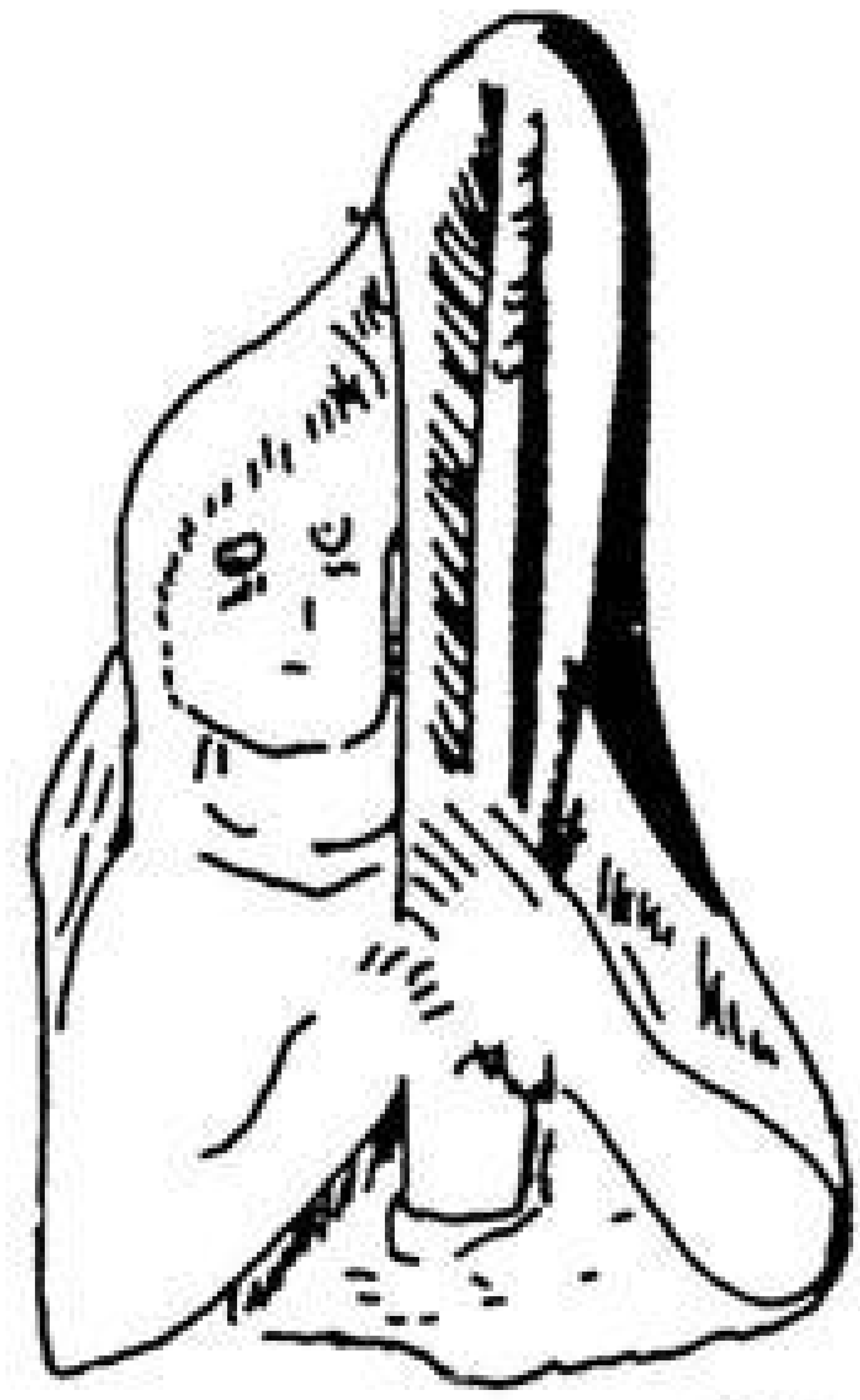
[PDAS 74]

الثالث ق. م.، فيه صورة رجل – يعتمر تاجا مقرناً – وامرأة جلس كل منهما على كرسي مقابل للآخر وتتوسط الفسحة الكائنة بينهما صورة نخلة يتدلى منها عثقان يشير اليهما بيده كل من الرجل والمرأة في حين تظهر خلف المرأة أفعى منتصبة . وقد عد بعض الباحثين هذا المشهد تصويراً لموضوع ذكر فيما بعد في التوراة عرف بـ خروج الأنسان من الجنة بسبب تغرير الأفعى بالمرأة لتأكل من الشجرة والتي بدورها – أي المرأة – اغرت الرجل فكان طردهما من الجنة (تكوين ، ٣ : ١ – ٣٤).

كذلك ظهرت النخلة في مشهد طلوع الألة (اوتو)= (شمش)فوق الجبال نقش في ختم اسطواني يعود زمنه إلى الألف الثالث ق. م. (ش ٣).

كذلك شاعت مواضيع فنية ظهرت فيها السعفة محمولة باليد ، واقدم هذه المشاهد رسم على ظاهر مزهرية رعود زمنها إلى عهد بته كورا (٣٥٠٠ ق. م.) (١٣٤)، وفي لوحة من الطين المشوي عثر عليها في مدينة (كيش) (٢٥٠٠ ق.م) صورة رجل يحمل سعفه يسندها على كتف الأيسر (ش٤) ومن مدينة (لكش) نجد صورة الملك (جوديه) (٢١٥٠ ق .م) يحمل سعفه يسندها على كتفه الأيمن (١٢٣) ، واستمر تقليد حمل السعفة باليد في العهد الاشوري الحديث (ش٥). وفي مدينة الحضر كان من المعتاد ان يرفع الآلهه السعفة بيدهم اليمنى بينما يرفع الملك والامراء وبقية النلس من المتعبدين السعفة بيدهم اليسرى (١١٣) .

ومن المواضيع الفنية الاخرى الشائعة في حضارة وادي الرافدين ظهور صور الأغنام والماشية عند جانبي جذع النخلة(ش ٦ ، ٧، ٨، ٩) ولعل الفنان أراد بهذه المشاهد تأكيد صلة النخلة بالخصوبة والأشارة إلى وجود مصدرين لقوت الأنسان هما : المصدر النباتي والمصدر الحيواني . ويبدو ان الفنان أراد التأكيد على هذين المعنيين فقام بمحاولة دمج قرون هذه الحيوانات بسعف النخلة مثلما يظهر ذلك في الأشكال (ش ٦، ٧، ١٠، ١١، ١٢) .



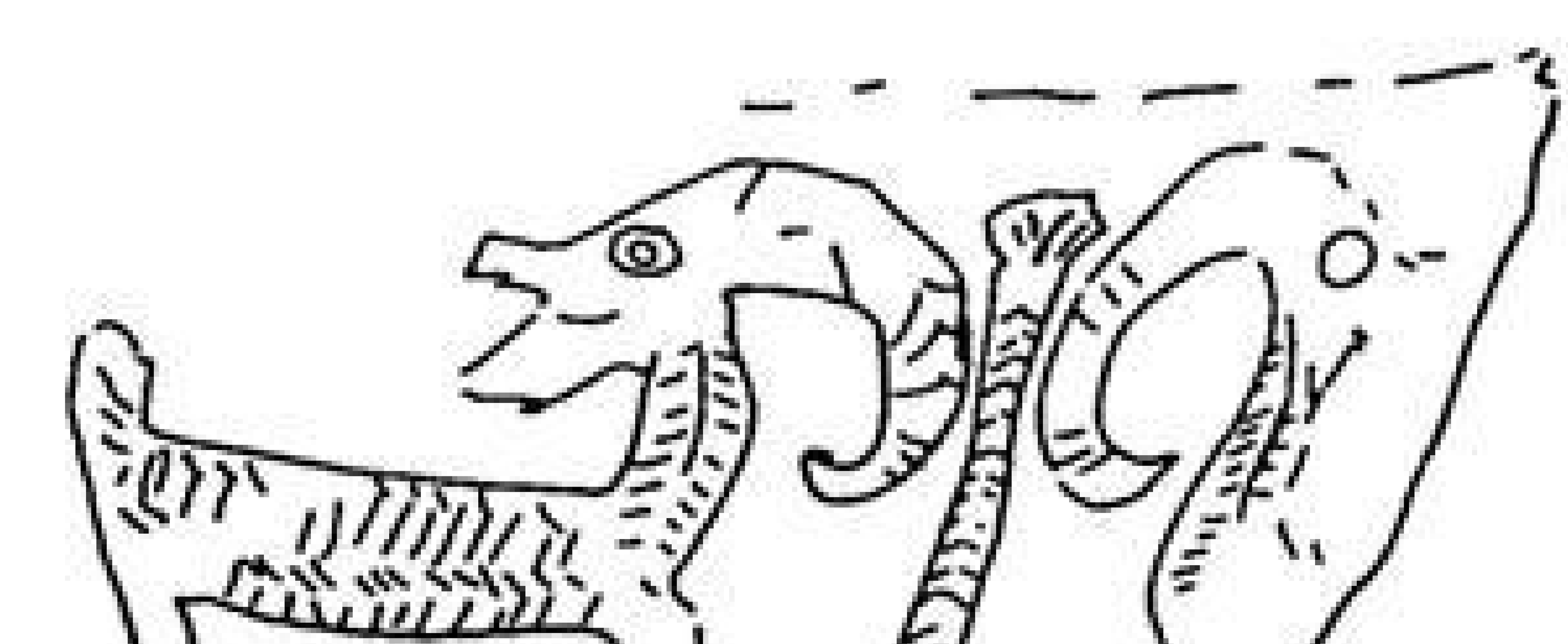
[PDAS 889]

ش ٤



[PDAS 921]

ش ٥



[PDAS 97]

ش ٦

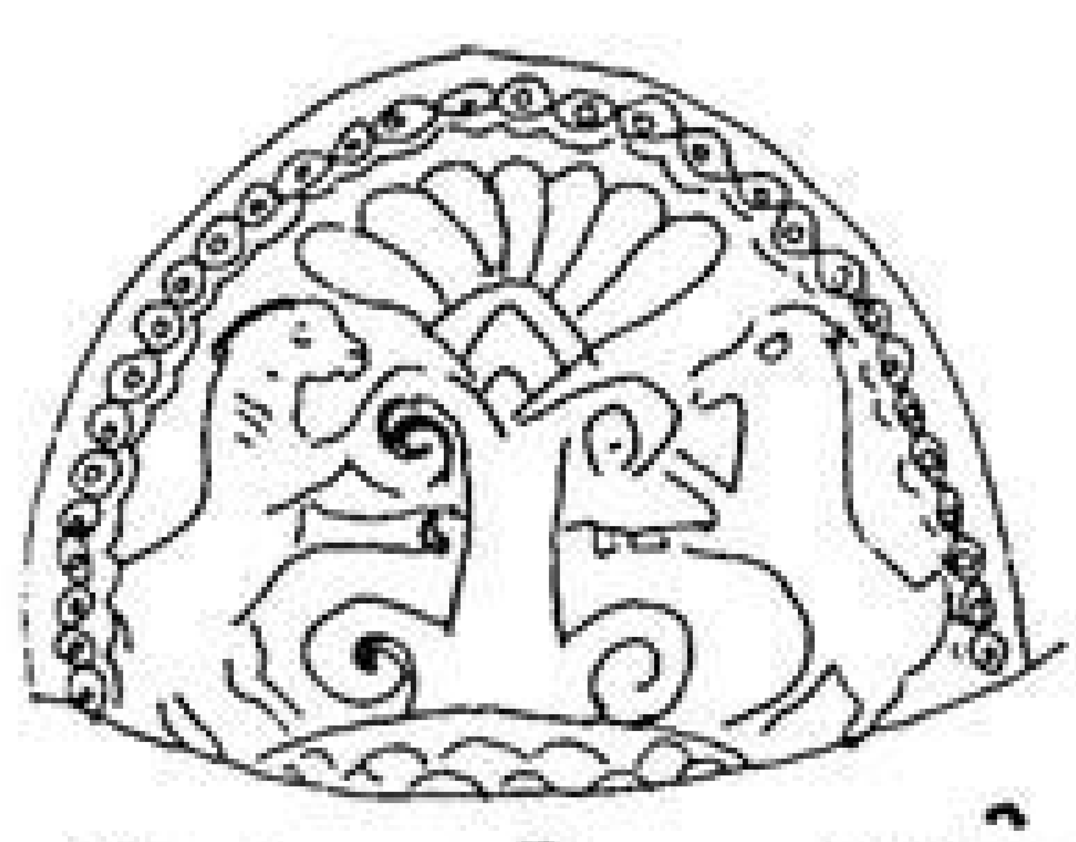


[PDAS 154]

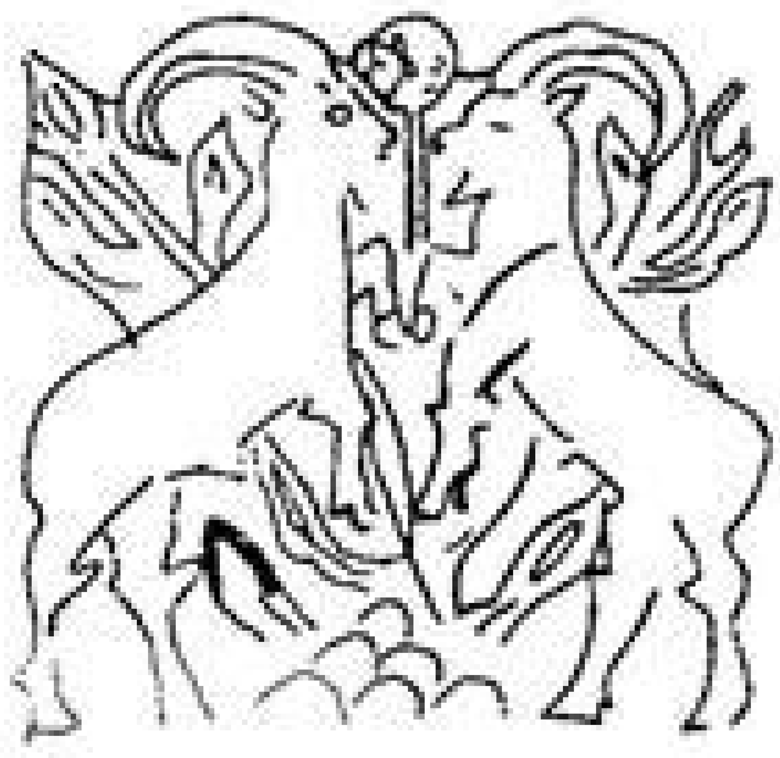
ش ٧



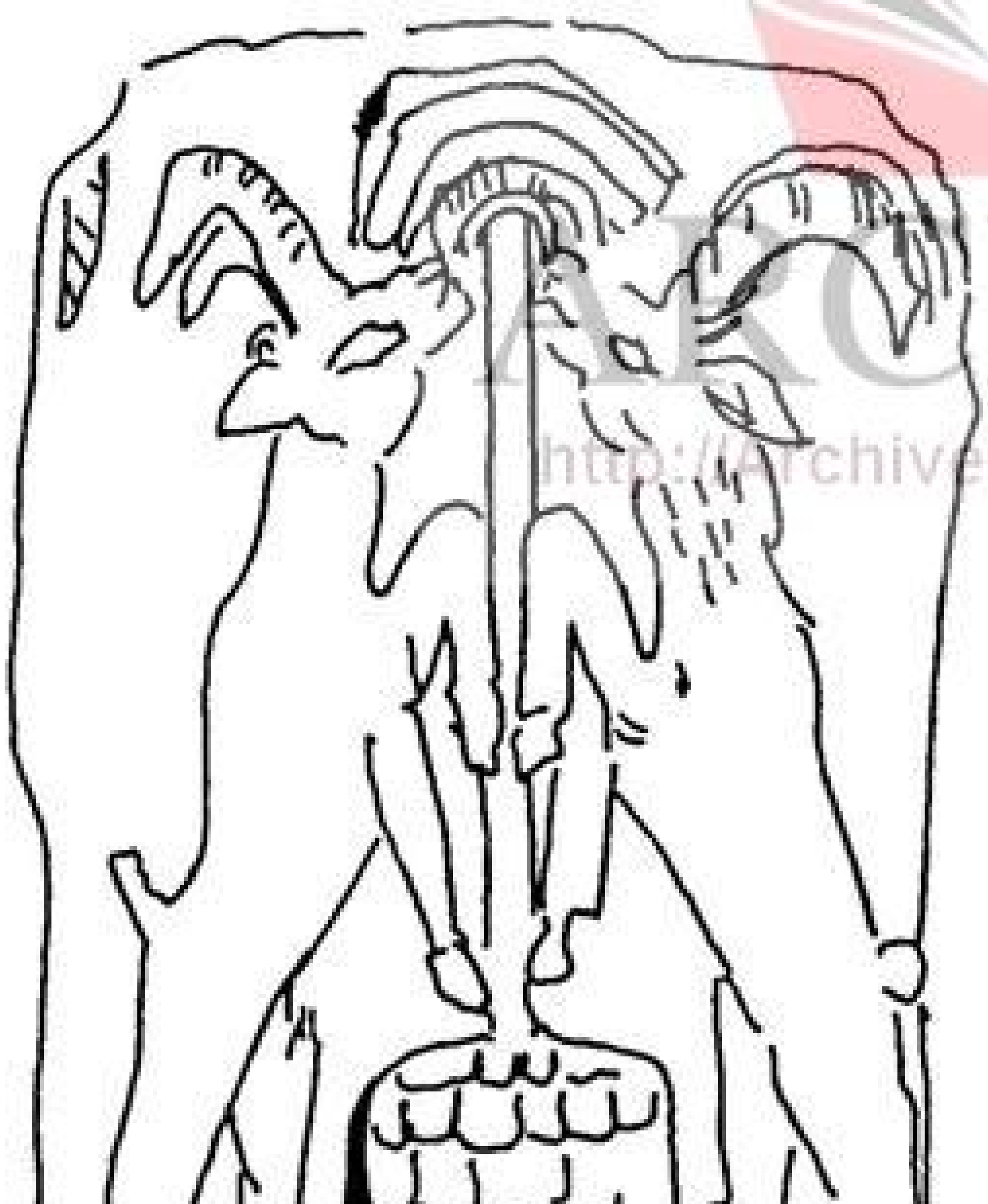
[PDAS 218] ش ٩



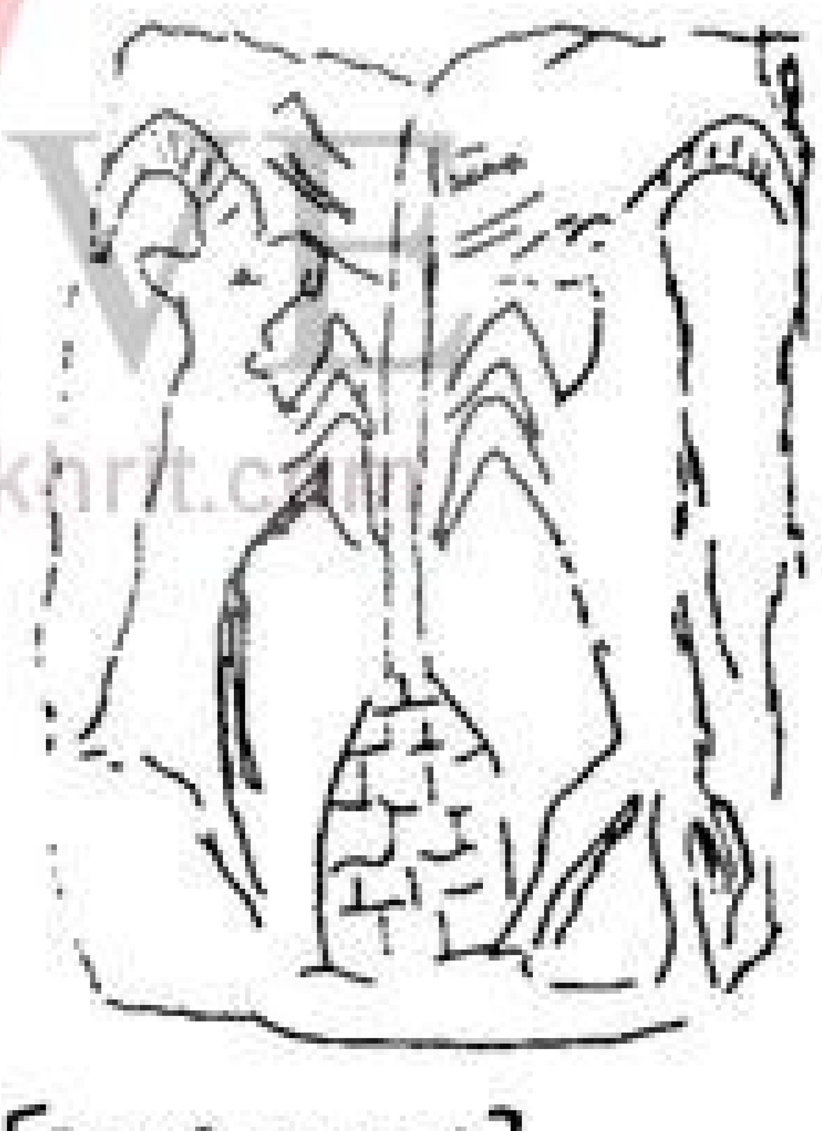
[PDAS 215] ش ٨



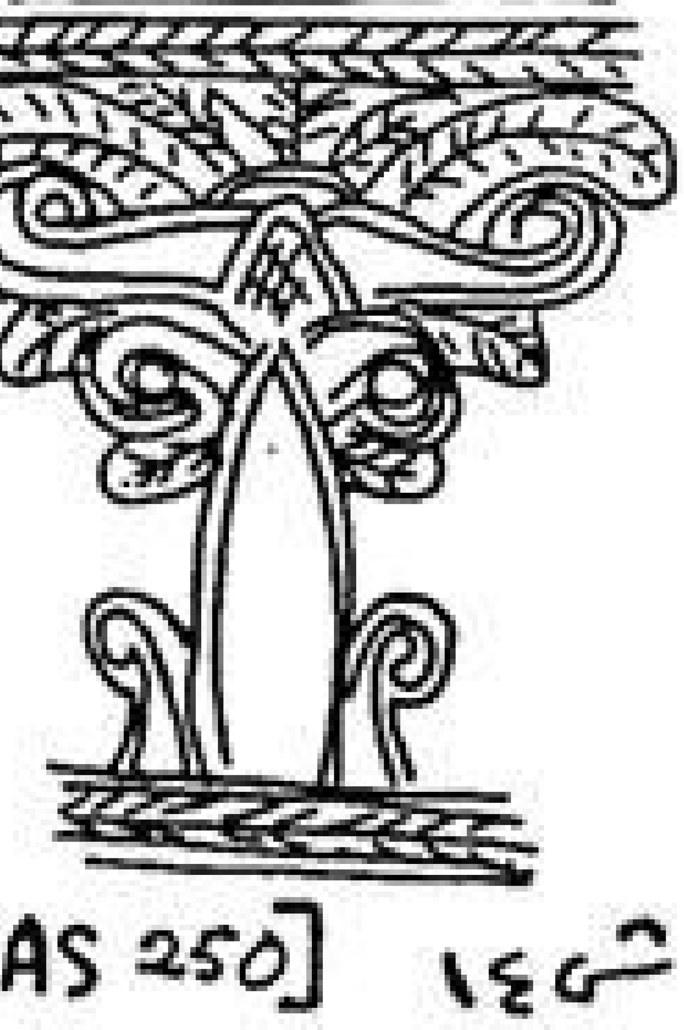
[PDAS 709] ش ١٠



[PDAS 753] ش ١١



[PDAS 754] ش ١٢



[PDAS 250] ش ١٤

وعندما حل القرن ١٤ ق.م. كان الفنان قد بدا يميل نحو التحوير في شكل النخلة حتى اذا ما حل النصف الأول من الألف الاول ق. م.

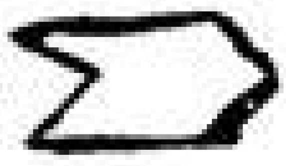
طغت المسحة الهندسية في رسم صورة النخلة فصار الجذع خطوطاً ، مستقيمة ووضع السعف شكل هندسي وحورت العذوق الى حوالق حلزونية وضعت أسفل التاج (١٣٥) (ش٨ ، ٩) ثم اختفت رسوم الحيوانات من جانبي الجذع ، ولكن الفنان استخدم بكثافة واضحة (علامة العريف) (=الشفرون) Chevron لملء الفراغات الموجودة ضمن الاشكال الحلزونية وبين الخطوط الهندسية ، وللوهلة الاولى يتصور الباحث ان الفنان استغنى عن الموضوع السابق والذي فيه تظهر الاغنام على مقربة من النخلة ، ولكن الامر ليس كذلك لان الفنان قد اكثر من رسم علامة الشفرون(Chevron) (ش ١٣ ، ١٤) .

وعلامة (الشفرون) في حقيقتها صورة لفصوص قرون الاغنام قام بنقشها الفنان في عصر فجر الكتابة عندما اراد ان يعبر عن فصوص القرون في تمثال كبش (١٣٨) فعمل خطوطا غائرة في القرون على شكل علامة (الشفرون) ، والاسلوب نفسه يظهر في قرون الكبش الذي جعل رأسه مقبضا لصولجان في مدينة أور (١٣٩) ، كذلك عبر الفنان عن فصوص القرون بعلامة (الشفرون) مثلما يظهر ذلك في قرون التمثال الذي زمنه الى عصر الملك حمورابي (١٤٠) .

ويظهر الرمز الدال على فصوص القرون باربعة حالات هي : أ ->>>> وب(>>>>) وجـ (⋁⋁⋁) ود (⋀⋀⋀) ويرجع ذلك الى التواء القرون عند نموها (١٤١) فيتغير موضع واتجاه كل فص بالنسبة للناظر اليه مما في المرتسم (رقم ١ ، أ ، ب ، جـ) .

وفي بعض الاحيان رسم الفنان فصوص القرون على شكل انصاف دوائر متجهة نحو اليمين أو نحو اليسار ((((أو)))) وهي رموز للحلقات الخيطية الشكل التي تظهر في قرون المواشي رسمها الفنان حسب ظهورها بالنسبة للناظر اليها .

لقد كان لجوء الفنان الى خلق عنصر فني يرمز به الى الاغنام و الماشية عونا له في التعبير عن فكرة تواجد هذه الحيوانات مع النخلة بشكل أدق وأوثق من الاسلوب السابق ـ اسلوب التمثيل الواقعي ـ عندما أوشك الفنان ان يدمج قرون هذه الحيوانات بسعف النخلة رغبة منه في التعبير عن تلازمها كما هو ذلك في الصفحات السابقة .

واذا كانت علامة فصوص القرون باشكالها السابقة تعتبر عنصراً فنياً يدل على الاغنام ـ وعلى الماشية ـ فانها تعتبر ايضاً وسيلة للتعبير عن النمو والحيوية لأن عدد الفصوص يزداد بازدياد عمر الحيوان (١٤١). وهذا المعنى يمكن استخلاصه ايضاً من العلامة (الكتابية ـ الصورية) AMAR  (١٤٢) التي كان معناها في اللغة السومرية: (ابن) و(ولد) بالأضافة إلى استخدامها في الكتابة المسمارية لتدل على صغير الحيوان.

وعند التدقيق في الشكل الصوري لهذه العلامة AMAR يلاحظ انها جزء من قرن حيوان فيه فصين من فصوص القرون (مرتسم ١، ح) الأمر الذي يفسح المجال للقول ولأول مرة: «وجد في حضارة وادي الرافدين عنصر فني كان معناه الحيوية والنمو والتكاثر، وهذا الرمز باستخداماته في اللغة والكتابة والفن يكاد أن يماثل (العلامة ـ الرمز) عنخ (ankh)  في الخط الهيروغليفي في مصر القديمة والتي كان معناها (الحياة) حيثما استخدمت في الفن والكتابة».

لقد استمر رمز فصوص القرون كعنصر زخرفي يظهر في مختلف المشاهد الفنية وفي العديد من المراحل الحضارية وتواصل استخدامه في الحضارة العربية الأسلامية (١٤٣) واستمر في نقشات السجاد في القرن الحالي.

كان ظهور النخلة في الفنون القديمة في وادي الرافدين كشجرة مقدسة، وهي لأهميتها الأقتصادية يمكن تسميتها بـ(شجرة الحياة) ولكن ليس وفق

المعنى الذي يقصد به: أن من يأكل من ثمرها يمنح الحياة الأبدية، الخلود ـ كما جاء في ملحمة كلكامش ـ استأثرت به الآلهة لنفسها وجه الفناء من حصته البشر (١٤٤). لذلك فأن النخلة كشجرة مقدسة تعتبر ر للخصب والثراء والخير والتكاثر والطمأنينة وهي بالتالي رمز للأنتص على كل مايخص حياة الأنسان اليومية.

ثبت الهوامش والمصادر

١ — عبد الجبار البكر ، نخلة التمر ماضيها وحاضرها والجديد في زراعتها وصناعتها وتجارتها ، بغداد ، ١٧٢ ، ص ٢١٠ (= نخلة التمر) .

٢ — نخلة التمر ، ص ٥ .

3-Popenoe, Paul, "Da tepalm in Amtiquity," Sicemce, 19,P.313.

٤ — نخلة التمر ، ص ٤ — ٥

٥ — نخلة التمر ، ص ٤ .

كارلتون كون،قصة الأنسان ، ترجمة محمد توفيق حسين وعبد المطلب الأمين ، بغداد ١٩٦٥ ، ١٧٣ .

٦ — طه باقر ، «دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية» ، سومر ١٩٥٢ ، ٨ ، ص ٣٢ .

Popenoe, Paul Ibid., p. 315.

7-Oppen heim, leo, ANCIENT MESOPOTAMIA, Univ. of Chicago 1964, p. 312.

٨ — نخلة التمر ، ص ٤.

9-Popenoe, Paul, Op.Citip. 323.

01-Jacquetta Hawkes' 8 Leonard Woolley, HISTORY of MAN KIND, London, 2nd. imp. 1964, Vol. p 5-23

١١ — صموئيل نوح كريمر ، السومريون ، ترجمة فيصل الوائلي ، الكويت ، ١٩٧٣ ، ص ٥٥.

12–THE ASSYRIAN DICTIONARY, OF THE ORIENTAL INSTITU TE of THE UNIVERSITY OF CHICAGO (=CAD), Vol, G. 1956IP. 102

13–Barton, Georg AAron SEMITIC and HAMITIC ORIGINS, Social and Reliqiaun, London, Un press, q1934,P.115, n.5.

14–Popenoe, Paul Op. Cit. P. 319.

15Mc Currah, James C., PALMS of THE WORLD, Harper & Brathers, 1960, reprint. 1970, New York, p. 100.

١٦ – طه باقر ، « النخل في المصادر المسمارية » ، مجلة الزراعة العراقية ، بغداد ، ١٩٥٢ ، حـ ٤ ، م٧ ، ص ٤٥٩ ، حا ٢

١٧ – نخلة التمر ، ص ١٣ .

١٨ – القرآن الكريم ، الحشر : ٥

اسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، ط ٤ ، ١٩٥٦ ، حـ٤ ، ص ٣٣٣ .

١٩ – القرآن الكريم ، ابراهيم : ٢٢ – ٢٤ .

٢٠ – عباس العزاوي (المحامي)، النخل في تاريخ العراق، بغداد ، ١٩٦٢ ، ص ٩٨ .

ابن منظور ، لسان العرب ، طبعة مصورة عن بولاق ، حـ ١٣ ، ص ٦٠ .

٢١ – عباس العزاوي (المحامي) ، ص ١٨ .

٢٢ – ابن منظور ، حـ ١٣ ، ص ٦٠ .

٢٣ – المصدر السابق ، ص ٦١

24– Popenoe, Paul, Op. Cit., p. 320.

25– Smith, w. Robertson, LECTURES on the RELIGION of the SEMITES, London, 1927, 3rd. ed., p.192.
Barton, George AARON. Op. Cit., p. 131.

26– Goff, Beatrice Laura, SYMBOLS of PREHISTORIC MESOPOTAM A, New Haven and London, yale Uni. press 1963, p. 32, fig. 170. p. 93, fig. 333. p. 127, fig .494 p. 142-143, fig. 589. (SPM).

27– Deimel, Anton, DIE INSCHRIFIEN VON FARA, Leipzig, 1922, I no . 196,p. 23.

28– Pfeiffer, Robert H., " Akkadian Fable- Dispute Between the Date Palm and the Tamarisk, " The Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Tertament (ANET), 1969, 3rd., ed., p. 411.

Biggs, Robert D., " Akkadian Fable-Dispute Between the Datepalm and the Tamarisk, " ANET, 1969, 3rd., ed., p. 592-593.

.29– THE BABYLONIAN TALMUD, Tranaslat into English: Rabbi DRI. Epestein, London, 1958, Sanciro press. Seder Zeracim Barakoth 31a, p. 189.

30– Popenoe, Paul, Op. Cit., p. 315.
Oppen heim, ,Op. Cit. p. 44.

31– CAD,p. 4102.

32– ANET,P. 606

33– ANET, p. 411, 593.

34– ANET, ,p 411.

٣٥ــ طه باقر ، « النخل في المصادر المسمارية» ، مجلة الزراعة العراقية، بغداد ،١٩٥٢، جـ٤ ، م٧ ، ص ٤٥٩ ــ ٤٦٧

36– Continau, Georges EVERYDAY LIFE in BABYLON and ASSYRIA, London, 1959, p. 31-32.

37– Olmstead, HISTORY of ASSYRIA, Chicago, new imp. 1960, p. 441.

38– ANET,p. 411, 593.

39– Oppen heim Leo, Op-Cit., p. 44.

40– Continau, George, Op. Cit., p. 72.

41-- Ibid., p. 74.

42 Ibid., p. 29 ; CAD,p. 102.

43– King, Leonard W., AHISTORY of BABYLON, London, 1919, p. 44, n.l.

44– Continau, Georgeo, Op. Cit . 48–49.
Thompson, R. Campbell, A DICTIONARY of ASSYRIAN BOTANY, 1949 (DAB), p. 308.

45– Kramer, Samuel Noah, SUMERIAN MYTHOLOGY, New York, rep. 1961, p. 48, 81.

46– Olmstead , Op. Cit ., p. 484.

47– Ibid., p. 112, 156; Continau, Georges, Op. Cit., p. 75;CAD, p.103.

48– Olmstead, Op. Cit ., p. 288, 515.

٤٩ ــ نخلة التمر، ص١٧، عن: بابا بترا ، ٥٢أ.

٥٠ ــ نخلة التمر، ص١٧، عن: بابا بترا ،٢٦أ.

٥١ ــ نخلة التمر، ص١٥.
الكتاب المقدس، تثنيه ،٨:٨. قضاة ،٤:٥.

52– Pruessner, A.H., " Date Culture in Ancient Babylonia." AJSL, 36, p. 230.

53–Barton George Aaron, Op. Cit ., p. 13of.

٥٤ ــ عبد القادر ال باش اعيان العباسي، النخلة سيدة الشجر، بغداد ١٩٦٤، ص١٦.

55– Popenoe, Paul, Op. Cit., p. 323.

٥٦ ــ القرآن الكريم، ق: ١٠.

٥٧ ــ القرآن الكريم، الانعام :٩٩. كذلك تراجع الايات، الانعام : ١٤١، الكهف :٣٢،الشعراء: ١٤٨، الرحمن: ١١،٦٨، عبس: ٤٩. البقرة: ٢٦٦، الرعد :٤. النحل: ١١،٦٧. الاسراء :٩١. المؤمنون :١٩. يس: ٣٤. يراجع كذلك ــ محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، ١٩٤٥.

٥٨ ــ اسماعيل بن كثير الدمشقي، حـ٤، ص٣٣٣.

٥٩ ــ القرآن الكريم، الحشر: ٥٠

٦٠ ــ انظر: نخلة التمر، ص٢١

٦١ ــ انظر نخلة: التمر، ص٢١

٦٢ ــ انظر: نخلة التمر، ص٢١

٦٣ ــ نظر: نخلة التمر ،ص٢١

٦٤ ــ عباس العزاوي (المحامي)، النخل في تاريخ العراق، بغداد ،١٩٦٢، ص٩٨

٦٥ ــ جمعية التمور العراقية، «القيمة الغذائية للتمور العراقية ــ نشرة رقم (٢)» بغداد، م. التفيض ،د.ت، ص٤.

٦٦ ــ جعفر الخليلي ،التمور قديماً وحديثاً ،بغداد، ١٩٥٦،ص١١٧.

٦٧ ــ جمعية التمور العراقية، ص٤.

69– Oppenheim, Leo, Op. Cit., p. 44.

٦٩ ــ عبد اللطيف البدري، من الطب الآشوري ، بغداد، من منشورات المجمع العلمي العراقي، ٩،٩٧٦ ــ ١٤: ٣٠.

70– Sayce, A.H LECTURES on the ORIGIN and GROWTH of RELIGION, London, 5th. ed ., 1898, p. 242.

71– Continau, Georges, Op. Cit., p. 174.

٧٢ – ابن البيطار – كتاب الجامع لمفردات الادوية والأغذية ،القاهرة، ١٢٩١هـ، حـ٣، ص١٠٤.

٧٣ – ابن البيطار ،حـ١، ص١٦٨.

٧٤ – ابن البيطار ،حـ١، ص١٤٠.

٧٥ – ابن البيطار ،حـ٢، ص٨٧.

٧٦ – ابن البيطار ،حـ٤ ص١٨٥.

٧٧ – حنا انطون جرجيس، مجلة لسان العرب، ٣، ص ٥٣٢ – ٥٣٦.

78- Frank'ort H., KINCSH P and THE GODS Chicageo, 3rd imp., 1958,. p. 311.

79- ANET, p. 594.

٨٠ – مزامير ،٩٢: ١٢.

٨١ – نشيد الأناشيد ،٧: ٦ – ٨.

٨٢ – القرآن الكريم، يس :٣٦.

٨٣ – القرآن الكريم ،الحاقه: ٧.

٨٤ – القرآن الكريم، القمر: ٢٠.

٨٥ – انظر نخلة التمر ،ص٢٠.

٨٦ – عباس العزاوي (المحامي)، ص٩٨

٨٧ – جلال الحنفي، الامثال البغدادية ،بغداد، ١٩٦٢، حـ١، الامثال رقم: ٩٤٧، ٩٦٦، ١١٦٦، ١٤٠٠.

٨٨ – طه باقر، النخل في المصادر المسمارية، مجلة الزراعة العراقية، حـ٤، م٧، ص٤٦٥.

89- Frazer, GOLDEN BOUCH, New mp. p. 582.
Popenoe, Paul, Op. Cit., p. 316.

90– Continau, Georges, Op. Cit., p. 173.
91– Smith, W.Robertson, Op. Cit. p. 192.
92– Sayce, A.H., Op. Cit. p. 238,n. 2.
93– Kramer, S.N., SUMERIAN MYTHOLOGY, NewYork rep. 1961, p. 65.
94– Barton, George Aaron Op. Cit., p. 128, n.3.

٩٤ ــ طه باقر: «دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية»، سومر، ٨، ١٩٥٢، ص٣٢، حا ٥.

95– ANET, p.411, 592
96– ANET, p. 411.
97 – Buren, E. Douglas Van, SYMBOLS' of the GODS in MESOPOTAMIAN ART, Roma, 1949 (SGMA) p. 22-29.
98 – ,Cambridge Ancient H story, (CAH) rep. 1965, vol. 111, p. 349.
99 – OLmstead, Op. Cit., p. 349.
100– Cont nau, Georges, Op. Cit., p. 291-292.
101– Ib d., p., 174.

102– DAB. p. 310.
103– CAD.,, vol. G, p. 103..
104– Oppenheim Leo, THE INTERPRETATION of DREAMS in the ANCIENT NEAREAST Philadelphia, 1965, p. 304, m. 216.
105– Ibid., p. 285.
106– ANET,. p 411.

١٠٧ ــ قضاة ، ٤ : ٤ .

108– Barton, George Aaron, Op. Cit., p. 127.
109– Ibid., p. 138.

110–, Ibid., p. 138.

111– Popenoe, paul, Op. Cit., p. 321.

112– Hastings, J., (ED.), Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 1908–1966 vol. XII, p.454. (ERE).

١١٣ -- فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس، بغداد ١٩٧٤

(مدينة الشمس) ش ٩ ، ١٣ ١٤ ، ١٥ ،

١٦، ٢٠، ٢١، ٢٢،

١٩٨، ٢٠١، ٢٦١، ٢٦٢، ٣٠١

٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧ .

بالنسبة للآلهة ، ش : ١٨١،

٢٦٢، ٢٧٠، ٢٧٦ .

١١٤ – صورة السعفة منقوشة على النصب شكل ١٤٢ .

١١٥ – انجيل يوحنا ، فصل ١٢ : ١٣

انجيل متا ، فصل ٢١ : ٨

١١٦ – منير البعلبكي ، المورد قاموس انكليزي –عربي ، بيروت ، ١٧٦ ، (palmer).

117– Barton, George Aaron, Op. Cit., p. 133.

118– Popenoe Paul, Op. Cit., p. 316.

١١٩ – عبد القادر ال باش اعيان ، ص١٦ .

120– SPM, p. 127, fig.494.

121–ANET, p. 411.

١٢٢ –

١٢٣ – بارو ، اندريه ، سومر فنونها وحضارتها ، ترجمة وتعليق عيسى سلمان وسليم طه ، بغداد ، ١٩٧٧، ص ٢٨٥ ، ش٢٨٤و٢٨٥

124– H. Danthine, Le Palmier-Dattier et Les Arberes Sacres, Paris, 1937, fig. 921. (PDAS)

١٢٥ – مدينة الشمس ، ش :٩، ١٣، ١٤، ١٥، ....ويراجع الهامش ١١٣ .

١٢٦ – كريمر ، صموئيل نوح ، السومريون ، ترجمة ، فيصل الوائلي الكويت ، ١٩٧٣ ، ص٤٥٣ .

127– ERE, VolXII, p. 449.
Barton, George Aaron, Op. Cit., p. 130 ff.

١٢٨ – لاويين ، ٤٣ : ٤٠
نحميا ، ٨ : ١٥

129– Popenoe, Paul, p. 321.
130– DAB, P. 311.

١٣١ – عبد القادر ال باش اعيان ، ص٢٦ .
Barton, George Aaron, Op. Cit., p. 131.

132– SPM, p. 6, fig. 44.
133– SPM, p. 32, fig. 170.
134– SPM, p. 127, fig. 494.
135– SGMA, p. 22
136– PDAS, fig. 19,
Frankfort,H., CYLINDER SEALS, London, rep. 1965, PL. XXXIX:f. (CySe).
137– CySe, PL. XXV: a.
138– Frankfort,H., THE ART and ARCHITECTURE of the ANCIENT ORIENT, Penguin Books, 1958.(AAAO) PL: (4A from warka).
SPM, fig 450, warka, Jamdet Nass Period.

139– AAAO, PL: (68A from Ur).

140– AAAO, PL: (67A from) 'shchali).

141– Darcy Thompson, ON GRCWTH and FCEM Abri dged Edit on ed. hy J.T. Bonner, Cambridge. 1966 CF) p.202 –213 .

142– Labat, Rene, MANUEL D EPIGRAPH'E AKKADIENN Paris, 1959, P. 196,no. 437. (MEA)

١٤٣ – زكي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ش ٢٠ ، ٧٨٥ .

١٤٤ – طه باقر ، ملحمة كلكامش ، بغداد ط٢ ، ١٩٧١ ، ص١١٥ ح ١١٨، ح١١٩ .

بعض مشاكل الطلبة في ترجمة النصوص الانكليزية الى العربية

جاسم محمد حسن   ربيع محمد قاسم
كلية الآداب - جامعة الموصل

الغاية من البحث :

يهدف هذا البحث الى تشخيص بعض الاخطاء اللغوية والثقافية والاخطاء العامة الاخرى في الاداء اللغوى لطلبة فرع الترجمة في قسم اللغات الاوربية في جامعة الموصل من خلال الملاحظات العامة التي كونها الباحثان حول اخطاء هؤلاء الطلبة ، لذلك فان البحث يسعى الى معرفة الاسباب المؤدية الى الوقوع في مثل هذه الاخطاء اللغوية والوقوف على جذورها وبالتالي اقتراح البدائل السليمة لمعالجتها .

طريقة البحث :

يعتمد البحث اساساً على تحليل جملة من المشاهدات الميدانية التي حصل عليها الباحثان من خلال تدريس انماط مختلفة من الترجمة لطلبة الفرع ، لذلك فانه سيركز على ماقام بترجمته الطلبة تحريريا ولكافة المراحل الدراسية. ان الطريقة التي اعتمدها الباحثان تستند الى جمع نماذج متفرقة من اخطاء الطلبة ومن ثم تصنيفها وفقا لأسبابها وكيفية معالجتها .وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا البحث تناول الاخطاء التي وقع فيها الطلبة اثناء ترجمتهم النصوص الانكليزية الى اللغة العربية فقط.

المقدمة :

من المسلم به ان هناك اختلافا جذريا بين اللغة العربية واللغة الانكليزية على صعيد الاصل والتركيب ، فالاولى تنتمي الى عائلة اللغات السامية Semitic Languages بينما تنتمي الثانية الى عائلة اللغات الهندية الاوربية Indo-European languages من هذا يتبين ان اللغتين من عائلتين مختلفتين كليا .ويترتب على هذا الاختلاف اختلاف في شكل الحرف والتركيب اللغوي ، حيث يشمل هذا التركيب اللغوي ظواهر في النظام الصوتي وقواعد اللغة بتركيباتها النحوية والصرفية . فعلى صعيد التركيب الاساسي للجملة نجد ان الجملة العربية تركيبين اساسيين هما:

فعل+فاعل (في الجملة الفعلية)

اسم+اسم (في الجملة الاسمية)

اما في الانكليزية فان التركيب الاساسي للجملة هو:

اسم + فعل

هذا على صعيد الشكل والتركيب اللغوي.

اما المسألة الجوهرية الاخرى التي نعتقد باهميتها فهي الاختلاف في الخلفية الثقافية بين اللغتين باعتبار ان اللغة هي الوعاء الحضاري الذي يستوعب الانماط الثقافية لمجموعة بشرية كاملة تعيش في بيئة واحدة وبالتالي يسهل عليها التعامل والتواصل وتبادل الاراء والافكار. فاللغة لاتحدث في الفراغ، وهي ليست مجرد هياكل تركيبية، وانما هي وسيلة اتصال قبل اي شيء آخر(١). من هنا فان اغفال الجانب الثقافي والحضاري للغة المطلوب ترجمتها Target language سيقود حتماً الى نواقص في الاداء اللغوي linguistic Performance والقدرة على استيعاب اللغة المطلوبة بشكل تام وهكذا لايمكن ان تترجم اللغات بمعزل عن ثقافتها. وعليه فان هذا البحث يحاول ان يوضح مسألتين: الاولى تشخيص الاخطاء التي يسببها النقص في فهم الوظيفة اللغوية للتراكيب، والثانية الوقوف على النقص الحاصل في فهم تراكيب وقواعد اللغة ذاتها.

البحث :

كما ذكرنا في طريقة البحث فأننا سنحاول ان نجمع أخطاء الطلبة من خلال المشاهدات والملاحظات التي حصلنا عليها أثناء قيامنا بتدريس أنماط مختلفة من الترجمة ومن ثم نصنف تلك الأخطاء طبقاً لأسباب حدوثها وكيفية معالجتها.

---

(1) See H.G. Widdowson, Teaching language as Communic ation OUP 1979.

١ - **الاخطاء التي يسببها التباين الثقافي بين اللغتين :** فقد وجد ان الفروقات الثقافية التي تنعكس في النتاج اللغوي للطلبة كانت قد اهملت بحثها بحيث لم تتطرق اليها المناهج القديمة وطرق تدريس اللغة الانكليزية المتبعة في العراق ابتداء من مراحل تعلم اللغة الاولى في المدارس الابتدائية وانتهاء بالمراحل النهائية من الدراسة الجامعية، والاكثر من هذا فان مفردات المناهج التي تدرس في اقسام اللغة الانكليزية نفسها تغفل الجانب الثقافي الى حد كبير وتعتمد اساسا على اعطاء الطالب التراكيب اللغوية ذاتها بمعزل عن طرق استعمالاتها في سياقاتهـــــا الثقافية Cultural context(2) حيث تعتبر هذه التراكيب المعنى الذي يعبر عنه بنص لغوي، ويعني ذلك اهمال المعنى المراد ايصاله ، لذلك فان هذا سيقود الى نوع من الترجمة يقوم في الاساس على فهم رياضي لمكونات الجملة وبالتالي نقل هذه المكونات الى اللغة العربية باعتبارها اجزاء وليس وحدة متكاملة ذات معنى محدد. وسبب ذلك هو الافتراض المسبق بأن الشكل والمضمون شيئان متطابقان، وهذا امر اثبتت كافة الدراسات الحديثة عدم صحته، اذ ان لكل معنى انماطاً مختلفة من التراكيب اللغوية التي تعبر عنه. وتجد في ادناه انواعا من اخطاء الطلبة التي يسببها النقص في فهم الوظيفة اللغوية للتركيب وسياقها الثقافي . فعندما يترجم الطلبة بعض التعابير الاصطلاحية idiomatic experssions فانهم يجزئون هذا التعبير الى مكوناته، فيترجمون الكلمات المكونة له واحدة بواحدة بحيث يحصلون على معنى يختلف عن معنى النص الاصلي، اي مايعنيه المصطلح في اللغة الانكليزية. فالطلبة تفوتهم حقيقة ان هذه المصطلحات هي تراكيب جاهزة او قوالب ثابتة بتركيبها تؤخذ كوحدات متكاملة ولها معان محددة هي ليست حاصل جمع الاجزاء المكونة لها. فالطالب الذي لايعرف معنى المصطلح في اللغة الانكليزية يبدأ بترجمته وكأنه جملة، وهنا يكمن الخطأ ، فالمصطلحات لاتسلك سلوك الجمل وإن كان لها شكل الجمل والامثلة التالية توضح ذلك .

(2) D.A. Wilkins, Notional Syllabuses, oup, 1976.

فعندما يترجم الطلبة التعبير الانكليزي : It's raining cats and dogs الى (تمطر قططا وكلابا) فان الخطأ الحاصل في هذه الترجمة سببه قيام الطالب بترجمة الكلمات المكونة للتعبير كلا على حدة، دون الاخذ بعين الاعتبار ان لهذا التعبير معنى محددا وهو ليس جملة عادية. ومعناه كمصطلح (ان السماء تمطر بغزارة). ويصح هذا على تعابير اصطلاحية اخرى مثل : ....,If I were in your shoes التي يترجمها الطلبة (لو كنت في حذائك) بدلا من(لو كنت مكانك) من هذا يتبين ان المترجم قد وقع في خطأين : الاول هو عدم استيعابه للجوانب الحضارية والثقافية لمجتمع اللغة الانكليزية وطريقة تفكيره، والثاني هو اعتماد الشكل اساسا في فهم اللغة. وقد ادى هذا بالتالي الى نقل النص حرفيا بمعنى بعيد عن المعنى الاصلي، دون مراعاة لما يسمى بالوظيفة اللغوية للتركيب ومن الامثلة الاخرى التي يمكن ان نسوقها للتدليل على نقص في استيعاب البعد الثقافي والاجتماعي للغة بكل تراكيبها ومفرداتها هي عندما يأخذ الطالب جانبا واحدا من ظلال المعنى للكلمة الواحدة، فقد لوحظ ان السواد الاعظم من الطلبة يترجمون كلمة silly الى (سخيف)، حيث ان هذه الترجمة لاتنطبق مع معنى الكلمة الاصلية في لغتها، فهي في اللغة الانكليزية المعاصرة كلمة محايدة لاتحمل معنى الشتيمة. فقد تقولها الزوجة لزوجها، والصديق لصديقه ضمن سياقات اجتماعية معروفة . اما في اللغة العربية فان نقلها الى كلمة (سخيف) يحمل معنى الشتيمة، وهي بذلك لاتعتبر ترجمة أمينة.

٢ ـ الاخطاء الناتجة عن تجريد الجمل والتراكيب عن سياقاتها اللغوية :

من المعروف ان الجمل والتراكيب اللغوية هي وحدات اولية تكون مجتمعة مايسمى في اللغة العربية (الوحدة العضوية) للنص والذي يقابله في اللغة الانكليزية Cohesion وهذا يعني ان اية جملة لاتحمل إلاجزء من المعنى الكلي وتعتمد بالضرورة في تكامل المعنى على مايسبقها ومايلحقها من جمل وتراكيب تحمل اجزاء اخرى من المعنى الاجمالي . الا ان الملاحظ في ترجمات

الطلبة هو اهمال تام لهذه الحقيقة بحيث يقوم الطلبة بترجمة الجمل والتراكيب بمعزل عن سياقاتها اللغوية فعند ترجمتهم لنص مثل:

We have benefi ted alot from this experience

فانهم يترجمونه الى (لقد استفدنا كثيراً من هذه التجربة) الا ان هذه الترجمة ومن خلال كلمة (استفدنا) ، توحي بان الاستفادة كانت ايجابية ، اي ان شيئا ماديا ملموسا قد تحقق

من خلال مايسبق ومايلحق هذه الجملة ، بينما يمكن ان يترجم هذا النص الى: (لقد تعلمنا درسا بليغا من هذه التجربة) اذا كان السياق العام الذي وردت فيه الجملة يوحي بان هذه التجربة قد تركت آثاراً سلبية مؤلمة في نفوسنا. لكن الغالبية العظمى من الطلبة يترجمون النص متأثرين بكلمة (benefit) التي يجدون معناها (يستفيد) لدى مراجعتهم للقاموس ثنائي اللغة . ويصح هذا على نصوص كثيرة من هذا النوع ، مثال ذلك ترجمة العبارة الانكليزية (....... One bright morning) الى (ذات صباح براق) حيث اعتمد الطالب على المعنى المباشر لكلمة (bright) كما ورد في القاموس دون ان يحسب حسابا لمتطلبات السياق التي تقتضي نوعا من التناغم بين كلمة (صباح) والصفة التي تتبعها .فلا نقول في العربية (صباح براق) بل نقول (صباح مشرق) فنستخدم كلمة (مشرق) التي ينسجم معناها مع كلمة (صباح) ، خلافا لكلمة (براق) التي تستخدم عادة كصفة للموجودات المادية كقولنا (معدن براق) الخ .

٣ــ وهناك اخطاء تحدث نتيجة عدم الاحاطة بمعاني المفردات lexical items اذ يهتم الطلبة بشكلها فقط آخذين المعنى المباشر لها والذي قد يختلف احيانا عن المعنى الاصل فقد لوحظ ان كلمة highway ، وهي في الانكليزية كلمة مركبة قد ترجمت الى(الطريق المرتفع) و (الطريق العلوي) و(الممر العالي) في معظم الترجمات التي جمعناها . غير ان أيا من هذه المعاني ليس هو المعنى المقصود . اذ ان كلمة highway تعني في العربية (الطريق الرئيس) . ومن

الامثلة الاخرى على هذا النوع من الاخطاء مانراه في ترجمات الطلبة لبعض التراكيب مثل .... He went down town التي ترجمت الى (ذهب اسفل المدينة) ، حيث يتأثر الطالب بالعنصر الحضاري والثقافي اضافة الى معاني المفردات . وكذلك ترجمة عبارة ...... Right in the middle الى (يمينا في الوسط) حيث قد تأثر الطلبة بمعنى كلمة (right) المرتبطة في اذهانهم مباشرة بكلمة (يمين) خلاف (يسار) ، حيث لايتوقع الطالب ان يكون معناها هنا هو (تماما) لذلك ترجمها بهذا الشكل المخطؤ.

٤ — اخطاء في ترجمة الصفات المتتابعة.

من المشاكل الرئيسية الاخرى التي يعاني منها طلبة الترجمة هي ترجمة الصفات المتتابعة. من المعروف ان هناك نظاماً تركيبيا محددا في اللغة الانكليزية يحدد مواقع الصفات ضمن تركيب العبارة الواحدة (١) الا ان شيئا من هذا النوع لايوجد في اللغة العربية بل هناك تقديم لما يراد ابرازه في الحديث على ماهو اقل اهمية . وهذا الامر يقود الى التباس واضح لدى الطلبة مما يجعلهم لايفرقون بين عمل الصفات ويظهر هذا بشكل واضح في الاسماء التي تعمل عمل الصفات والمسبوقة بصفة بحيث يختلط الامر على الطالب فلا يعرف لاي الاسماء تتبع الصفات مثال ذلك ترجمة عبارة solid staate physics الى (حالة الفيزياء الصلبة) والصحيح هو (فيزياء الحالة الصلبة).

٥ — اخطاء بسبب الترقيم.

يسبب الجهل في نظام الترقيم في اللغة الانكليزية مشاكل اخرى للطلبة المترجمين فكما نعرف ان للغة الانكليزية نظاما محددا ينعكس في شكل التركيب اللغوي لانعرف مثل هذا النظام في اللغة العربية فعندما يترجم

(I) Randolph Quirk et al, Acontemporary Grammar of English, longman p.925.

نص مثل:

Marcel Proust, he, and Jane Austen helped. me

فانهم يترجمونه الى (مارسيل برواست ، هووجين استن ساعداني متصورين انهما شخصان وليس ثلاثة اشخاص والسبب في هذا هو عدم معرفتهم بفاعلية الفاصلة التي وضعت قبل وبعد كلمة he والتي تغير المعنى بشكل كلي لو كانت مكتوبة على هذا الشكل:

Marcel Proust, he and Jane Austen helped me

خلاصة وتوصيات :

يتضح مما سبق ان اسباب وقوع الطلبة في تلك الاخطاء تكمن في عدم تمكنهم من اللغة الانكليزية وتعودهم على حفظ قواعدها حفظاً فقد تبين من سير المناقشة ان الصعوبات التي يواجهها الطلبة هي حصيلة مجموعة من العوامل، ويمكن تلخيص هذه العوامل على النحو التالي:

١ ـ ان اللغتين (العربية والانكليزية) مختلفتان كليا في تراكيبهما وأطرهما الثقافية وهذا بطبيعة الحال من شأنه ان يهيء الظروف المساعدة على الوقوع في الخطأ.

٢ ـ قيام الطلبة بترجمة النصوص والمفردات خارج سياقاتها اللغوية يؤدي حتماً الى تراجم خاطئة، لان ترجمة النصوص بعيداً عن السياقات التي ترد منها من المحتمل ان يكسبها معان تختلف عن المعاني التي تحملها ضمن سياقاتها اللغوية. وتبرز اهمية السياق على نحو اكثر وضوحاً عند ترجمة المفردات متعددة المعاني. اذ ان السياق هو الذي يحدد معنى الكلمة، وهنا يتوجب على الطالب فهم السياق لازالة اي لبس او غموض.

٣ ـ تبين ان الجهل بقواعد الترقيم وعدم ادراك اهمية علاماته يؤدي الى تحريف معنى النص المترجم.

٤ ـ كما تبين ان تتابع عدد من الصفات في نص انكليزي يخلق بعض الصعوبات امام الطالب المترجم بسبب اختلاف القواعد اللغوية التي تتحكم في ترتيب هذه الصفات ،في كلتا اللغتين.

وفي ضوء هذه المعطيات نوصي بالآتي:

أولا: ان تدرس اللغة الانكليزية كلغة ثانية في اقسام اللغات الاجنبية وذلك باتباع النظريات الحديثة التي تتعامل مع اللغة كوسيلة للتفاهم وليس مجرد قوالب لغوية جامدة.

ثانيا: ان يتخذ التحليل المقارن Contrastive analysis اساسا في تدريس مادة الترجمة . اذ ان نتائج هذا التحليل هي التي ترفدنا بأوجه التشابه والاختلاف ومواطن الصعوبة في كلتا اللغتين وبالتالي نجنب الطالب مشكلة تداخل اللغة الام باللغة الاجنبية language interference .

References

Widdowson, H.G. Teaching language as Communication, oup 1979

Wilkins, D.A. Notional Syllabuses, OUP 1976.

Quirk,R, Greenbaum, S., Leech, G & Svartvik , J. A Grammar of Contemporary English. London: Longman Group, 1972